إصدارة علمية بحثية متخصصة

nesemat.com

نسمات

دراسات حول مشروع الخدمة

الإصدارة الأولى - نوفمبر 2016

أسس بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع من منظور فتح الله كولن
د. رشيد اركيبي

أدب الأزمة وأخلاقيات رجالها.. مقاربات من حال فتح الله كولن ومقاله
د. جمال بن فضل الحوشبي

أثر العقيدة في بناء الحضارة لدى مالك بن نبي وفتح الله كولن
د. عبد الحميد مدكور

1

نسمات
دراسات حول مشروع الخدمة
إصدارة علمية بحثية متخصصة
تصدر عن دار النيل للنشر
www.nesemat.com

Copyright©2015 Dar al-Nile
جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وإشراف
صابر المشرفي

تحرير وتصحيح
هيئة النشر لدار النيل

اللجنة الاستشارية العلمية
د. محمد إقبال عروي
د. محمد جكيب
د. سعيد بويزري
د. محمد باباعمي
د. هدى درويش
د. سليمان الدقور
د. باسم عيتاني
د. جمال السفرتي
د. فؤاد البنا
د. عبد الله الدعجاني

تصميم فني
أحمد شحاتة

غلاف
ياووز يالمز

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع
دار النيل للطباعة والنشر، مصر
Tel. : 002 02 26134402-5
Mobile: 002 01023201002
E-mail: info@daralnile.com
www.daralnile.com

الترقيم الدولي
978-977-801-03-9

رقم الإيداع
2016/23127

القاهرة - مصر

مقالات

أسس بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع من منظور الأستاذ فتح الله كولن ٤
د. رشيد اركيبي

أدب الأزمة وأخلاقيات رجالها مقاربات من حال الأستاذ فتح الله كولن ومقاله ١٨
د. جمال بن فضل الحوشبي

أثر العقيدة في بناء الحضارة لدى مالك بن نبي ومحمد فتح الله كولن ٢٩
د. عبد الحميد مدكور

حوارات

مشروع الخدمة حقيقة واقعية وليس نظرية خيالية" ٤٩
أديب إبراهيم الدباغ

مقالات

السيرة النبوية من خلال التمثلات والصور الإدراكية مقاربة معرفية حضارية في تحويل المعرفة إلى سلوك ٥٨
د. محمد باباعمي

إحياء لغة الروح عند محمد فتح الله كولن ٧٥
ميمون قرمون

كيف ينظر علماء وأكاديميّو الغرب إلى فكر الأستاذ كولن؟ ٨٠
هشام الراس

رحلات وثائقية

الرحلة الثرية إلى بنسلفانيا للحاق بالمقامات السنية (١) الصعود إلى مقام الاعتكاف ٨٦
د. محمد جكيب

عرض كتاب

حركة كولن.. تحليل سوسيولوجي لحركة مدنية جذورها الإسلام المعتدل ١٠٠
عبد العزيز الإدريسي

مقالات

"هُوجَا أفندي" السيد الأستاذ أو حين تصوغ التربية نموذجًا مجتمعيًّا ١٠٨
د. سمير بودينار

من أخلاقيات العمل الجماعي المؤثر تجربة فتح الله كولن نموذجًا ١١٤
د. حميد الداودي

برقيات

برقيات ١٢٤

facebook.com/nesematstudies
twitter.com/nesemat_com

استهلال

بسم الله وعلى بركة الله، وبتوفيق من الله، نقدم للقراء الكرام العدد الأول من إصـدارة "نسمات". هذه الإصـدارة التي ارتأينا أن تكون مرصودة حصرًا للتعريف بالمنهج الفكري لما اصطُلح على تسميته بـ"الخدمة"، وقد أرسى قواعدها وشيّد بنيانها فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن" بأفكاره الإيمانية الانبعاثية، القائمة على ابتعاث الذات التاريخية والإيمانية للأمة المسلمة.

هذه الـذات التي يرى "كولن" أنها ليست مجرد نوع من المستودعات المطمورة تحت مستويات غاية في العمق، والموؤدة تحت أكوام من مشاغل العقل بالحياة النمطية المسطَّحة التي يعيش المسلم مشاكلها وأحداثها ووقائعها اليومية، بل هي -أي الذات- مجموعات من القوى والطاقات المختزنة.. وهي في حاجة -في كل وقت- إلى مَنْ يزيح عنها بقلمه تلك التراكمات، ويخرجها من تحت الأنقاض مجلوة ساطعة مضيئة، ويظهرها للعيان لتشرع بتجسيد طاقاتها الذهنية من جديد، محدثة مَدًّا فكريًّا يعمل على تحريك الواقع الساكن والجامد الذي يكاد يكون نوعًا من الموات الفكري والروحي لدى الأمة.

إن "الخدمة" كعقل جمعي بامتداداته إلى مفاصل المجتمع، إنما هي محاولة رائدة وجادة لسبر أغوار النفس المسلمة، ومعالجة مشاكلها وافتقاراتها ومجاعاتها الإيمانية والأخلاقية.. كما أنها لا تني تعمل على استنارة نزوعها الحضاري لاستئناف دورة فكرية وحضارية جديدة تسابق بها الأمم، وذلك بامتداداتها إلى شتى صنوف المعارف العصرية دون الإخلال بأي ثابت من ثوابتها الدينية وتقاليدها الحضارية.

فالارتقاء والسموُّ المعرفي ليس مقصورًا على الارتقاء نحو الأعلى الكوني فحسب، بل هو كذلك سموٌّ وارتقاء نحو الأسفل النفسي والذاتي. فمشروع الخدمة الذي خطط له فضيلة الأستاذ فتح الله كولن، إنما هو -ببساطة- ارتقاء نحو البعدين كليهما الأعلى والأسفل؛ الأعلى الكوني، والأسفل النفسي أو الذاتي. إنها عملية غوص غَوْري من مسطحات النفس أو الذات إلى المستويات الخفية من الماهية الإنسانية، وإن شئت قلت هي المستويات التي يحظى من خلالها بجوهره الروحي المغلف بطبقات سميكة من الأصداف والقشور.. فالمقاربة بين هذين البعدين وامتزاجهما معًا في المسلم، هما اللذان يشكلان الإنسان الحضاري والمثالي كما يريده الإسلام.

إن من أهداف "الخدمة" الأكثر إلحاحًا، هي العمل على هَزِّ العقل الذاتي للأمة، لكي يستيقظ من سباته، وينضو عنه ثوب الكسل والتراخي وعدم المبالاة.. إنه -أي كولن- يريد أن يجعل كيان المسلم الداخلي متمردًا على العادي والتافه من الحياة اليومية، وأن يكون دائم الوَمض مشرئبًّا متطاولاً ملهوفًا، وكأنه يريد أن يعانق الأشياء ويدخل فيها، ويحتضن الوجود ويذهب مع أبعاده، ويسيح في أرجائه، ويبحث عن الحياة الأسمى والعقل الأكبر والأوسع، والروح الأكثر ألقًا وسطوعًا، وأن يذوب في كل شيء، ويذيب فيه كل شيء.

ومما يسعد "نسمات" أن يتداعى نخبة من جلة الكتاب والمفكرين المعنيين بالمنهاج الفكري للخدمة، بالمساهمة في وضع بصماتهم القلمية على صفحاتها البكر الوليد، متناولين في بحوثهم ودراساتهم هذا المنهاج من جوانبه المتعددة بالتحليل والتعليل والتقويم. و«نسمات» إذْ تثمن هذه المساهمة الكريمة من الكتاب والمفكرين في إثراء الرصيد المعرفي لفكر "الخدمة"، تأمل منهم المزيد في قابل الأعداد، والله من وراء القصد.

أسس بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع
من منظور الأستاذ فتح الله كولن

رشيد اركيبي

ولد عام ١٩٦٠م في الدار البيضاء بالمغرب. حصل عام ١٩٨٣م على إجازة في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب بجامعة محمد الخامس. حصل على دكتوراه الدولة تخصص أدب حديث من كلية الآداب بالجديدة - المغرب عام ٢٠٠٤م. له مجموعة مقالات علمية في مجموعة من المجلات المغربية والمشرقية. أسهم في عديد من الندوات العلمية في مختلف الدول. يشرف على تأطير مجموعة من بحوث الإجازة والدكتوراه.

تتناول هذه الدراسة الأسس والمقومات التي تنبني عليها الشخصية الفاعلة في المجتمع في فكر فتح الله كولن. وقد وطأ الكاتب لهذه الدراسة بملاحظات عامة عن المقام الذي تربع فيه الإنسان، باعتباره مركز الكون، وباعتباره المخلوق الوحيد الذي أنيطت به وظيفة الإعمار وبناء الحضارة، على أساس أن ذلك هو ما جاء به التصور الإسلامي، وما حث عليه الخطاب القرآني في أغلب سياقاته. وقد توسع الباحث في تأمله في أسس بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع في رؤية الأستاذ فتح الله كولن، فوقف عند التشريح الدقيق الذي قدمه الأستاذ لما كان عليه حال المسلمين عندما كانوا متمسكين بروح التصور الإسلامي وحقيقة الخطاب القرآني، والحال التي انتهوا إليها عندما تخلوا عن مقومات الشخصية الفاعلة. وهو لب ما انبرى له فتح الله كولن في مشروعه الإصلاحي.

اهتم أغلب الدارسين وخاصة منهم علماء الاجتماع، بشخصية الإنسان وفاعليته في المجتمع، واعتبروا هذه الشخصية -في بعدها الاجتماعي- صيغة منظِّمة نسبيًّا لنماذج السلوك، والاتجاهات، والمعتقدات، والقيم النمطية المميزة لشخص معين، كما عدّوها محصلة الخبرات الفردية في بيئة ثقافية معينة ومن خلال تفاعل اجتماعي متميز. ولهذا تُحدَّدُ بناء شخصية الفرد، عن طريق ملاحظة نموذج سلوكه العام، وطريقة تفكيره ومشاعره، وأفعاله بما في ذلك سلوك دوره ونسقه القيمي[١].

ولقد شكل الإنسان المرتبط ببيئته بؤرة التأثير والتأثر في مجتمعه، باعتباره المسؤول الأول عن بناء المجتمع وصناعة الحضارة. فبالإنسان وحده أنيطت وظيفة البناء والتغيير نحو الأفضل لما زُوِّد به من أدوات الإدراك والإبداع التي تجعله عنصرًا فعّالاً وإيجابيًّا في هذه الحياة. ومن ثم وجدنا أغلب النظريات الفلسفية والدينية تتحدث عن مركزية الإنسان في هذا الكون، وعن خضوع باقي الكائنات لإرادته من أجل إعانته على إثبات كيانه الحيوي والوجودي.

وفي ديننا الإسلامي الحنيف، نجد الخطاب القرآني خصص حيزًا كبيرًا وواسعًا من سياقه للحديث عن الإنسان، باعتباره مخلوقًا مكرمًا شرّفه الله ﷻ على باقي الكائنات، ونفخ فيه من روحه، واستخلفه في هذه الأرض، وسخر له كل ما عليها، ووكل إليه أمر عمارتها وفق منهج عقدي وسلوكي متميز يضمن له حسن أداء هذه الوظيفة، كما قدم له منظومة معرفية عقدية وتشريعية شاملة ومتكاملة تجيب عن كل التساؤلات الوجودية الملحة، وتنظم له في الوقت ذاته حياته الخاصة والعامة. فقد قدم القرآن الكريم تفسيرًا شاملاً لحقيقة الوجود والكون والحياة والإنسان، وذلك في صورة كاملة تقابل كل عناصر الكينونة الإنسانية،

يحث الأستاذ فتح الله كولن على ضرورة تحقيق الربط الجدلي بين العلم والعمل، وبين الفكر والممارسة، بل ذهب أيضًا إلى حد الحديث عن ضرورة إحداث تناغم وتساوق بين العقل والقلب والحركة، وإلا فلا قيمة لشخص يعيش هذا الانقسام الخطير بين مكونات شخصيته.

وتلبي كل جوانبها، وتتعامل مع كل مقوماتها؛ تتعامل مع الحس والفكر والبديهة والبصيرة ومع سائر عناصر الإدراك البشري والكينونة البشرية بوجه عام كما تتعامل مع الواقع المادي للإنسان. فقد تحدث القرآن عن الإنسان حديثًا مستفيضًا يتناول مصدره ومنشأه ووظيفته وخصائصه في هذا الوجود، وغاية وجوده، وعبوديته لربه، ومقتضيات هذه العبودية[٢].

وإن من شأن استيعاب هذا التصور المتميز الذي قدمه القرآن عن الإنسان في علاقته بنفسه وواقعه وبربه وبالكون، من شأن ذلك أن يشكل له حافزًا ملحًّا يدفعه إلى تحقيق هذا التصور في واقعه، ما دام سيجد له صدى في أعماقه يهيب به إلى الحركة الفاعلة، ويدفعه نحو العمل وإفراغ الطاقات الإيمانية والحيوية كلها في العمل الإيجابي البناء، قصد عمارة الأرض وبناء الحضارة على النحو الأفضل الذي يتغياه المنهج القرآني ككل.

وعلى درب هذا التصور، ووفق مختلف توجهاته، بنى المسلمون مجتمعهم، وأنشؤوا حضارتهم، وظلوا قادة الأمم بما قدموه من مفهوم جديد تصوري وعملي للحياة والمجتمع، تصور قوامه التوحيد والعدل والمساواة. وظل هذا شأن الأمة الإسلامية طيلة قرون من الزمن، إلى أن دارت عليها الدائرة، وتخلت عن عقيدتها الصافية وأدارت ظهرها لقيمها، فارتدت على أعقابها أمة

متخلفة مندحرة أفسدت دينها ودنياها، على نحو مكّن لأعدائها أن ينتزعوا منها المشعل الحضاري، ويهمشوها في مؤخرة الركب البشري.

وخير من يشخص هذا الوضع المأساوي من الانحدار والاندحار الذي آل إليه المسلمون اليوم، الأستاذ فتح الله كولن نفسه بقوله: «ومِن أشدّ ما يُؤلِم أن هذا العالم -وقد ابتعد عن المحركات التاريخية والقيم الإسلامية التي رفعت هامته قرونًا طويلة- وقع أسيرًا في قيود الجهل والانحلال الأخلاقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية، فانحدر من هنا إلى مهاوي الظلام والخسران، وانحدر من هاوية إلى هاوية.. مبعثرًا -كحبات المسبحة إذا انفرط خيطُها، أو كصفحات كتاب انحلّ عقدُها- مهانًا تحت الأقدام.. مهزوزًا ومزعزعًا -كدحُه هباء وكفاحُه عقيم- مقصومَ الظهر بألف تفرق وتمزق.. حائرًا حتى البَله إذ يغنّي أناشيد الحرية وصدرُه يتشظّى أنينًا في أعظم أنواع الأسر عارًا.. أنانيًا بلا هوية.. أعلن العصيان على الله والرسول»[٣].

وهكذا تضافرت على الأمة الإسلامية عوامل داخلية وخارجية، كادت تفني وجودها وتمحو كيانها من الحياة لولا أن قيض الله ﷻ لها مَن يأخذ بيدها ويجدد لها أمر دينها، ويفتح لها كوّة الأمل لاستعادة دورها الريادي، خاصة عند نهاية القرن التاسع عشر، حيث تميزت هذه الفترة بمقاومة الاستعمار، وتحقيق الاستقلال، وإعادة بناء الصرح الحضاري والفكري.. وهذا ما تَجنّد له ثلة من المفكرين والمصلحين الغيورين على دينهم وأمتهم، فانطلقوا في مسيرات إصلاحية شاملة، تروم بلورة رؤى ومشاريع إصلاحية فكرية وحركية ساهمت -وما زالت- في إحداث صيحة تغييريه قوية في كيان الأمة.

فكان من ثمة تيارات وجماعات إصلاحية، مختلفة المشارب والوسائل ومتحدة الغاية والأهداف، وذلك ابتداء من مدرسة الإصلاح الأفغانية المصرية بريادة الأفغاني ومحمد عبده، ومـرورًا بمدرسة حسن البنا وسيد قطب، وتيار كل من الشيخ السنوسي وابن باديس وغيرهم كثير.. وانتهاء بشتى الحركات الإصلاحية الإسلامية الحديثة التي ما زالت إلى يومنا هذا تعمل وتجدّ؛ لإعادة المجد المفقود، وإحلال الأمة الإسلامية مكانتها الريادية المستحقة، عبر طرح مجموعة من التصورات والبرامج الإصلاحية الطموحة.

وكان من بين هؤلاء الرواد المصلحين الأستاذ فتح الله كولن رائد فكرة وحركة «الخدمة» في تركيا، وتلميذ الشيخ المعلم الرائد بديع الزمان سعيد النورسي ﵀ وإن لم يلتق به مباشرة.

فتح الله كولن وهاجس إعادة بناء الإنسان والمجتمع

شكلت حركة «الخدمة» للأستاذ فتح الله كولن إحدى أهم الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، والتي انطلقت من مرجعية إسلامية قصد التأسيس لمشروع حضاري إسلامي جديد، قوامه القيم الإسلامية، ودعامته الأساسية الإنسان المؤمن الموحِّد المغترف من ينابيع العقيدة الإسلامية.

وقد شكل أمر إعادة بناء شخصية الإنسان المسلم، الهاجس الأكبر لدى الأستاذ، والذي كانت له قناعة قوية مفادها أن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تقوم لها قائمة، ولن تستطيع إثبات وجودها على خريطة المجتمعات الحديثة، دون الاهتمام بالإنسان الفرد، باعتباره النواة الأولى واللبنة الأساس لبناء الأمة والمجتمع.

وهذا الإنسان ذاته لا يقوم وحده كما زعم الزاعمون، بل لا بد له من أسس متينة يقوم عليها، ومن رؤيا شمولية متكاملة تمهد السبل لصياغة شخصيته، شخصية إنسانية فاعلة في المجتمع، وقادرة على الإسهام الإيجابي في عملية إخراج هذه الأمة من جديد إلى حيز الوجود،

كيانًا قويًّا رائدًا ومؤثرًا في مسار البناء الحضاري.

فعملية بناء الأمة والمجتمع، وفق ما يستنبط من خطابات الأستاذ كولن، وكما سيتأكد لنا ذلك خلال الدرس التحليلي لبعض هذه الخطابات، ليس بالأمر الهين، بل هي عملية شاقة وعسيرة ترتبط -أساسًا- بمدى القدرة على إيجاد الشخصية الإيجابية المسؤولة عن هذا البناء، وهذه الشخصية لا توجد من فراغ، بل لا بد من بذل الجهد الجهيد لرسم معالمها وتحديد أسس بنائها بشكل علمي وعملي رصين.

فقيمة المجتمع من قيمة الإنسان -كما يقول الدارسون- والمجتمع الذي لا قيمة للإنسان فيه لا يعير من ثم أية قيمة للمجتمع نفسه.

ومن ثم كانت الأهمية القصوى والأهمية المستعجلة للتفكير -أولاً- في إعادة صياغة الإنسان الفرد، والخروج به -حسب كولن- من حالة الخمول والسلبية واللافاعلية، إلى حالة العمل الإيجابي والحيوية النشيطة والحركية البناءة. وهذا ما سيخصص الأستاذ كولن كل جهده لتحقيقه، انطلاقًا من رؤية إسلامية متميزة رَفَدها من ينابيع شتى، وطعّمها من مصادر دينية وفكرية وفلسفية مختلفة، أهّلته ليكون صاحب مشروع حضاري بامتياز.

رؤية مستندة إلى منظومة معرفية متكاملة ومتعددة المشارب

أطّر الأستاذ كولن لرؤيته التغييرية البنائية، من خلال منظومة معرفية شاملة ومتكاملة تغرف من ينابيع شتى، وعلى رأسها الينبوع القرآني، مرورًا بالينبوع الفكري الثقافي -في عمقه الإسلامي والغربي- وانتهاء بالينبوع الصوفي الروحاني -كما تجلى على الخصوص عند النورسي- الشيء الذي أسعفه في تقديم خطاب إصلاحي شمولي، يتقاطع فيه العقلاني بالوجداني وبالحركي ضمن وحدة متجانسة الأطـراف ومتصلة

إن القرآن -كما يؤكد الأستاذ فتح الله كولن- هو أول محطة فكرية عقائدية يجب الوقوف عندها مليًّا لبناء عقيدة سليمة يستند إليها المؤمن في صقل شخصيته، والسمو بروحه وقلبه إلى آفاق التوحيد والإيمان الخالص.

الأوصال، غرضها الأساس تحقيق أقوى سلطة تأثير على كيان وعقل أتباع الخدمة ومحبيها لجعلهم عناصر فعالة ومؤثرة في المجتمع.

وعلى الرغم من إدراك الأستاذ لمدى صعوبة هذه المهمة البانية العسيرة، ووقوفه على مدى ضخامة الجهود المضنية التي تنتظر من يتصدى لذلك، أجل، على الرغم من ذلك، فقد ظلت نبرة التفاؤل والأمل في التوفيق، تراوده دومًا؛ إذ نسمعه يقول فيما يمكن اعتباره بيانًا تنظيريًّا جوهريًّا، يوجه من خلاله دعوة إلى ضرورة إيجاد ووجود من أسماه بـ «الإنسان الجديد»، إذ يقول: «نحن اليوم على مشارف عهد جديد في مسيرة تاريخ الإنسانية، متفتح على تجليات العناية الربانية (..) ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفق، تبشر بأن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد (..) ومن ضمن الجماهير الفاقدة لوعيها، الهائمة على وجهها، سيولد إنسان جديد كل الجدّة؛ إنسان يفكر ويحاسب، ويوازن ويدقق، ويعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل، ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة، إنسان يحاول دومًا بروحه وبدنه الوصولَ إلى الأفضل (..) إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخـرة، ويوفّق إلى الجمع بين عقله وقلبه، فيصبح نموذجًا جديدًا لا مثيل له. ولا شك أن ولادة هذا الإنسان الجديد ليس بالأمر السهل، فلا بد من آلام مخاض وتوجّع وأنين، ولكن حين يئين الأوان فسوف

تتحقق هذه الولادة المباركة حتمًا، ويظهر هذا الجيل الذهبي بيننا فجأة»[٤].

إنها إذن، الانطلاقة من الفرد في إطار عملية شاملة لبناء الإنسان، إذ إن كولن في رؤيته هذه ينطلق من الخاص للتأثير في العام، قصد التمكن من بناء شخصية مؤمنة فاعلة مستوفية لكل الشروط الذاتية والموضوعية المؤهِّلة لإعادة بناء المجتمع. فلا بد في البداية من إصلاح الذات وتهذيب النفس، إذ الإصلاح لديه يبدأ من تغيير ذاتي نفسي يشمل الإنسان/الفرد، خاصة إذا تمت صياغته انطلاقًا من أسس عقدية وأخلاقية متميزة. وقد ارتأينا تصنيف هذه الأسس على النحو التالي: الأساس العقدي والمعرفي، والأساس الروحي والأخلاقي، والأساس الفكري والتربوي، والأساس العملي والحركي.

الأسس البنائية

١- الأساس العقدي والمعرفي: يقول الأستاذ كولن: «إن الوصف الأول لوارث الأرض هو الإيمان الكامل. يحدد القرآن الكريم «الإيمان بالله» غاية لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة، وبُعد العشق والشوق وتلوّن الخطوط الروحانية. والإنسان مكلّف ببناء عالمه الإيماني والتفكري، حينًا بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود، وحينًا بالتقاط شرائح من الوجود وتقييمها في ذاته. ويعني هذا في الوقت عينه، ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحـه. والإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء، إلاّ في ضياء الإيمان.. وبعد الاطلاع، يحيط فهمًا بالوجود في أبعاده الذاتية»[٥].

فلا بد إذن خلال عملية البناء، من الانطلاق أولاً من قضية الإيمان بالله كما بينها وفصلها القرآن الكريم. فقد شكل القرآن الكريم بفضائه الروحاني والعقائدي الرحب، أول وأهم مدرسة استند إليها الأستاذ فتح الله كولن في بناء عقيدته، وأثرت في كيانه ووجدانه، ورسمت له -في الوقت نفسه- آفاق نظرتة للحياة والإنسان والكون.

وقـد ظل هـذا الكتاب المعجز العجيب، يمارس سلطته التأثيرية الشاملة على الأستاذ كولن، ويرسم له -بالخصوص- حدود الشخصية الإسلامية الموحدة، ومجالات التزامها وسلوكها ومعتقداتها؛ الشيء الذي وفَّق كولن، إلى حسن استيعابه، وتفهمه، والعمل على ترجمته تصوريًّا وسلوكيًّا وشعائريًّا، فأحال شخصيته التواقة إلى معرفة الحق وسلوك طريق الحقيقة، شخصية متقدة تغلي بكل مشاعر وأشـواق المحبة والإيمان والعشق الإلهي، والإذعان الكامل والتسليم المطلق لفاطر السموات والأرض.

وهذه الحقائق نفسها، هي التي حاول الأستاذ فتح الله كولن أن يجاوز بها القناعة الذاتية الخاصة به، لينشرها ويبثها في قلوب وأفئدة مريديها وكل المسلمين، خلال خطاباته الإصلاحية المختلفة، المبثوثة عبر أغلب كتاباته؛ وخاصة منها ما وقع بين أيدينا حاليًّا، من أعمال مترجمة إلى العربية، على نحو كتاب و «نحن نقيم صرح الروح»، وكتاب و «نحن نبني حضارتنا».

في هذا الكتاب الأخير، يهمس في آذاننا همسات لطيفة، مشحونة بمنتهى العشق الروحي، متحدثًا عن القرآن الكريم وما ضمه بين دفتيه من حقائق عقدية ملهمة، ومحققة لذلك التوازن الذاتي والغذاء الروحي اللذين يحتاج إليهما كل مسلم في مجتمعه، حيث يقول: «هذا الكتاب ينير أفق عرفاننا، بحيث لا يتعرض الإنسان -حينما يسير على هداه نحو «عرشِ كمالِ» قلبه- لوحشة الطريق، ولا احتقانِ الفكر، ولا انقباض الروح.. يسير دومًا في هذا الطريق الذي يحس إبّان السير فيه بتداخل العلم وتمازجه مع الإثارة والنشوة،

والإيمانِ مع المشاهدة، وثقلِ الحِمل مع الاطمئنان، والالتزام بالنظام مع الإحساس بالأمن (..) ولا أظن أن من يعرف هذا الكتابَ يحتاج إلى مصدرٍ غيرِه في المواضيع الأساسية المتعلقة بالإنسان والكون والله، إلا في تفصيلِ مجمَلاته وتدقيقها (..) هذا الكتاب، بنزوله على أعظم البشر بركةً وأسعدِهم طرًا، في نقطةِ تحولٍ مهمةٍ لسير التاريخ، استهدف تنظيمَ حياةِ مجتمعٍ محظوظٍ، فرديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وإداريًّا واقتصاديًّا وروحيًّا»[٦].

فالقرآن -كما يؤكد ذلك الأستاذ كولن- يعدّ المصدر الأول والأهم في تشكيل وعي المسلم على كل المستويات وفي كل المجالات، وخاصة المجال العقائدي المتعلق بمعرفة الله وتوحيده؛ فهو أول محطة فكرية عقائدية يجب الوقوف عندها مليًّا، لبناء عقيدة سليمة يستند إليها المؤمن في صقل شخصيته، والسمو بروحه وقلبه إلى آفاق التوحيد والإيمان الخالص.

والقرآن كان -وما يزال- المرجعية الأولى لفهم الدين ومعرفة حقيقة الالتزام بالإسلام وقيمه المختلفة.

ومن ثم نجد الأستاذ كولن، يوسع من مفهوم الإسلام والإيمان والتوحيد، ليشمل كل مجالات الحياة ويطال كل الأبعاد النفسية والفكرية والسلوكية للشخص المؤمن، على نحو يجعل منه شخصًا موحِّدًا ومؤمنًا بالغيب ومهتمًّا أيضًا بعالم الشهادة، حاملاً همّ البناء والإصلاح والتغيير نحو الأفضل.

فالإسلام كما يؤكد ذلك الأستاذ كولن في نفس السياق: «إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب، هي «لا إله إلى الله محمد رسول الله»، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان: أحدهما غاية، والآخـر وسيلة. فالإيمان الـذي هو كـ «شجرة طوبى»؛ تنشأ من هذه البذرة، فتغطي -بما تؤتي من ثمار المعرفة- سماءَ أحاسيس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تتحول العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص، بحملةٍ وهمّة داخلية، وشعورٍ وحسٍّ داخلي؛ ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيحوّله إلى إنسان جديد قائم على محور الوجدان. فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق، وتَحمل عبادتُه وطاعتُه سماتٍ ترتسم بخيوط هذه العلاقة الرابطة، وذلك العشقِ والاشتياق (..) وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول قوة الجذب المركزي هذه»[٧].

إنه بمعنى آخر، ذلك الدين الفطري المتغلغل في كل كيانات الإنسان ونقاط مداركه، يتفاعل معه المؤمن وينفعل به، وينقله من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، لينقلب لديه أكبر محفز على العمل والفاعلية الإيجابية. فلا مجال إذن للحديث عن المفهوم التواكلي السلبي للتدين والإيمان الفاتر الذي لا يحرك في قلب وكيان صاحبه كل مشاعر وأشواق الحب للآخرين، والرغبة في إسعادهم وإرفادهم من رصيد الإيمان.

«ومن الحق أن حقيقة الإيمان -كما يؤكد ذلك الأستاذ فتح الله كولن- المتأصلةَ في عالمنا الداخلي، إنما تُديم وجودَها بقدْر تناميها وتوسعها في الحياة المعيشة؛ فإذا بُذرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرت في القلوب، ثم

يؤمن الأستاذ فتح الله كولن إيمانًا جازمًا، أن لا فائدة من علم مجرد عن العمل والانتشارِ في الأرض ابتغاء الإصلاح والتغيير نحو الأفضل، ولا فكر بدون حركة؛ حركة التغلغل في كيان المجتمع، قصد الإسهام في إصلاحه وتقدمه عن طريق تقديم الخدمة للبشر قاطبة، والأخذ بأيديهم نحو حياة الكرامة والعز والأمان والإيمان.

تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورَفدت وازعَ الحقّانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامنا إلى اللانهاية للتطور والتوسع. وكما يكون إيمانٌ كهذا الإيمان في الإنسان مصدرًا لا ينفد للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدةً ومنصةَ انطلاق للارتقاء باسم «خلافة الله في الأرض» إلى حق «التدخل في الأشياء» وتشكيلِ صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره الإيمانية، والانفتاح على اللانهاية في محور التوحيد والتجريد بالتصورات الجمالية والروح الفنية في طبيعيتهما الذاتية»[٨].

إنه إذن، المفهوم الشمولي للإيمان المستوعب لكل آفاق ومجالات الحياة العامة للإنسان، يعالجه «كولن» في هذا السياق ليؤكد من خلاله أن المعطى العقائدي الإيماني في الإسلام، ليس مجالاً جامدًا ومنغلقًا يشلّ حركية الفعل وإيجابية السلوك لدى المؤمن الموحِّد، بل على العكس من ذلك، إن الإيمان والعقيدة التوحيدية متى تمكنا حق التمكن من عقل وقلب ووجدان المؤمن، يمكنهما أن يشكلا لنا نموذج الشخصية المؤمنة البناءة التي تأبى أن تقف بإيمانها وعقيدتها عند حدود التصور الجامد الثابت الجاف، بل تسعى دومًا إلى تجاوز ذلك نحو الترجمة العملية الفاعلة في عالم الشهادة.

٢- الأساس الروحي والأخلاقي: إذا كانت العقيدة التوحيدية الخالية من كل الشوائب، هي نقطة الانطلاق لبناء الشخصية الفاعلة في المجتمع، بما تقدمه لصاحبها من زاد عقدي غني بالحقائق الإيمانية الصافية التي تسمو بصاحبها إلى أعلى درجات التوحيد، والتعلق بالإله الواحد الأوحد الجدير بكل عبادة، فإن من شأن من تشرب هذه العقيدة، أن يرقى بالمؤمن إلى عوالم من التعبد والتقرب للذات الإلهية، وصقل الـروح وتزيينها بكل أحـوال المحبة والعشق الإلهي، وهذا ما عمل على ترجمته الأستاذ فتح الله كولن في كتاباته والتي أولى فيها موضوع التربية الروحية والتزكية السلوكية والأخلاقية كل اهتماماته، إيمانًا منه بأنه لا فلاح لمؤمن موحد لا يهتم ببناء روحه وتخليتها من كل شوائبها، ثم تحليتها -بعد ذلك- بكل ما يزكيها ويصقلها ويسمو بها إلى مدارج الشوق الإلهي والعرفان الرباني.

ولقد كانت نشأة فتح الله كولن في بيئة صوفية، وتتلمذه على بعض أقطاب المدرسة الصوفية التركية، وخاصة الأستاذ بديع الزمن النورسي من خلال كتبه المعروفة بـ «رسائل النور».. كان لكل ذلك أكبر الأثر في توجيه وتشكيل وعيه ومساره الديني، إذ أيقن الأستاذ كولن من خلال الإبحار في النصوص القرآنية والنبوية والكتابات الصوفية، أن الإنسان المؤمن الموحد المركب من جسد وروح، لا بد له من تغذية روحه، والاهتمام بتزكيتها والسمو بها اهتمامَه بتغذية جسده والعناية به. إذ لا يتم استكمال بناء شخصية المسلم الفاعل، إلا بالالتفات إلى جانبه الروحي والأخلاقي، والعمل على تحقيق لون من التربية الروحية، وتنقية القلب من كل شوائبه، على اعتبار أن القلب -كما يرى الأستاذ كولن- هو نقطة الارتكاز الأساس في تصفية الروح وتقويم الخُلق. نسمع الأستاذ يؤكد هذه الحقيقة في كتاب «ونحن نقيم صرح الروح» بقوله: «ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان «إنسانًا» وفق المعنى الذي يجعله إنسانًا حقًّا، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه واستماعه إلى روحه، رغمًا عن بدنه وجسمانيته وعقل معاشه الدنيوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، ويقيّمهم بموازين القلب المتأهلة للاعتبار والتقدير، لكي يتعرف جيدًا على نفسه وما حوله. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحفظ طراوة قلبه وصفوة روحه في

كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنقاء وطهر الأطفال برفقة ثرائه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحي بالثقة إلى من حوله، ولن يحوز على التصديق والإقناع قطعًا، مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخبرة»[٩].

بل إننا نجد الأستاذ فتح الله كولن في سياق آخر، يعتبر التصوف وما اهتم به من تربية روحية وتزكية نفسية -كما تجلت لدى أقطاب الفكر الصوفي عبر التاريخ- من المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي بعد الكتاب والسنة والإبداع والقياس والاستحسان والاستصحاب؛ إذ يرى أن التصوف هو مصدر مهم للمعرفة والثقافة في مساحة واسعة من الحياة الروحية إلى الأخلاق وآداب المعاشرة.

ثم يسترسل مبينًا أبعاد هذه الحقيقة بقوله: «يمكن القول: إن التصوف هو الحفاظ الدائم على طهارة القلب حيال دوافع الشيطان والنفس، وردعُ النفس عن ميولها الخاصة وتضييقُ مجالها بقدر المستطاع.. ومواصلةُ السير في طرق الارتقاء نحو «الإنسانية» الحقيقية بالكد الدائم للبقاء في مستوى «الحياة القلبية والروحية»، وتكريسُ الحياة على تحقيق السعادة المادية والمعنوية للآخرين، ومع منتهى الجدية في المناسبات مع الحق تعالى.. واتباعُ نهج النبوة في عدم انتظار الأجر حتى في أصدق الجهود وأخلصها وفي أعظم الأعمال وأشدها.. والعزمُ على المسير أبدًا في ظلال المشكاة المحمدية ﷺ في مساعي العبودية للحق تعالى.. وإشهارُ عبودية صافية خالصة لا غرض فيها ولا عوض، بالتقيد الشديد في المناسبات مع الله تعالى بإدراك نوعية المناسبة بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، والطالب والمطلوب، والقاصد والمقصود.. والقيامُ بمنتهى التحمل والصبر الدؤوب حيال المعاصي.. وأداءُ العبادات

إن التحصيل العلمي الحقيقي -كما يرى كولن- يجب أن يقود إلى اكتساب قدرات فكرية متميزة، تعين على إعمال العقل وتوظيف ملكاته الإيجابية والتخطيطية، بحيث تؤدي في النهاية إلى الوعي التام بالذات، ومن ثم الوعي بالمحيط الموضوعي، واستثمار كل ذلك لخدمة الواقع ومساعدة الآخرين في إطار حضور الثوابث الشرعية.

والطاعات في لذة ونشوة، كأنها الغاية والهدف من الحياة.. واستقبالُ البلايا والمصائب بالابتسام مع انشراح الصدر لقهره ولطفه تعالى في نفس المستوى.. وربطُ كل أنواع السعي والهمة باستحسان الحق تعالى وليس بتقويمات البشر.. والصبر على تباطؤ الزمن صبر الدجاجة الحضون»[١٠].

وبهذا يكون كولن، قد طعّم منظومته الإصلاحية بهذا المنحى الروحي الأخلاقي الصوفي كأهم دعائم خطابه الإصلاحي الرامي إلى إعداد ما أسماه بـ"رجل القلب"، وهي إحدى أهم الصفات المحورية في بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع. فلا فاعلية دون عقيدة توحيدية سليمة، ولا عقيدة كاملة دون نزوع روحاني متوازن يمتاح من منبع التصوف.. وهذا ما أكسب -في رأينا- كتابات الأستاذ فتح الله كولن بُعدًا روحيًّا يهدف إلى عقد نوع من التجانس والتوافق بين الشريعة والحقيقة، أو بين أهل الظاهر وأهل الباطن، مما وسع من آفاق ومجال مشروعه الإصلاحي، وجعله يشمل تطلعات الإنسان والمجتمع الروحية والأخلاقية شمولها لتطلعاتهما المادية والواقعية.

٣- الأســاس الفكري والتربوي: في إطـار تفعيله لشمولية رؤيته الإصلاحية المتكاملة، أولى الأستاذ فتح الله كولن عناية خاصة للمجال الفكري والتربوي، باعتبارهما من أهم الأسس التكوينية المساهمة في تقوية بناء الشخصية المسلمة الفاعلة في مجتمعها. فإذا كانت العقيدة نقطة انطلاق أساسية في مسار بناء الشخصية، ثم تلتها مرحلة التربية الروحية والتزكية القلبية كمرحلة بنائية تالية وضرورية من أجل إنضاج عملية التكوين وصقل كيان الشخصية المؤمنة والانتقال بها من مجال الإيمان والاعتقاد إلى مجال التعبد والقربى لله ﷻ، فإن هاتين المرحلتين معًا لا تستكملان دورهما ولن تفصحا عن كل مكنوناتهما ما لم يُدعَما بمرحلة أخرى أساسية وهامة، إنها مرحلة الإعداد الفكري والتكوين العلمي والتربوي.

وأظن أن هذا المجال، يمكن أن يعدّ من أهم الحقول التكوينية التي صال وجال فيه الأستاذ كولن، موظفًا فيه كل خبراته وتجاربه الذاتية والعلمية من أجل إعداد ما أسماه بـ «الجيل الوارث»؛ الجيل الحامل لهمّ الأمة، والعامل على إثبات وجودها وتجديد كيانها في الواقع الحديث. ولا غرابة في ذلك ما دام الأستاذ نفسه خضع وأخضع نفسه لمسيرة فكرية وعلمية وتربوية طويلة ومضنية، كلفته الكثير من الوقت والجهد والجد والاجتهاد على الرغم من كون أغلب مراحل تكوينه العلمي كانت خارج المؤسسات الرسمية، حيث يمكن اعتباره شخصًا عصاميًّا تتلمذ على بعض الشيوخ والأساتذة الذين كان يحضر مجالسهم العلمية، واستمع إليهم وأفاد منهم، أو من الذين أخذ عنهم عن طريق الاطلاع على كتبهم ومصادر علمهم.

كل ذلك ساعده على اكتناز رصيد ضخم من المعارف المتعددة المشارب، سيعمل -مع مرور الزمن- على تكثيفها وإغنائها بمزيد من التحصيل والاستيعاب والانفتاح على كل العلوم الدينية منها والدنيوية.

وعلى العموم، فقد ظل هاجس تحصيل العلم ودراسة الفكر واكتناز مختلف المعارف، أهم هاجس لازمه من صباه إلى كبره، وهذا ما سيوفر له خلفية ثقافية ضخمة، ومرجعية فكرية هائلة سيغرف منها للكتابة والتأليف والخطابة، وإعداد الخطط والبرامج خاصة لتلاميذه ومحبيه الذين عمل جاهدًا على إقناعهم بما اقتنع به؛ من ضرورة تحصيل العلم النافع، وبناء رصيد معرفي وفكري هام تكتمل بهما معالم الشخصية الفاعلة. ولعل هذا ما يفسر لنا إقبال الأستاذ كولن ضمن «فكرة الخدمة»، على فتح عشرات المدارس والجامعات والأكاديميات ومراكز البحث والتكوين والإعلام، لتشكل منارات استقطاب وتكوين العلماء والخبراء في شتى المجالات. فلا فاعلية -إذن- ولا تأثير في الواقع ولا إصلاح، بدون علم وفكر وتربية، وهذا ما يعمل الأستاذ كولن على تفصيله في مجموعة من كتبه ومقالاته، كمعالم أساسية لاستكمال بناء الشخصية. لكن الأستاذ

لا يتم استكمال بناء شخصية المسلم الفاعل، إلا بالالتفات إلى جانبه الروحي والأخلاقي، والعمل على تحقيق لون من التربية الروحية، وتنقية القلب من كل شوائبه، على اعتبار أن القلب -كما يرى الأستاذ كولن- هو نقطة الارتكاز الأساس في تصفية الروح وتقويم الخلُق.

كولن يشترط لعملية التحصيل العلمي شروطًا وضوابط هامة. إذ لا بد أولاً من توجيه نتائج العلم توجيهًا نفعيًّا إيجابيًّا مستظلاً بظلال الشرع الإسلامي.

كما دعا أيضًا، إلى ضرورة الالتفات إلى ما يزخر به تراثنا الإسلامي من كنوز علمية، وحب العمل على الاستفادة منها بعد غربلتها من شوائبها. ودعا الأستاذ كولن إلى العمل أيضًا، على إخضاع نتاج العلم الحديث لمنطق الفكر الإسلامي، إذ يقول في هذا: «الوصف الثالث للوارث، هو التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والشعور. هذا التوجه الذي يشكل جوابًا عن تمايل البشر وحَيْدِه في انسياق البشرية بفرضيات سوداء في مرحلة زمنية معينة، سيكون خطوة مهمة باسم الخلاص الإنساني»[١١].

ويشير إضافة إلى كل هذا، أن الفكر والتفكر معًا أمران ضروريان لحياة المؤمن، وأن الذي يحيا دون أن يفكر ويتعلم؛ يعيش سطحيًّا إلى درجة كأنه الطفل، حيث يقول: «ما ينبغي هو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطًا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة.. والذين يعيشون بغير فكرٍ هُم دُمى تُمثّل فلسفة حياة للآخرين»[١٢]. وتحدث الأستاذ فتح الله كولن في هذا السياق، عن ضرورة إعمال الفكر -أيضًا- في ملكوت الله، وخلقه، وآثار وجوده، من خلال آياته المبثوثة في الكون أو المسطورة في القرآن[١٣].

كما دعا أيضًا، أن يكون المفكر حرًّا في تفكيره، طليقًا من أي ضغط خارجي، ليتسنى كسب المعرفة بكل أبعادها. فالمسلم مجدّ في طلب العلم وتحصيل المعرفة أنّى كان مصدرها، شريطة إخضاعها لتصوره الإيماني، وضبطها بضوابط الشرع -كما قلنا- دون أن يخشى الوقوع في أي استلاب ذهني أو يسقط صريع

الإنسان الجديد بطل يتمتع بشخصية قوية استطاعت أن تسمو على المؤثرات الخارجية بشتى أنواعها، وعزمت على الصمود والاكتفاء الذاتي. فكما أن الشرق والغرب لن يستطيعا أسره ووضع السلاسل في قدميه، فكذلك لن تستطيع الأفكار والفلسفات التي تتناقض مع هويته المعنوية وجذوره أن تغير وجهته.

غزو فكري غربي، ما دام يظل دائمًا متمسكًا بجذوره، وفيًّا لأفكار أجداده.

ويؤكد الأستاذ كولن هذا بكل جلاء في مقاله حول «الإنسان الجديد» بقوله: «الإنسان الجديد بطل يتمتع بشخصية قوية استطاعت أن تسمو على المؤثرات الخارجية بشتى أنواعها، وعزمت على الصمود والاكتفاء الذاتي. فكما أن الشرق والغرب لن يستطيعا أسره ووضع السلاسل في قدميه، فكذلك لن تستطيع الأفكار والفلسفات التي تتناقض مع هويته المعنوية وجذوره أن تغير وجهته وتضله في ظلامها عن طريقه، بل ولن تستطيع أن تزحزحه عن مكانه قيد أنملة أو أقل من ذلك. أجل، الإنسان الجديد رجل حر في تفكيره، حر في تصوره، حر في إرادته، وحريته هذه مرتبطة بقدر عبوديته لله سبحانه وتعالى. ثم إن الإنسان الجديد لا يتشبه بالآخرين ولا يتمثل بهم، بل يحاول جاهدا أن يتزيّا بهويته الذاتية ويتزيّن بمقوماته التاريخية.

الإنسان الجديد ممتلئ بالفكر، ملتهب بعشق البحث، مفعم بالإيمان، قابل للوجدانيات، متشبع بنشوة الروحانية ومعانيها»[١٤].

بل إن هذا الإنسان الجديد -حسب كولن- يجب أن يكون مشاركًا وحاضرًا بقوة في مسيرة الحركة العلمية

الحديثة، ينهل من كل المعارف والعلوم، مستغلاً لكل وسائلها، وموظفًا لها من أجل إيصال كلمته، فهو يقول: «الإنسان الجديد يستخدم جميع وسائل الاتصالات الحديثة؛ كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعــة وتلفازاً ومنشورات للولوج إلى القلوب والنفوذ إلى العقول والدخول إلى الأرواح، ويثبت جدارته من خلالها مرة أخرى، بل ويسترد مكانته المسلوبة في التوازن العالمي من جديد.

الإنسان الجديد، هو إنسان عميق من حيث جذوره الروحية، متعدد من حيث ما يملكه من كفاءات صالحة للحياة التي يعيش في أحضانها. إنه صاحب القول الفصل في كل الميادين بدءا من العلم إلى الفن ومن التكنولوجيا إلى الميتافيزيقيا، وصاحب خبرة ومراس في كل ما يخص الإنسان والحياة. أجل، إنه عاشق لا ينطفئ ظمؤه إلى العلوم مهما نهل، مولع بالمعرفة ولعاً لا يفتأ يتجدد كل حين، عميق بأبعاده اللدنية التي تعجز العقول عن تصورها»[١٥].

وعلى العموم، فإن التحصيل العلمي الحقيقي -كما يرى كولن- يجب أن يقود إلى اكتساب قدرات فكرية متميزة، تعين على إعمال العقل وتوظيف ملكاته الإيجابية والتخطيطية، بحيث تؤدي في النهاية إلى الوعي التام بالذات، ومن ثم الوعي بالمحيط الموضوعي، واستثمار كل ذلك لخدمة الواقع ومساعدة الآخرين في إطار حضور الثوابت الشرعية.

لكن الهاجس الأكبر الذي ظل يلح على الأستاذ كولن، وهو بصدد الدعوة إلى ضرورة تحصيل العلم والاجتهاد في الاغتراف من شتى ينابيع الفكر قصد استكمال أهم صفات الإنسان الفاعل.. كان هذا الهاجس هو ضرورة ربط الفكر بالعلم، والعلم بالسلوك. فأبغض ما كان الأستاذ يبغضه، هو ذلك الفصام النكد الذي يمكن أن يحصل بين الفكر والعمل، وبين العلم والسلوك والممارسة، شأن ما يحصل في عصرنا الحديث لدى أغلب الأوساط العلمية في شرق الأرض ومغربها، مما يحيد بالعلم والفكر عن مسارهما الصحيح، وينقلب بهما إلى مجرد أدوات تسلية أو ترفيه وأحيانًا تخريب ودمار.

لهذا نجد الأستاذ كولن، يحث على ضـرورة تحقيق هذا الربط الجدلي بين العلم والعمل، وبين الفكر والممارسة، بل ذهب أيضًا إلى حد الحديث عن ضرورة إحداث تناغم وتساوق بين العقل والقلب والحركة، وإلا فلا قيمة لشخص يعيش هذا الانقسام الخطير بين مكونات شخصيته.

وهذا ما حرص الأستاذ كولن على تطبيقه بين أفراد وأتباع حركة الخدمة التي أنشأها في تركيا، وهو ما سنحاول إبراز أهم آفاقه وأبعاده ضمن الحديث عن الأساس الرابع من أسس بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع، وهو الأساس العملي والحركي.

٤- **الأساس العملي والحركي:** يؤمن الأستاذ فتح الله كولن -كما أشرنا- إيمانًا جازمًا أن لا فائدة من علم مجرد عن العمل والانتشارِ في الأرض ابتغاء الإصلاح والتغيير نحو

لقد حملنا على عاتقنا مسئولية بث روح جديدة في دنيانا، مشبعة بالإيمان وحب الإنسان والحرية، وتجهيز البيئة وإعدادها لترسيخ الجذور المعنوية لشجرة مباركة تنمو أفنانها وتزدهر أغصانها بهذه المعطيات، وتزهو حقولا جديدة بامتداد تلك الجذور.

الأفضل، ولا فكر -أيضًا- بدون حركة؛ حركة التغلغل في كيان المجتمع، والتسلل إلى كل مساربه ودروبه، قصد فهم آفاته ومثالبه، والإسهام في إصلاحه وتقدمه عن طريق تقديم الخدمة للبشر قاطبة، والأخذ بأيديهم نحو حياة الكرامة والعز والأمان والإيمان. وفي هذا الصدد، يقول الأستاذ كولن موجهًا الخطاب خصوصًا لمحبّيه من أبناء حركة الخدمة: «يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر؛ حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن جهة أخرى يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة. وإن أهم شيء وأشدّه ضرورة في حياتنا هو الحركية»[١٦].

وكثيرًا ما نوه الأستاذ كولن -في نفس السياق- إلى أن كل عناصر الكينونة البشرية، يجب أن تتضافر وتتجانس فيما بينها قصد استكمال كل عناصر الحياة الحقة؛ فالفكر في خدمة القلب، والعقل في خدمة الروح والوجدان، والفكر والعقل والقلب جميعًا في خدمة الحركة.

فالحركة والحركية، تحتاج دومًا إلى هذا التصاهر والتناغم بين كل المكونات حتى يتحقق ذلك التوازن الذاتي المنشود، والعدل الاجتماعي المفقود، يقول الأستاذ كولن بهذا الصدد: «إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية، في حالٍ لا يمكن به فصل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني. فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور -خاصة شعبنا- باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية»[١٧].

ولعل أهم خاصية وجب الإشادة بها في هذا السياق ضمن حديثنا عن جدلية التلاقي بين الفكر والحركة، والتجانس بين العلم والعمل -كما تصورهما الأستاذ كولن- هو أن الأستاذ لكي يكون منطقيًا مع نفسه، ووفيًا لمبادئه ودعواته؛ فإنه حرص كل الحرص على ربط العلم بالعمل، والفكر بالحركة في مسار دعوته وحركته وبيئته، عن طريق تربية جيل يؤمن بهذه الثنائيات المترابطة فيما بينها، ويقتنع بجدواها، ثم دفع هذا الجيل المشحون بمثل هذه القناعات، إلى النزول إلى ساحات الواقع والعمل على ترجمة ما لُقِّنوه نظريًا في فضاءات المجتمع المختلفة، دعوة وبيانًا وخدمة وإرشادًا ودعمًا لكل فعاليات الخير والإصلاح.

وهو ما نتج عنه في الأخير، ظهور جيل من الشباب المتحمس ذوي الشخصيات الفاعلة في المجتمع، والمتفاعلة مع قضاياه، والمنفعلة بأناته ومعاناته.. إنه جيل الخدمة كما أطّر ونظّر له الأستاذ كولن في جلّ كتاباته، وكما جسّدها في الواقع، نماذج حية، ومؤسسات حية فاعلة تعمل كخلايا النحل وسط المجتمع، بتقديم أغلى ما لديها من عطاءات وتضحيات ومجهودات تروم -أساسًا- إعادة بناء المجتمع على أحسن صورة.. مجتمع تسوده قيم الإسلام المتميزة، انطلاقًا من التوحيد والإيمان والعبادة الصادقة والسمو الروحي، ومرورًا بتقديم شتى الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، وانتهاء بفتح أبواب المدارس لتسهيل العلم النافع ورُدحات المستشفيات لتأمين العلاج لكل من يحتاجه، ومدرجات الجامعات والكليات لتأطير وتكوين الأطر العليا المؤهلة لقيادة المجتمع نحو الرقي والتقدم.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ كولن: «ونحن حملنا على عاتقنا مسؤولية بث روح جديدة في دنيانا، مشبعة بالإيمان وحب الإنسان والحرية، وتجهيز البيئة لترسيخ الجذور المعنوية لشجرة مباركة تنمو وتزدهر

الأستاذ فتح الله كولن، يوسع من مفهوم الإسلام والإيمان والتوحيد، ليشمل كل مجالات الحياة، ويطال كل الأبعاد النفسية والفكرية والسلوكية للشخص المؤمن على نحو يجعل منه شخصًا موحدًا ومؤمنًا بالغيب ومهتمًا أيضًا بعالم الشهادة، حاملاً هم البناء والإصلاح والتغيير نحو الأفضل.

أفنانها بهذه المعطيات، وتزهو حقولاً جديدة بامتداد تلك الجذور.

ولا شك أن إنجاز ما تمليه هذه المسؤولية، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأبطال يصونون مصير الوطن، ويحمون تاريخ إنساننا ودينه وأعرافه وتقاليده ومقدساته كلها.. أبطال طافحين بحب العلم، منشدين إلى الإعمار والإنشاء، متدينين أخلص من الخُلَّص، محبين للشعب، مرابطين أبدًا على أداء واجباتهم بشعور المسؤولية.. فبهؤلاء وجهودهم ستهيمن أفكارنا، ومحصلة هذه المفاهيم والأفكار على حياة شعبنا، ويعلو في كل إنسان حسُّ نذر النفس لخدمة المجتمع، وينتعش من جديد مفهوم تقاسم الواجبات والتعاون المتبادل»[١٨].

ولهذا، فلا غرابة أن وجدنا آثار هذه الفكرة العملية (فكرة الخدمة) الناتجة أساسًا عن ضرورة ربط العلم بالعمل والفكر بالحركة، قد آتت ثمارها اليانعة في تركيا وخارجها عبر بقاع شتى من العالم، خاصة منها البلدان الإسلامية؛ حيث انتشار المدارس المهنية المؤهلة حرفيًّا وتقنيًّا، وسعيها الحثيث لنشر العلم وتوعية الناس عن طريق أرقى المناهج التعليمية الحديثة، وعلى يد مجموعة من المدرسين الخبراء المقتدرين..

كما انتشر أيضًا -في تركيا خاصة- مؤسسات اجتماعية، ومعاهد علمية وإعلامية، وجامعات وأكاديميات علمية.. فضلاً عن بيوتات الطلبة التي تؤوي هؤلاء، وتوفر لهم كل فرص الجد والتحصيل والتكوين والتربية.. والمجال هنا لا يتسع للتفصيل في كل هذه القضايا، وإلا فما كتب ونشر عن هذه المؤسسات، كفيل بتقريب معنى فكرة الخدمة ومدى وفائها لكل القيم والأفكار التي سطرها الأستاذ كولن، وجعلها مرجعية هامة لثلة من الأتباع الغيورين على دينهم ووطنهم. وقد وقفنا بدورنا -خلال زيارتنا لتركيا- على نماذج من هذه المؤسسات، وصاحبنا روادها والمشرفين عليها، وعاينّا جهارًا مقدار الجهد والتفاني والإخـلاص لدى أبناء فكرة الخدمة لإنجاح هذه الفكرة عبر العالم الإسلامي.

خاتمة

انطلاقًا من كل هذه المعطيات -على ما يميزها من عرض اختزالي مركز- يمكن القول في الختام؛ إننا نجد أنفسنا حقًّا أمام مشروع بنَّاء طموح، يحدد الأسس الجوهرية التي تستند إليها عملية بناء الشخصية الفاعلة في المجتمع كما خطط لها الأستاذ فتح الله كولن.

وقد حاولنا استجماع معالم هذه الأسس كما ظهرت في بعض كتاباته ومقالاته، على نحو من الاستقصاء الأفقي الذي يتتبع مسار الفكرة منذ انطلاقها، إشارات جزئية إلى انتظامها ضمن سلسلة من الإثباتات الحجاجية المتطورة والمتنامية، لتستوي إلى ما يشبه مشروعًا بنائيًّا ضخمًا، شكّل في نظرنا أهم المحاور الأساسية ضمن المشروع الحضاري الشامل الذي نظر له الأستاذ كولن في جلّ كتاباته وخطاباته.

فالأمر -كما رأينا- يتعلق بعملية بناء ضخمة للشخصية الفاعلة، وبما يتطلبه من جهد جهيد يطال شتى المجالات العقدية والفكرية والسلوكية والعملية، على

نحو من التداخل والتناغم يضمن صياغة شخصية متكاملة لا نقص فيه، ولا غلو ولا إفراط ولا تفريط.

هكذا نظر الأستاذ فتح الله كولن لبناء الإنسان، وهكذا عمل على تحديد الآفاق وتخطيط السبل العلمية والعملية الكفيلة بذلك، وذلك ضمن رؤية شمولية متكاملة؛ رؤية تتشكل من فلسفة فكرية واجتماعية تجمع بين الأصيل والحديث، بين العقلاني والروحي، بين النظري والعملي، على نحو من الاتساق والتناسق، بحيث يبشر بميلاد إنسان جديد، جدير بتحمّل الأمانة وأداء الوظيفة على النحو الذي يريده منه دينه الحنيف.

فنحن إذن -كما يؤكد البعض- أمام تجربة إصلاحية ناجحة، ولعل أحد أهم أسرار نجاحها، يكمن في أنها تجاوزت الاستقطاب المزمن بين طرفي النقيضين: العلمانية السلبية، والسلفية السلبية، وذلك من خلال الدفع بتجربة وسطية فكرًا وحركة، لم تؤد فيها البراغماتية إلى التخلي عن الثوابت، بل أدت إلى الأخذ بأساليب مبتكرة، لتحقيق أهداف غير خلافية وجامعة.

كما تميزت تجربة كولن بقدرتها على ترجمة الأفكار إلى واقع، انطلاقًا من قراءة واعية للواقع من أجل تغييره جذريًا ودون تصادم معًا.. انطلاقًا من الاهتمام ببناء الفرد في إطار عملية شاملة لبناء الإنسان، وبالأحرى الانطلاق من الخاص للتأثير في العام.. وكان منهجها في كل ذلك إصلاح الإنسان وتربيته، ليكون الأداة المؤهلة لبناء المجتمع، ومن ثم لإنشاء أمة الحضارة. ■

---

(١) قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف غيث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.

(٢) انظر: خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٠.

(٣) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٠، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(٤) مقال «الإنسان الجديد»، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد:١١ (أبريل - يونيو ٢٠٠٨)، ص:٢-٣.

(٥) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٣٤-٣٥، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(٦) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨٤-٨٥، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(٧) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٠ -٥١، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(٨) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٩، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(٩) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٨٦، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(١٠) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٢، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(١١) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٣٦ -٣٧، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(١٢) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٠، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(١٣) انظر -مثلاً- ما ورد في ص:٣٨-٣٩ من كتاب: «ونحن نقيم صرح الروح»، فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(١٤) مقال «الإنسان الجديد»، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد:١١ (أبريل - يونيو ٢٠٠٨)، ص:٣.

(١٥) مقال «الإنسان الجديد»، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد:١١ (أبريل - يونيو ٢٠٠٨)، ص:٣.

(١٦) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٥٧، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(١٧) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٥٩، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(١٨) انظر: إبراهيم البيومي غانم وغيره: التقرير الختامي لأشغال المؤتمر الدولي «مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، جامعة الدول العربية، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، القاهرة.

أدب الأزمة وأخلاقيات رجالها

مقاربات من حال الأستاذ فتح الله كولن ومقاله

جمال بن فضل الحوشبي

ولد عام ١٩٧٠م. واصل تعليمه الجامعي إلى الماجستير بجامعة أم القرى بمكة المكرمة. حصل على درجة الدكتوراه في التربية من كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة. المشرف العام حاليًا على مركز رؤية الثقافي. له مجموعة من الأبحاث والمقالات والبرامج واللقاءات في المجلات والصحف والقنوات داخل المملكة وخارجها.

عرض الكاتب في هذه الدراسة لعدد من المبادئ الكلية التي تُعَد موازين دقيقة في التعامل مع المحن والأزمات. واعتمد أسلوب المقاربة والاستلهام بالنظر في مجالين اثنين: المبادئ الكلية التي قامت عليها الخدمة من جهة، والأخلاقيات التي حددها الأستاذ محمد فتح الله كولن لرجالها الذين ظل يتعهدهم ويصقل شخصياتهم. وقد صدّر الباحث هذه المقاربات الاستلهامية بثلاث حقائق كبرى:

١- التأكيد على أن الطيّب هو الأصل الباقي وإن كَثُر الخَبَث.

٢- التأكيد على أن الصادقين العقلاء أصحاب المبادئ والقيم، هم أكثر من يعاني في هذه الأزمات، وعلى أيديهم ينبلج الحق وتنقشع الأزمات.

٣- أن الأزمات، مدرسة الأخلاق التي تتكشف فيها حقائق الرجال أكثر من أزمنة الأمن والرخاء. بعدها شرعت الدراسة في تناول أبرز الأخلاقيات التي لا غنى عنها حين تدلهمّ الخطوب وتثور الأزمات والفتن.

في وقت الضحى وأثناء انشغالي بأحد البحوث، أقبَلت ابنتي الصغرى تطلب أن أسمعها أنشودة للأطفال من الحاسب الآلي، توقفت عن الكتابة ثم خاطبتها قائلاً: «لا يمكن، فالجيران نائمون».. نظَرَت إليّ بكل براءة ثم قالت: «إذن لماذا يأتي الصباح»؟ لم أنس هذا الحوار وأنا أرقب كثيرًا من الحقائق الراسخة التي سريعًا ما تغيب عنّا في غمرة الانشغال بأزماتنا الطارئة، وإن كانت مفتعلة في كثير من الأحيان، ولا يراد منها إلا تعويق حركتنا، وتفريق كلمتنا، واستهلاك أوقاتنا، وإدخالنا قسرًا في متاهات حلقة مفرغة، تبعدنا أكثر فأكثر عن هدفنا، وقبل ذلك عن قيمنا ومبادئنا.

«الطيّب» هو الأصل الباقي

الأزمات جنودُ الله تعالى يمتحن بها قلوب عباده ليرى صدقهم، ويسمع تضرّعهم، ويميز الخبيث من الطيّب في صفّهم.. فكأنها بمثابة الزلازل العاتية التي تضطرب الأرض لها بقوة، لتتساقط بها الأوراق الصفراء التي ظلّت تشوّه نضرة الأشجار الباسقة، وتهوي معها الثمار المعطوبة التي ظلّت تمتصّ الشهد الغالي من رحيق العروق، وتخرج بسبب اضطرابها الهوام السامة مذعورة من جحورها، وتُقلّب التربة من جديد لتكون صالحة للحرث والزرع.

وهكذا الأزمات.. تزلزل الكيان الطيّب بأكمله؛ زلزلة قوية عنيفة تستخرج من بين جذوره الضاربة في أعماق الأرض، وأوراقه النضرة الباسقة، وثماره المباركة اليانعة، كل خبيث ظل يقتات عليها وينسب إليها زورًا وبهتانًا.. قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾(آل عمران:١٧٩).

الصادقون من الأفراد والمؤسسات، أحرى بمعرفة منافع الأزمات وآثارها من غيرهم، ويدركون أنها -في أزمنة الغربة خاصّة- تُسفِر عن مكسبين عظيمين، لا يمكن أن يتحققا معًا في ظروف أخرى: ظهور الحقّ؛ بانقشاع الباطل عنه، وظهور أهل الحقّ.. بتبرئة ساحتهم، واجتماع القلوب الصادقة عليهم.

ومع أن المنطق يقتضي أن يحدث التمايز بإخراج القليل من بين الكثير، ومع كون الوحي يخبرنا بأن الخبيث هو الأكثر في كل شيء على مدار التاريخ عدّة وعددًا، إلا أن الآية الكريمة تؤكد هذا المعنى البديع، تؤكد بأن الرسوخ والثبات إنما يكون للطيّب على الرغم من قلة عدده وعُدّته، وهي لفتة مقاصدية كبرى حريّة بالتأمل. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مثَل المؤمن كمثَل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء" (أخرجه مسلم).

حين يتجلّى الحق ويظهر أئمته

الصادقون من الأفراد والمؤسسات، أحرى بمعرفة منافع الأزمات وآثارها من غيرهم، ويدركون أنها -في أزمنة الغربة خاصة- تُسفِر عن مكسبَين عظيمين لا يمكن أن يتحققا معًا في ظروف أخرى؛ ظهور الحق بانقشاع الباطل عنه، وظهور أهل الحق بتبرئة ساحتهم واجتماع القلوب الصادقة عليهم. قال ابن القيم رحمه الله: «ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرِج منه الأمراض التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقّصت ثوابه وأنزلت درجته.. وهل وصَل مَن وصَل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة، إلا على جسر المحنة والابتلاء».[1]

كذا المعالي إذا ما رُمت تُدركها
فاعبر إليها على جسر من التعب

ولمّا قيل للإمام الشافعي: أيبتلى المؤمن أم يُمكّن؟

للأزمات دورة زمنية لا تحيد عنها؛ فهي تبدأ هادئة، ثم تثور وتتصاعد فتعصف وترعد، ثم تتطامن وتهدأ من جديد قبل أن تضمحلّ وتتلاشى بما جرفته معها من العَصْف المأكول! ويظل «الطيّب» بعدها راسخًا بثباته، شامخًا بتواضعه، متجذّرًا بسكونه وهدوئه، متحلّيًا رجاله بأدب «الأزمة» وأخلاقياتها وقيمها.

قال ﷺ: "لن يُمكّن قبل أن يُبتلى". قال شيخ الإسلام بن تيمية عن الإمام أحمد ﷺ: "الإمام أحمد صار مثَلاً سائرًا يُضرب به المثل في المحنة والصّبر على الحق، وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم حتى صار اسم "الإمام" مقرونًا باسمه في لسان كل أحد، فيُقال: قال الإمام أحمد، هذا مذهب الإمام أحمد.

قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾(السجدة:٢٤). فإنه أعطي من الصبر واليقين ما يستحق به الإمامة في الدين، وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلّطون من شرق الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلّمين والقضاة، والوزراء والسُّعاة، والأمـراء والـولاة، مَن لا يُحصيهم إلا الله، فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد.. بالقتل وبغيره.. وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله، وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي.. وقد خَذَلَه في ذلك عامة أهل الأرض، حتى أصحابه العلماء والصالحون والأبـرار.. وهو مع ذلك لم يُعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه، وما رجع عمّا جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التُقية، بل قد أظهر من سنّة رسول الله ﷺ وآثاره، ودفع من البدع المخالِفة لذلك ما لم يتأتّ مثله لعالم من نظرائه وإخوانه المتقدمين والمتأخرين"[٢].

من أدب الأزمة وأخلاقيات رجالها

للأزمات دورة زمنية لا تحيد عنها؛ فهي تبدأ هادئة، ثم تثور وتتصاعد فتعصف وترعد، ثم تتطامن وتهدأ من جديد قبل أن تضمحلّ وتتلاشى بما جرفته معها من العَصْف المأكول! ويظل "الطيّب" بعدها راسخًا بثباته، شامخًا بتواضعه، متجذّرًا بسكونه وهدوئه، متحلّيًا رجاله بأدب «الأزمة» وأخلاقياتها وقيمها التي رأيتُ أن أتناولها في هذه المقاربات، مستنطقًا فيها كتب الأستاذ محمد فتح الله كولن ومقالاته المترجمة التي وصلت إلينا؛ فقد وجدتُ في حال صَبْره، ومقال سَبْرِه للأزمات المعاصرة وآدابها، موازين دقيقة يندر نظيرها عند غيره.

١- الباحث عن قبَس الإيمان في ظلمات التيه

حين يجفّ دفق القلب، وتنضب طاقة الروح؛ يغيب وعي العقل، وعندها تظهر شرور النفس، وتحدث الأزمـات.. وهناك تدعو الحاجة إلى "حركة النظم الإيمانية" بحسب تعبير الأستاذ كولن.

أ- سيأتي على قدرٍ إلى مولاه:

تتلخص فاعلية هذه الحركة للنظم الإيمانية، في ضبط مسار الفرد والمجتمع، وتوجيه البوصلة من جديد إلى الله تعالى عبر تحقيق التوحيد، ورعاية الإخلاص، وتمحيص القصد، وتذكّر الآخرة. وضبط هذه الحركة في زمن الرخاء تظهر آثاره الحميدة في أوقات الشدّة والبلاء؛ حين يُمدّ القلب والروح والعقل بنور البصيرة، الذي تتبدّد معه ظلمات الفتن، وتتكشّف طريق الاستقامة. ولأن الإنسان مطالَب بتحقيق الإخلاص في كل أحواله، فإن بقاء جذوة الإيمان في قلبه كاف بعودته للصواب. ومع أنه قد يتحرك بضعف عند اضطراب الأزمـات، ولا يكون بالضرورة قاصدًا هذا القصد أو متحرّيًا هذا

الأمر، إلا أن "حركة النظم الإيمانية" في قلبه تقود كل تصرفاته -بإرادته أو من غير إرادته- إلى هدف معين. ومن طبيعة الحال أن تنعكس ألوان "حركيته" الداخلية وأداؤها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية.. وكذلك تبرز تلك اللهجة والأداء والأسلوب في أعماله الفنية وأنشطته الثقافية، لأن موقع الإنسان في الوجود، وغايةَ خلقه، ومقصودَ فعالياته، وتداعياتِ الفكر عن هذه الغاية وذلـك المقصودِ، ووظيفته ومسؤولياته، ستحيط مع الزمان بكيانه وتحاصره، وتُوجِّهه في كل ساعة نحو التميّز والفائقية إزاء الوجود الأوسع والأعلى بأشد المشاعر حيوية وتأثيرًا"[٣].

ب- وسوف يجد عند «النور» هدى:

في أضواء النبوة وموازين السنّة يسير «رجل الأزمة» الذي أمدّته «حركة النظم الإيمانية» بدفق الحبّ، ونور القصد، واتزان حركة الإخلاص في العمل.. وآثار محمد ﷺ عليها نور وهّاج لا يبصره إلا ذوو البصيرة من أهل العلم والحركة والخدمة الإيمانية. ولهذا فإن ضمانة النجاة عند ظهور الفساد، مرتبط بضمانات النجاح في تطبيق السنن، كما يلخّص الأستاذ فتح الله كولن ذلك بقوله: «لا يوجد الآن طريق غير طريق السنّة يؤدي إلى الهدف بشكل مضمون لا شُبهة فيه. لذا فمن الطبيعي أن يكون إحياء السنة عند انتشار الفساد، أي إحياء الطريق الذي يبيّن الفرائض والواجبات والسنن، والقيام بأي خدمات وجهود لجعله سالكًا من جديد، ومضمونًا وآمنًا حتى يوم القيامة، تعدّ خدمات وجهودًا مقدسة تَرفع أصحابها إلى مرتبة الشهداء[٤]، بل هناك العديد من بين هؤلاء من يحصل على أجر عدّة شهداء في كل يوم من أيام عمره. أما الذين يحاولون من بين هؤلاء إحياء أركان الإيمان، فهم يكسبون ثوابًا أكثر من ثواب مائة شهيد[٥].

بطل القلب الحي هذا، لا تختلط عنده الأوراق مهما أظلمت السبل، ولا يعتمد أساليب الباطل للوصول إلى الحق مهما اشتدت العوائق، بل يظل يحاسب نفسه «مُبرمَجًا حسب الحياة القلبية والروحية، عازمًا على البقاء، بعيدًا عن كل المساوئ المادية والمعنوية

جـ- ويبصر آثار الملكوت في نفسه:

قرن الله تعالى حصول اليقين والثبات برؤية مظاهر القدرة والملكوت في السموات والأرض، وهناك يقين آخر يتفضل الله تعالى به على «رجال الأزمة» ساعة الغربة حين يجدون جنّة الدنيا داخل قلوبهم رغم ما يحيط بهم من محن وابتلاءات.. ويثقون بمسيرهم إلى غايتهم الواضحة أشدّ الوضوح، ويشعرون بالتناغم التام الذي يظهر في حسن تعاملهم مع الأحداث التي تعصف بهم، ويجدون «نشوة الانسجام» مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، بل مع الكون كله.. كما يجدونه في ثباتهم على مبادئهم حين يمضون في طريقهم رغم الأسى ولوعة الترقّب.. يروون الجدب بيقينهم، ويتعهدون بـذور الحياة في قلب الصخر بمضاء عزيمتهم، ويقيّمون الاعوجاج بأكفّ رحمتهم وصفحهم؛ كل ذلك لأنهم ضبطوا مناهل الـريّ لشجرة الإيمان في قلوبهم، ويصححون مسارات الحركة في أعمالهم، وينظرون «إلى الوجود ومصدر الوجود، بعدَسة الكتاب والسنة.. ويقومون باللجوء إلى الموازين الدقيقة لهذَين المصدرين مع الانفتاح على أبعادهما الماورائية الفسيحة. ذلك لأن منشأ الإنسان وموقعه في الكون، وغاية وجوده والصراط الذي يسير فيه، ونهاية هذا الصراط في هذين المصدرين، منسجم انسجامًا عجيبًا مع فكر الإنسان وحسه وشعوره وتوقعاته فلا نملك دونه -إذ نحس بهذا الانسجام- إلا الإعجاب والاندهاش.

حين تختلط الأوراق في الأزمات، ويسقط الكثير من أصحاب الأهواء على إثر التجاوزات والمبالغات والانحرافات، ويقعد القليل الصالح عن الارتقاء في معراج الكمالات طلبًا للسلامة.. يظلّ رجل الأزمة "بطل القلب الحي"، بحسب تعبير الأستاذ كولن.

هاتان المحجَّتان البَيضاوان، هما لأرباب القلوب منبع العشق والشوق، ومَنْجَم الجذب والانجذاب.. لن يعود خاليًا من يراجعهما بصفوة الحس وحافز الاحتياج، ولن يموت أبدًا من يلجأ إليهما»[٦].

٢- قيم راسخة لا محيد عنها

حين تختلط الأوراق في الأزمـات، ويسقط الكثير من أصحاب الأهواء على إثر التجاوزات والمبالغات والانحرافات، ويقعد القليل الصالح عن الارتقاء في معراج الكمالات طلبًا للسلامة.. يظل رجل الأزمة؛ «بطل القلب الحي» بحسب تعبير الأستاذ كولن.

أ- نزاهة وصفاء قلب:

بطل القلب الحي هذا، لا تختلط عنده الأوراق مهما أظلمت السبل، ولا يعتمد أساليب الباطل للوصول إلى الحق مهما اشتدت العوائق، بل يظل يحاسب نفسه «مُبرمَجًا حسب الحياة القلبية والروحية، عازمًا على البقاء، بعيدًا عن كل المساوئ المادية والمعنوية، حـذِرًا على الـدوام من الرغبات الجسدية، يقظًا ومستعدًّا لمصارعة الحسد والحقد والكراهية والأنانية والشهوات.. كل ذلك مع تواضع باهر ونكران للذات عظيم. فهو يبذل قصارى جهده دومًا لمساندة الحق ونشره في كل مكان. وهو رمز الإيثار يتأجج شوقًا لكي ينقل إلى الآخرين ما أحسّه وشعر به في عالم الملك والملكوت»[٧].

ب- مسير حتى يأتي اليقين:

بطل القلب السائر في زمن الفتنة لا يكتفي بالوقوف لمحاسبة نفسه والحفاظ على نقائها ودفع الممارسات السلبية عن عقله وروحه وسلوكه فحسب، وإنما هو «إنسان مثالي» كذلك، يواصل حركته ويمضي في طريقه كأنّ شيئًا لم يكن. لا تُبهره الأضواء البرّاقة، ولا تصمّه العبارات الرّنانة، ولا تأسره الألقاب والمكاسب الوهمية المؤقتة، «وحتى لو أصابته أشدُّ المِحَن قسوة وفتكًا، وأحدقت به أكبرُ الدوامات رهبة وعتوًّا، فلسوف يرى نفسه سائرًا في ممرّ طويل من الامتحانات، ينتهي به إلى ألوان شتى من التوفيق المؤكد والفوز المبين، ولسوف يحس -في أسوأ خطوبه وعند أصعب لحظاته- بنسمات من الأنس والسكينة القادمة من وراء الحُجُب، تطوّف في أرجاء روحه برِقّة ونعومة، فيركع بين يدي الله تعالى خاضعًا منكسرًا وقد امتلأت نفسه بمشاعر الحمد والعرفان، وفاضت بأحاسيس الشكر والامتنان.

«بطل القلب، ورجل الأزمة» إنسان مثالي، يمتلك ثقة لا حدّ لها، وطمأنينة لا غاية بعدها، لأنه يؤمن إيمانًا لا يخالجه شك بعناية القدرة المطلقة، ويوقن بأن الله قادر على كل شيء، وأن حُكمه نافذ في كل شيء.. وإن ذلكم الإيمان الصافي الرقراق المتجذّر في أعمق أعماق قلبه، وكذلك تصوّرُه ورؤيتُه وعقيدتُه التي أكسبت عالم روحه أبعادًا جديدة تتجاوز جميع مقاييس العقل، كلُّ ذلك يرقى به إلى قمة تسمو على كل إحساس، وتتفوق على كل شعور. فلو تَمكّن في تلك اللحظة من أن يُنصت إلى ذاته بأذُن تعي تلك الأعماق، فلسوف يسمع همسات ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(فصلت:٣٠)، أو ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣٢)، ولسوف يَسبح في متعة أكرِم بها من متعة، ويغوص في نشوة ما بعدها نشوة[٩].

جـ- لا بديل عن طلب مرضاتك:

لا عجب بعد كل هذا، أن يترفّع رجال الأزمة هؤلاء عن أثقال الدنيا وشهواتها وبهرجها، وهذا «أهم جانب يستدعي النظر، ويجلب التقدير والإعجاب» كما يقول الأستاذ كولن؛ ذلك أن «هؤلاء الأبطال الذين أحبّوا الله تعالى، ونذروا حياتهم في سبيل رضاه، وارتبطوا بغاية مُثلى هي نيل محبته.. إنّ أهم جانب لدى هؤلاء وأهمّ مصدر من مصادر قوتهم، هو أنهم لا يبتغون ولا ينتظرون أيّ أجر مادي أو معنوي، ولن تجد في خططهم وحساباتهم أنهم يُعيرون أهمية لأمور يسعى طلاب الدنيا للحصول عليها كالأموال والأرباح والثروة والرفاهية.. هذه الأمور لا تشكّل عندهم أيّ قيمة، ولا يقبلون أن تشكّل عندهم أي مقياس. إن القيمة الفكرية لهؤلاء الناذرين أرواحهم تعلو على القيم الدنيوية، إلى درجة يصعب معها تحويل محور هدفهم المرتبط برضا الله دون أي غرض آخر ودون أي تنازل.. أما ربطهم بهدف بديل فمستحيل[٩].

٣- منازل الوعي

في سَيره الطويل إلى غايته لا يغفل رجل الأزمة أين يضع قدمه، فهو يعرف مصدر الأزمات المعاصرة بدرجة رفيعة، ولديه حساسية مرهفة من مقدماتها تجعله في يقظة وحذر على الدوام.. وهذا ما يظهر في اختياره لأساليب المراغمة بما يتناسب وطبيعة الخطر الجديد؛ ذلك أن «شكل الخطر حاليًّا قد تبدّل عمّا كان عليه في الماضي؛ فبعد أن كان يأتي في السابق من الخارج، أصبح الآن يأتي من الداخل، مما يجعل مقاومته أصعب»[١٠]، ويؤكد الأستاذ فتح الله كولن -على وجه الخصوص- على ضرورة الوعي حال التعامل مع شريحتين مهمتين في هذا «الداخل» الجديد:

أ- الوعي بحجم التشويه والفوضى في واقع العامة:

> بطل القلب السائر في زمن الفتنة لا يكتفي بالوقوف لمحاسبة نفسه والحفاظ على نقائها ودفع الممارسات السلبية عن عقله وروحه وسلوكه فحسب، وإنما هو «إنسان مثالي» كذلك، يواصل حركته ويمضي في طريقه كأنّ شيئًا لم يكن.

يعاني رجال الأزمة في مسيرهم، كثيرًا من أولئك الذين تشوّهت تصوراتهم، وانتكست قناعاتهم، واضطربت شخصياتهم، وفسدت أخلاقهم؛ نتيجة عقود التغييب والتغريب طوال «العهد الشيطاني»، ويدركون -مع كل ذلك- أن لا سبيل سوى الصبر وتحمّل طيش هؤلاء المساكين حتى يفيقوا من سكرتهم، لأن «السقوط الأخلاقي الذي سرى كَوَباء إلى جميع مفاصل المجتمع، هدم الركائز التي تحفظ المجتمع وسوّى بها الأرض، والأجيال التي انتُزع منها التوقير والاحترام لقيمنا المقدّسة بوساطة النماذج المجنونة لِما سمّوه بالخُلُق اللاديني، والخُلُق الفوضوي، والخلق الشيوعي، هذه الأجيال أصبحت ضحية للفكر وللروح المشوه، وغافلة عن تخبّطها في فوضى مخيفة من المصطلحات والمناهج»[١١].

في مقابل هذه المعرفة يؤكد الأستاذ كولن بأن طريق الإلحاد وتشويه فطرة عامة المسلمين اليوم، يُمرر من خلال «العلم»، وأن «أعداء الدين من أصحاب الفكر المادي، يحاولون استعمال العلم كوسيلة للإلحاد والإنكار. لذا فنحن مضطرون لاستعمال السلاح نفسه لإزالة الأوهام والشبهات التي تجول في أذهان البعض من المخدوعين، وإثبات أن العلم لا يناقض ولا يعادي الدين. وبعبارة أخرى، فعلى عكس قيام الماديّين بتقييم العلم وجعله واسطة للإنكار والإلحاد، فقد وجب علينا أن نستعمل العلم كأداة إثبات وبرهنة

على صحة الدين». ويتقدم خطوة عملية بدعوته كافة دعاة الإيمان لحل هذه المعضلة بقوله: «إنني أدعو دعاة الإيمان إلى التزود بهذا السلاح -أي سلاح العلم الكوني المادي- لأن آيات القرآن الكريم تأخذ بأيدينا وتجول بين النجوم والمجرات؛ لتعرّفنا ببديع السماوات وبديع الكون، وببديع صنع الله تعالى وقدرته وسلطانه.. وتُلْفت أنظارنا إلى أعضائنا وروعتها، وتبسط أمام أنظارنا الوجود بأكمله، وتذكّرنا بأن العلماء هم الذين يخشَون الله حقًّا.. أي تقوم الآيات القرآنية بتشويقنا لاستحصال العلم، وتُومئ إلى مسائل علمية أخرى، وتدعو الإنسان إلى التأمل والتفكر في ملكوت السموات والأرض»[١٢].

ب- الوعي بأثر التشويه في واقع الخاصة من أهل الإيمان:

ولا يفوق الوعي بحجم التغييب الذي تعرضت له العامة، سوى الوعي بأثر التشويه الذي حل بكثير من أهل الإيمان خاصة، ورفقاء الطريق الذين لا يتورّعون عن الاحتكاك بأبطال القلوب من إخوانهم، والسعي لتحقيق أهداف العدو بوعي أو غير وعي. هذه حقيقة كما يقول الأستاذ كولن: «لا يمكن لأحد أن يدّعي أن هذه الفوضى واختلاط الحابل بالنابل، لم يؤثر على أهل الإيمان. إن القوى الخارجية كثيرًا ما تمدّ يدها إلى المفاهيم المذهبية، أو إلى المدارس التصوفية، أو إلى نبش المسائل العنصرية والعرقية.. لذا يجب الانتباه والحذر. صحيح أنه لا يوجد دليل جدّي على انخداع الجماعات الدينية بمثل هذه الإيحاءات، أو أنها تُموَّل وتُدار من قِبل القوى الخارجية -رغم ورود مثل هذه الادعاءات والشائعات في حق بعض الجماعات- إلا أن الشواهد على أن الجماعات القرآنية والإيمانية

لا يوجد في عالم رجل القلب ادعاءات أمثال: "فعلتُ أنا"، "أنجزت أنا"، "نجحت أنا"، فهو يفرح بكل إنجاز حقّقه آخرون وكأنه هو الذي أنجزه، ويعدّ نجاحات الآخرين نجاحًا له، ويتبعهم تاركًا لهم شرف الريادة ومرتبتها.

لا يمكنها تلقي الأوامر من الخارج، أرجح وأقوى. غير أننا لا ننسى أن ظهور التعصب في بعض الجماعات التي لم تصل إلى النضج الفكري والروحي المطلوب، شيء واقعي وموجود، مما يؤدي إلى احتكاكات داخلية، وهذا يخدم الآمال الشريرة للأعداء دون قصد منها[١٣].

إن أبطال القلب إذن، ليسوا أغبياء إلى هذه الدرجة؛ فكلما ظن العدو فيهم البلادة والغباوة فاجؤوه بيقظتهم المفرطة، وبقدرتهم الفائقة على هتك أستار أوليائه، وكشف خططه للإيقاع برجال المصير، ومن بينها إيجاد القرين المنافس الذي يدّعي -زورًا وبهتانًا- أنه يحمل الهمّ معهم، ويشاطرهم الطريق نفسه، وهو في واقع الأمر لا طريق له سوى ما رسمه أسياده، ولا مبدأ إلا ما أملاه هواه. وأنى يرتجى لطريق السلامة أسيرٌ وهو يسير؟! وأنى يبصر مكمن الداء طبيب وهو عليل؟!

ج- الوعي بضرورة التصدي لوسائل التفريق ومحفزات التصادم:

الوعي بخطط العدو أقصر السبل لتحقيق رباطة الجأش ولزوم الحكمة ما أمكن حال التعامل مع أوليائه الأدعياء. ولقطع طريق التصادم والتلاحم الذي يستعجله عدو الداخل والخارج، يحذّر الأستاذ كولن من أن الجماعات الإسلامية الصادقة في تركيا وفي العالم الإسلامي، مقبلة

على مرحلة جديدة من المواجهة، غايتها تحقيق ثلاثية الفشل التي حذّرنا الله تعالى منها بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال:٤٦)، مؤكدًا في الوقت ذاته بأن هناك أساليب مكشوفة بات العدو يتخذها عن طريق أدعياء الفجر الكاذب، للإيقاع بركبان الفجر الصادق، منها:

١- استغلال حبّ الجاه والشهرة لدى بعض زعماء هذه الجماعات، ودفعهم إلى التنافس مع الجماعات الأخرى.

٢- ظهور محاولات هدم الجماعات الأخرى تحت دعوى العمل باسم الإسلام.

٣- ترقّب ثمرة آنية في الدنيا من كل عمل صغير أو سعي قليل، مع أن استحصال ثمرة العمل يكون في المستقبل البعيد عادة، وربما في الآخرة.

٤- من أجل كسر المساعي والجهود الإيجابية المثمرة والمستمرة لجماعة ما، يتم تشكيل وتكوين جماعة أخرى لكي تكون بديلة عنها، ثم إحداث احتكاك بينهما وإنتاج الشقاق والفرقة واستهلاك جهود تلك الجماعة.

٥- بدلاً من أن تعيش الجماعات التي نذرت نفسها لخدمة الأمة في ظل المحبة التي هي شعار طريقهم ومشربهم[١٤].

كما ينبه إلى أن: «عدم إشباع روح إنساننا الحالي، يجعله سهل الانقياد إلى بعض النظم الفكرية التي تشكو من الفراغ القلبي والروحي، مما يجعله يبتعد عن قلبه وضميره». وفي نبرة حادة قلما تصدر عنه، يحذّر الأستاذ فتح الله كولن من أن هذا الإنسان: «حين يبتعد عن كل ركيزة داخلية ووجدانية من جهة، فإنه يتم

عدم إشباع روح إنساننا الحالي، يجعله سهل الانقياد إلى بعض النظم الفكرية التي تشكو من الفراغ القلبي والروحي، مما يجعله يبتعد عن قلبه وضميره

توجيه انتباهه -من قِبَل شرذمة قليلة أو أقليّة مُرفّهَة تعيش حياة سائبة ومخمورة- من جهة أخرى إلى جو من الانطلاق البهيمي، وإلى دغدغة شهواته وإبعاده عن خطه الإسلامي».[١٥]

٤- نحو فضاء رحب من التآلف والاجتماع

مهما كان طيش الإخوة وجهل الأتباع فإن رجال الأزمات لا يعيرون ذواتهم اهتمامًا، فمهما نيل منها بالأذى والبهتان، والألقاب المشينة، والألفاظ السوقية، يظلون هم الرحماء الذين يمدّون أيديهم للجميع، ويدعون المخطئين إلى صدر الأمومة الحاني متناسين كل طيشهم وفوضويتهم.. بل سريعًا ما يقدّمونهم إلى الأمام بعد لحظات الحنو والرحمة، فإذا علموا صدقهم، وأبصروا مواهبهم، تراجعوا «خطوة إلى الوراء» -بحسب تعبير الأستاذ كولن- فاسحين لهم المجال، كي يعملوا وينتجوا ويبدعوا.

أ- فرح بنجاحات الآخرين وإصابتهم الحق:

إن الترفّع عن حظوظ النفس، والتسامي عن الأثرة، وعن التطلع إلى شهادات التكريم وأوسمة التقدير من أعظم سمات رجل الموقف، وهي من أكبر أسباب التلاقي واجتماع الكلمة. ولأن شرارة الأزمة الأولى إنما تنبع من مطامعنا، وتنافسنا على الأرصدة والمكاسب، فأنت ترى الأستاذ فتح الله كولن ينصب موازين التلاقي والتعاون بين العاملين بقوله: «لا يوجد في عالم رجل القلب ادعاءات أمثال «فعلتُ أنا»، «أنجزت أنا»، «نجحت أنا».. فهو يفرح بكل إنجاز حقّقه آخرون وكأنه هو الذي أنجزه، ويعدّ

لندع كل واحد يعمل بالطريقة التي يفضّلها ويراها أصلح من غيرها، لأنه من المعروف أن من الصعب على الكثيرين تغيير أفكارهم، بل يستحيل ذلك في كثير من الأحيان. كما أن الإجبار ليس طريقًا سليمًا، بل يؤدي إلى مشاكل وانشقاقات لا يمكن التئامها، بينما التسامح واللين والتفاهم بالحسنى، هو الطريق الذي أوصانا به القرآن. والذين يتبعون طريق الحكمة والموعظة الحسنة، يحلون مشاكل مستقبلية مهمة.

نجاحات الآخرين نجاحًا له، ويتبعهم تاركًا لهم شرف الريادة ومرتبتها.. بل يقوم بأكثر من هذا، فهو يرى أن الآخرين سيكونون أكثر لياقة ونجاحًا، لذا يهيئ لهم جوًّا أكثر أمانًا وراحة في أداء خدماتهم وجهودهم، ثم يتأخر خطوة إلى الوراء ليكون فردًا عاديًّا ضمن الأفراد الآخرين.. ونظرًا لكون رجل القلب مشغولاً بعيوبه ومجاهدًا لنفسه على الدوام، فهو لا ينشغل بعيوب الآخرين ونقائصهم، بل لا يجد فرصة للانشغال بها. ولا يكتفي بعدم تعقّب أخطاء الآخرين وعيوبهم، بل يحاول توجيههم إلى آفاق أرحب بالابتسامة، ويدرأ بالحسنة السيئة، ولا يفكر بإيذاء أي شخص، وإن تعرّض للأذى خمسين مرة، فهو بذلك أنموذج مثالي للإنسان الفاضل»[١٦].

ب- حذر من عواقب التفرق والفشل:

لا يتحقق الاجتماع إلا بالنظر في عواقب الفرقة، ولا يحصل النجاح بمعزل عن خوف الفشل، وما لم نعرف مكمن الخطر فلن يتحقق لنا الأمـن، وهذا ما حدا بالأستاذ فتح الله كولن إلى التأكيد دون تردد بأنه: «لا يوجد ولا يمكن تصور وجود خطر أكبر من هذا الخطر الداهم أمام نهضتنا من جديد. إن كثيرًا من مجتمعات المسلمين اليوم، ضعيفة من ناحية بنيتها العلمية والفكرية، وفقيرة من جهة حياتها الروحية والقلبية، ومحرومة من القيادة والتوجيه إلى درجة يرثى لها. وما لم يتم القضاء على الأجواء التي تغذي التعصب وعدم المسامحة، فمن العبث الحديث عن الاتفاق والاتحاد»[١٧]. وتراه يكرر هذه الحقيقة مرة أخرى بقوله: «إن البغضاء والحقد لم ولن يحل أي مشكلة، واعلموا أن النصر عند المدنيين والمتحضرين، لا يكون إلا عن طريق الإقناع. إذن تعالوا نعاهد الله للمرة الأخيرة على الوحدة وعلى التساند»[١٨].

جـ- فتح لقنوات التعاون والتواصي بالحق والصبر:

إن العهد ميثاق غليظ. والعهد على الوحدة وعلى التساند بحاجة إلى تصوّر واضح لمقدمات لا محيد عنها؛ فإذا استبان خطر الفرقة، وظهرت منزلة الإيثار والترفّع عن حظوظ النفس، والتسامي عن أمراض الأثرة، وتحقق إنصاف الصادق على صدقه في ميزان التلاقي على الحق بين أهله، فإن الأستاذ كولن يتقدم كذلك خطوة متقدمة أخرى لترسيخ عهد التآخي، ألا وهي المبادرة لمدّ جسور التعاون وعدم انتظارها من الطرف الآخر، مؤكدًا على أن هذه المبادرة أضحت ضرورة من أجل البقاء، وأن: «التهيؤ لمناخ جديد أصبح ضروريًّا، ومن الأمور المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها حاليًّا[١٩]، وأنه: «لم يبق أمامنا سوى الإصغاء إلى صوت النبوة، والاستجابة إلى النداء القرآني العام: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣). وكما تأسّست أخوة صادقة في الماضي يمكن تأسيسها أيضًا الآن، ولكن بشرط أن يتم تناول هذه المسألة المهمة بالعقل والمنطق، وتوضع تحت المجهر الإلهي»[٢٠].

ولتعزيز عهد التآخي يرسم الأستاذ كولن أسسًا لتأمين وحدتنا، ويدعو إلى: «ضرورة تناول العوامل التي تشكل أساس وحدتنا، تناولاً عقليًّا يأخذ في نظر الاعتبار أيضًا جميع عوامل التفرقة الداخلية منها والخارجية؛ أي

يجب تعيين الغايات والوسائل والأهداف والمقاصد من جديد، مع الارتباط بموثق وعهد قلبي. فلأجل تأمين وحدتنا التي هي أساس سعادتنا المادية والمعنوية وسعادتنا في الدنيا وفي الآخرة، نحتاج إلى صيغة اتحاد حاجة ماسة جدًّا، على الأقل كالاتحاد الأنكلوسكسوني والغال.

ومع أننا لا نتقن فن إشغال أعدائنا وعدم إعطاء فرصة لهم للتفكير أو التدبير، ولا نملك مثل هذه الدراية والقابلية، فالمطلوب منا -على الأقل- إبداء النضج الضروري في عدم الوقوع في مصايد الأعداء وعدم قيامنا بحفر قبورنا بأيدينا.

الاختلاف في الفكر والفهم، نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين والخلق، وهذه إرادة الله تعالى وله فيها رحمة وحكمة. ولكن الإنسان مكلّف أيضًا بتأمين النظام والتلاؤم الموجود في الشريعة الفطرية بإرادته.. ومع أن قانون الجبرية يحكم العالم الكبير (الكون)، إلا أن الإرادة الإنسانية التي تعدّ شرطًا عاديًّا، لها دور في عالم الإنسان. ادفع السيئات بالحسنة، ولا تهتم كثيرًا بالسلوك المفتقر إلى الذوق، فكل إنسان يعكس طبيعته وأخلاقه بتصرفاته وسلوكه.. أما أنت فاختر لنفسك طريق المسامحة، وكن كريمًا عالي النفس حتى أمام الذين لا يعرفون قواعد السلوك والخلق»[٢١].

د- لا تثريب ولا عتاب:

وختامًا، فإن ترك مساحة لرجوع المخطئ، من خلال الصفح والعفو وعدم مقابلة الإساءة بمثلها، خير من سدّ جميع الأبواب وإغلاق جميع القنوات التي يستحيل معها اللقاء والتصافي إلى الأبد: «والمؤمن الذي يتمنى ويأمل أن يكون الله معه غفورًا ورحيمًا، يجب أن يتخلّق بهذا الخُلُق، ويجعل العفو والصفح جزءًا لا يتجزأ من خُلُقه. لن يخسر الإنسان الذي جعل شيمته العفو والصفح أبدًا في أي مرحلة من مراحل حياته.. والذي يضع المستقبل نصب عينيه -وهو يعيش حياته الحالية- إنسان قد وهبه الله تعالى موهبة خاصة وحكمة.. والذين يكونون مظهرًا لمثل هذا الفضل، سيكونون هم ورثة المستقبل في هذه الدنيا»[٢٢].. «ولكي يتم الوصول إلى فضائل الوفاق الاجتماعي، على القلوب أن تكون اجتماعية، وتبتعد عن الأنانية، وتكون مليئة بحب الإنسانية وبالشهامة والمروءة.. وما لم يتم الابتعاد عن الأنانية وعن عبادة النفس وإرجاع كل شيء وكل الوسائل والأهداف إلى سلطان النفس الذي هو شرك خفي، والابتعاد عن القول: إن لم يكن هذا العمل بيدي فلا أريده حتى وإن كان خيرًا ما دام يتم بيد الآخرين وليس بيدي.. إن لم يتم التخلص من مثل هذه العقلية التي ترى أن الحق فقط معها وتابع لها، والتي تكفّر وتضلّل وتجرّم كل من لم يتبعها، وإن لم يتم تخليص القلوب من مثل هذا التعصّب الأعمى، فلا يمكن الوصول -حسبما أرى- إلى أي تفاهم أو اتفاق»[٢٣].

«لندع كل واحد يعمل بالطريقة التي يفضّلها ويراها أصلح من غيرها، لأنه من المعروف أن من الصعب على الكثيرين تغيير أفكارهم، بل يستحيل ذلك في كثير من الأحيان. كما أن الإجبار ليس طريقًا سليمًا، بل يؤدي إلى مشاكل وانشقاقات لا يمكن التئامها، بينما التسامح واللين والتفاهم بالحسنى، هو الطريق الذي أوصانا به القرآن. والذين يتبعون طريق الحكمة والموعظة الحسنة، يحلون مشاكل مستقبلية مهمة».[٢٤]

هكذا تتجلى أخلاقيات رجال الأزمة إذن، ويؤكد عليها الأستاذ فتح الله كولن الذي يكرر تذكير أصحاب الخدمة بموازينها، ويحذر من نتائج التخلف عنها بقوله: «إنْ لم يقم الذين أوصلوا الخدمة الإيمانية والقرآنية إلى هذا المستوى، بالمحافظة على المستوى نفسه من الإخلاص والحماس، فستؤخذ الأمانة منهم وتودع إلى آخرين، أي سيتم نبذهم ورفضهم. ونحن -إذ ندرك ونقدّر العناية

الربانية- نعرف بأننا إن بذلنا كل طاقاتنا، وصرَفنا كل جهدنا، واستفدنا من اللطف والرعاية الإلهية، فإننا نستطيع اجتياز الامتحان ونكون مظهَرًا لألطاف أخرى. وكم نتمنى أن يستمر أصدقاؤنا -حتى يأتيهم اليقين- بالهمة نفسها والحماس نفسه والجدّ في خدمة القرآن والإيمان.. هذه الخدمة التي تُكسب صاحبها في كل آن ثواب شهيد»[٢٥].

قد يغطّ «الجيران» في نومهم العميق مجددًا رغم الضوضاء وهدير الأقدام من حولهم، لكنّ ذلك لن يغير من الحقائق شيئًا حين ينبلج الصبح، ويتجلى الفجر الصادق أمام السائرين من رجال الأزمة. ■

---

(١) مفتاح دار السعادة، (ج١/ص٣٠١).

(٢) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، (ج١٢/ص٤٣٩).

(٣) ونحن نبني حضارتنا، ط٢، ص٥٢.

(٤) أخذًا من حديث أبي هريرة ﷺ: «المتمسك بسنّتي عند فساد أمتي له أجر شهيد»، ذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن صالح العدوي، ولم أر من ترجمه وبقية رجاله ثقات. (انظر: مجمع الزوائد ج١/ص١٧٢). وجاء في رواية عن بن عباس ﷺ مرفوعًا بزيادة (مائة شهيد)، وفيه: الحسن بن قتيبة الخزاعي المدائني، قال بن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وقال أبو حاتم: ضعيف، وقال الأزدي: واهي الحديث، وقال العقيلي: كثير الوهم. (انظر: لسان الميزان ج٢/ص٢٤٦).

(٥) أسئلة العصر المحيّرة، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ج:٢.

(٦) ونحن نقيم صروح الروح، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧، ط:٦، ص:٣٦.

(٧) مقال: صورة قلَمية لرجل القلب، للأستاذ فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير - مارس) ٢٠٠٩.

(٨) مقال: المجتمع المثالي، للأستاذ فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ٣١ (يوليو - أغسطس) ٢٠١٢.

(٩) مقال: صورة قلَمية لرجل القلب، للأستاذ فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير - مارس) ٢٠٠٩.

(١٠) الموازين، أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص:١٨٥.

(١١) المصدر نفسه، ص:١٨٥.

(١٢) أسئلة العصر المحيّرة، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ج:٣.

(١٣) الموازين، أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص:١٨٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص:١٨٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص:١٨٥.

(١٦) مقال: صورة قلَمية لرجل القلب، للأستاذ فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير - مارس) ٢٠٠٩.

(١٧) «نقاط الالتقاء والاتحاد»، الموازين أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦.

(١٨) الموازين، أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦.

(١٩) أسئلة العصر المحيّرة، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ج:٢.

(٢٠) الموازين، أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ط:٧، ص:٧٢.

(٢١) أسئلة العصر المحيّرة، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ج:٢.

(٢٢) الموازين، أو أضواء على الطريق، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص:٧٥-٧٦.

(٢٣) أسئلة العصر المحيّرة، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ج:٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ج:١، ط:١، ص:١٦١.

(٢٥) المصدر نفسه، ج:٢.

أثر العقيدة في بناء الحضارة

لدى مالك بن نبي و فتح الله كولن

عبد الحميد مدكور

ولـد عـام ١٩٤٢م في قرية باسوس محافظة القليوبية بمصر. في عام ١٩٦٦م حصل على ليسانس كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ثم على الماجستير من الكلية نفسها في عام ١٩٧٢م. وفي عام ١٩٨٠م حصل على الدكتوراه بعد مهمة علمية في فرنسا. عمل أستاذًا ورئيسًا لقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة. وهو الأمين العام الحالي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. قام بمجموعة أعمال بحثية كبيرة تجاوزت الثلاثين، وله عدد كبير من الكتب والمؤلفات العلمية.

هذه الدراسة بمثابة جولة مع جانب من أفكار الأستاذين مالك بن نبي، ومحمد فتح الله كولن، حول دور العقيدة وأثرها في بناء الحضارة، واستعادة نهضة العالم الإسلامي. وقد أكدت الدراسة في مجمل سطورها، على أن هذين المفكرَيْن المسلمَيْن مهمومان بقضية النهضة، وأنهما يحملان هَمًّا مشتركًا، وينتميان إلى غاية واحدة، وينطلقان من مصادر واحدة، ومرجعيتهما الفكرية واحدة.. كما أنهما يعالجان مشكلات لا تخلو من التشابه.. ثم إن هذين المفكرَين هما جنديان في كتيبة هذا الفكر الإسلامي الذي يبحث عن حلول لنهضة هذه الأمة وإخراجها من عوامل التقهقر والتخلف التي أحاطت بها.. ويقدّران قيمة الفكر -المحوَّل إلى عمل وسلوك إيجابي- تقديرًا عاليًا؛ لأن هذا الفكر الإيجابي هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديمًا. وخلص الكاتب في نهاية الدراسة إلى إبراز جوانب التشابه في الرؤى والأفكار، وما تميز به كل مفكر عن الآخر فى مقارنة هادئة موضوعية بما يليق بهذين العلمين الكبيرين من أعلام الأمة الإسلامية.

يؤكد كثير من المهتمين بفلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ، أهميةَ العقيدة في بناء الحضارة الإنسانية وفي ازدهارها، ومن أشهر هؤلاء «جوستاف لوبون» -مؤرخ الحضارة المشهور- الذي أوضح هذه الأهمية على نحو قاطع لا يحتمل لَبْسًا؛ فقد ذكر أن أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم، والتي تعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة، تتمثل في المبادئ الدينية التي كانت -على الدوام- أهم عنصر في حياة الأمم والشعوب، ومن ثم كانت أهم عنصر في تاريخها، ولذا كانت أكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار في حياة البشرية، هي قيام الحضارات وسقوطها.

وقد احتل الدين هذه المكانة العظمى، لأنه -في رأيه- هو العامل الوحيد الذي تتوحد به -وقتًا ما- منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها. ويقوم الدين بهذا كله دفعة واحـدة، مستغنيًا بذلك عن غيره من العناصر التي تتكون منها روح الأمة، والتي لا تنتج هذه النتيجة إلا على مدى طويل في التاريخ.

ولم يكتف هذا المؤرخ بالعرض النظري للفكرة، بل إنه أكدها بالشواهد التاريخية الكثيرة التي استخلصها من دراساته الطويلة الشاملة، التي تدل دلالة واضحة على أن قيام الأمم بأعظم الأعمال، كان في عصر هذا التطور الذي يحدثه الدين في نفوس أتباعه، والذي بسببه تأسست أكبر الممالك في التاريخ.. وكان من أبرز الأمثلة التي قدمها -في هذا المقام- تاريخ الأمة الإسلامية التي نشأت وتطورت على أساس تلك الفكرة الدينية التي اقتبستها من محمد ﷺ؛ فاستطاع هؤلاء الذين ينحدرون من سلالات بعض القبائل العربية، أن يقهروا أممًا كانت لا تعرف عنهم حتى الأسماء، وأن يشيِّدوا تلك الدولة الكبرى.

ويوجد مثل هذا الرأي -كذلك- لدى مؤرخ وفيلسوف كبير هو «أرنولد توينبي»، الذي يقرر أن للعقائد الدينية دورًا مهمًّا للغاية في مجريات التاريخ؛ حيث كانت البوذية سببًا في وجود حضارة الشرق الأقصى، وكانت العقيدة الهندوكية وراء ميلاد الحضارة الهندية، وكانت العقيدة المسيحية سببًا في نشأة الحضارة المسيحية الشرقية والغربية.. وكان الإسلام هو المصدر الذي انبثقت منه الحضارتان؛ العربية والإيرانية. وهكذا كان للعقيدة أثرها البالغ في نشأة الحضارة الإنسانية في عصورها المختلفة. وفيما يتعلق بالإسلام -خاصة- أشار «توينبي» إلى أن التوفيق الذي أصابته الدولة الإسلامية -وهو توفيق مذهل في رأيه- كان يرجع إلى العقيدة الإسلامية وحدها.

ويتكرر مثل هذا الرأي لدى فلاسفة آخرين، ممن شُغِلوا بفلسفة الحضارة وبيان أثر الدين في نشأتها وازدهارها. ومن هؤلاء «هنري بين»، و «هرمان دي كيسلر لنج»، وأمثالهما ممن لاحظوا هذا الارتباط الوثيق بين الدين والحضارة. ومن ثم كان ينبغي -في نظر هؤلاء الباحثين- أن نبحث في أي حضارة من الحضارات، عن أصلها الديني الذي بعثها.

ولم يكن غريبًا -إذن- أن يهتم مفكرو الإسلام بتأصيل هذه الفكرة، وتطبيقها على الحضارة الإسلامية التي كان الإسلام -بلا منازع- هو أصل نشأتها وباعث نهضتها، وإليه ترجع عوامل ازدهارها وقوتها. وهو -بالنسبة لها- بمثابة جذر الشجرة للشجرة؛ فهو الذي يمدها بالحياة والقوة والنماء، ولذلك كانت شديدة الحاجة إليه.. فإذا حيل بينه وبينها، أو ضعف تأثيره في عقل أصحابها ووجدانهم وأخلاقهم، كان ذلك نذير ضعفها وتقهقرها، وربما أدى ذلك إلى انهيارها وفنائها.

وقد كان الخوف على الإسلام وحضارته ومصير الأمة التي تؤمن به، من أقوى البواعث على الاهتمام بإحياء هذه الفكرة على مستوى النظر العقلي، والشعور النفسي، والسلوك الخلقي، والارتباط الاجتماعي، لاستنهاض

لقد تحدث مالك بن نبي كثيرًا عن ضرورة المنطق العملي الذي يلزم لتحويل الأفكار إلى أعمال، وللخلاص من الجدل الفكري الذي لا يؤدي في النهاية إلى تغيير في النفس والمجتمع، وعارض القول الذي يذهب إلى أن المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن.

الهمم، وتجديد اليقين بأن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها، وأن الإسلام بمفهومه الشامل -عقيدة وشريعة وأخلاقًا وتجربة تاريخية شامخة- هو طوق النجاة للأمة من وهدتها الحضارية التي تردت فيها في القرون الأخيرة، وأنه صالح -بما جعل الله فيه من سمات الخلود والقدرة على المقاومة والنزال التاريخي للقوى المعادية- لأن يستعيد عافيته، ويعاود قدرته على التأثير وتحريك الطاقات المادية والمعنوية لدى المؤمنين به، وأن يزيح من طريقه كل العوائق التي تحاول إضعافه وإبعاده، سواء كانت عوائق خارجية كالاستعمار والعلمانية، لا سيما في صورتها الشاملة المتجاهلة للدين أو المقاومة له، أم كانت عوائق داخلية كالفُرقة والانقسام والتخلف وشيوع التقليد والتمذهب والتشدد المجافي لروح الدين.

وقد انشغل بهذا الهمّ كثير من مفكري الإسلام في أقطاره المختلفة، وكان منهم -على سبيل المثال لا الحصر- رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد إقبال، وحسن البنا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، وسعيد النورسي.. ثم كان من أكثر الذين انشغلوا بهذه القضية؛ مالك بن نبي -المفكر الجزائري الكبير (١٩٧٣م)- والمفكر التركي الكبير محمد فتح الله كولن، وهما اللذان سيكونان موضوع عنايتنا، في هذا المقام.

١- أثر الدين في بناء الحضارة عند مالك بن نبي

كان بناء الحضارة واستعادة النهضة للعالم الإسلامي، من أهم الشواغل الفكرية لمالك بن نبي. ويمكن اعتبار هذا الجانب، ركنًا أصيلاً وجوهريًّا في مشروعه الفكري، كما تدل على ذلك كتاباته ومقالاته التي استمرت في الظهور، معبِّرة عن اهتماماته الفكرية والعملية مدة تقارب نصف قرن. ويمكن القول بأن انشغاله بهذه القضية الكبرى، لم يكن مجرد استجابة لدوافع فكرية أو فلسفية خالصة؛ بل إنه كان -كذلك- استجابة لدوافع دينية تتمثل في انتمائه إلى الإسلام الذي أقام -على امتداد القرون- حضارة شامخة أسهمت في تاريخ الحضارة الإنسانية.

ثم كان هذا الاهتمام، ردّ فعل لهذا الواقع المؤسف الذي كانت تمر به الأمة الإسلامية التي كان لها -بفضل الإسلام- مكانة رفيعة في بناء العلم والثقافة، والارتقاء بالأخلاق، وتحقيق مفاهيم العدالة والأخوة الإنسانية.. لكنها وقعت -في القرون الأخيرة- فريسة للأمّية والجمود الفكري والركود الحضاري، ثم للاستعمار الذي أنهك قواها ونهب ثرواتها، وعمل على فصلها عن جذورها الدينية وروافدها الثقافية، كما عمل على تفتيتها وتقسيمها على نحو أفقدها كثيرًا من عوامل قوتها وعناصر أصالتها، وطبعها -في كثير من جوانب حياتها- بالتبعية لنموذجه الحضاري.

وقد كان مما تبين لمالك بن نبي -بطول التأمل- أن محنة العالم الإسلامي ترجع إلى سببين:

أولهما أن الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية -منذ ألف عام- قد فقدت التصاقها بالواقع، ومن ثم لم تعد قادرة على التأثير فيه. ومن ناحية ثانية، فإن أفكار أوروبا التي أدّت إلى تشييد الحضارة الأوروبية، ليست بقادرة على النهوض بالعالم الإسلامي؛ لأنها وافدة من ثقافة غير ثقافته،

ولم يتح لهذه الأفكار أن تؤثر في الواقع الإسلامي كما أثرت في بلد كـ «اليابان». والمحنة -إذن- مركبة «ونحن اليوم نقاسي هذا التدهور المزدوج، فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك، لها انتقام رهيب».

وكان مما أشار إليه في الجانب الأول المتعلق بالإسلام، أن العالم الإسلامي قد فقد الجذوة الروحية الدينية للإسلام، فلم يَعُدْ لها حضورها الفعال المؤثر في حياته كما كان الحال في عصر الازدهار الحضاري. وفي هذا المعنى يقول: «ولقد يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول إنه يتكلم طبقًا لمبادئ القرآن».

وكان مما أشار إليه في الجانب الثاني قوله «إن اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا منها موقف الزبون؛ وقد استورد اليابانيون من أوروبا أفكارًا، بينما استوردنا منها الأشياء، بل استوردنا الرذائل في كثير من الأحيان قبل أن نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة».

وكان على جميع المفكرين المهمومين بنهضة العالم الإسلامي، أن ينتبهوا إلى أن استعادة هذا العالم لنهضته، لن تتحقق باستيراد بعض العناصر من هنا أو من هناك ثم التلفيق بينها، بل كان عليهم أن يعملوا على تحديد العناصر الأساسية التي تسهم في خلق تركيب حضاري متجانس، بواسطة منهج يقوم على التحليل العلمي لهذه الظاهرة المركبة في جوانبها الفردية والاجتماعية، وفي عناصرها النفسية والتربوية.

عناصر بناء الحضارة

للحضارة تعريفات متعددة تختلف باختلاف الفلاسفة والمفكرين، كما تختلف باختلاف الثقافات والأيديولوجيات؛ ويقع الاختلاف في النظر إليها من حيث مقوماتها وعناصرها، ومن حيث الطابع الغالب عليها، ومن حيث علاقتها بالثقافة، وتساق التعريفات بالعشرات، بل تدخل في نطاق المئات[1].

ولا يشغل مالك بن نبي نفسه بالدخول في جدل نظري حول هذه التعريفات، بل يقدم تعريفًا لها من وجهة نظر وظيفية كما يقول: «الحضارة جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره». ثم هو يعرِّفها تعريفًا آخر أكثر تفصيلاً فيقول عنها إنها «مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طوْر من أطوار وجوده -منذ الطفولة إلى الشيخوخة- المساعدة الضرورية في هذا الطور من أطوار نموه، كالمدرسة والمعلم والمستشفى ونظام شبكة المواصلات.. واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعًا أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقْدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه».

ويلاحظ أن الحضارة -لديه- تأتي بمفهوم شامل للعناصر المعنوية والمادية، وأن الجانب المعنوي والأخلاقي فيها يأتي سابقًا على الجانب المادي منها. كما يلاحظ في التعريفين، أن الحضارة ذات صبغة اجتماعية؛ لأن الفرد -وحده- لا يصنع حضارة، ومن ثم فإن المجتمع -الذي هو صانع الحضارة- مكلَّف بأن يضمن وصول ثمرات الحضارة إلى كل فرد من أفراده، دون أن تستأثر بها طبقة أو فئة أو عنصر، كما وقع في بعض الحضارات القديمة والحديثة على حد سواء.

إن الإنسان هو صانع التاريخ والحضارة، وهو باني المجتمعات ومؤسس العمران، ثم إنه هو مُبْدع الأفكار وحاملها وهي ذات قيمة كبرى في بناء الحضارات. ولذلك لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار.

وإذا كان المجتمع الإسلامي يتطلع إلى تحقيق دورة جديدة من دورات الحضارة، فإن عليه أن يعرف مكانه من هذه الدورة، والشروط التي عليه أن يقوم بها، مع معرفة ما هو واقع فيه من عوامل الانحطاط، وما تنطوي عليه من أسباب التقدم. ثم عليه أن يتذكر -بدقة- نقطة الانطلاق في دورة الحضارة السابقة، حتى يفيد من تجربته الماضية فيما يطمح إلى تحقيقه في حاضره وفي مستقبله، وها هو يقول: «ولعل أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ، أننا نجهل النقطة التي نبدأ منها تاريخَنا. ولعل أكبر أخطاء القادة، أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه، حيث يسير خبط عشواء».

وينبغي -كذلك- أن تكون على علم بالمقومات الأساسية والجوهرية التي تقوم عليها الحضارة، ويشير مالك -في هذا الصدد- إلى عناصر ثلاثة، هي الإنسان، والتراب، والوقت. وقد تحدث عنها باستفاضة، وأشار إليها في أوائل ما كتبه عن النهضة مثل شروط النهضة، وظل حريصًا عليها فيما ظهر بعد ذلك من مؤلفات، حتى إنه لَيقول في واحد من مؤلفاته الأخيرة: «ولو سُمح لي أن ألخصّ وجهة نظر عَبَّرت عنها منذ ربع قرن، لقلت إنه ليس من الضروري -ولا من الممكن- أن يكون لمجتمعٍ فقيرٍ الملياراتُ من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئًا؛ الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت»[٢].

وليست هذه العناصر أو الأضلاع الثلاثة على درجة واحدة من الأهمية، بل إن الإنسان هو أكثرها أهمية؛ لأنه هو صانع التاريخ والحضارة، وهو باني المجتمعات ومؤسس العمران، ثم إنه هو مُبْدع الأفكار وحاملها وهي ذات قيمة كبرى في بناء الحضارات. ولذلك لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار. ولقد يحدث أن تلمّ بمجتمع ما، ظروف أليمة تمحو منه عالم الأشياء محوًا كاملاً، أو تفقده ميزة السيطرة عليه بعضًا من الوقت: «فإذا حدث -في الوقت ذاته- أن فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار، كان الخراب ماحقًا.. أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره، فإنه يكون قد أنقذ كل شيء؛ إذ إنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء»[٣].

ثم إن الإنسان هو الذي يعطي العنصرين الآخرين أهميتهما؛ فهو الذي يعمل لاستثمار عامل الزمن إذا كان إنسان حضارة، وهو الذي يتفاعل مع العناصر المادية التي يتضمنها عنصر التراب. وتقوم التربية بدور مهم في تحقيق هذه المهمة الكبرى، وذلك بتزويد الإنسان بالعناصر الأخلاقية والجماعية والعملية والتطبيقية، الملائمة لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون.

وهكذا ينتهي مالك إلى القول بأنه -وفي نقطة انطلاق الحضارة- ليس أمامنا سوى العوامل المادية الثلاثة: الإنسان، التراب، الوقت. وفي هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي، الذي يمدها في خطواتها الأولى في التاريخ.

لكن هذه العوامل لا تقوم بدورها في بناء الحضارة، ولا تبدأ عملها في التاريخ -كما يقول- إذا ظلت منفصلة بعضها عن بعض. ولا بد -إذن- من مزج هذه العناصر وتركيبها، وإلا لكان لزامًا أن تستطيع كل جماعة بشرية تمتلك هذه العناصر متفرقة، أن تنشئ حضارة. وهذا غير متحقق في الواقع، «لأن هناك جماعات بشرية ما زالت تعيش -حتى الآن- في حالة ما قبل الحضارة». ومن أمثلة ذلك أن جزيرة العرب لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، ومن ثم كانت هذه العناصر راكدة خاصة لا تؤدي دورًا ما في التاريخ.

ويختلف المؤرخون وفلاسفة الحضارة في تحديد هذا العامل المؤثر الذي يقوم بتركيب هذه العناصر؛ فالمؤرخ البريطاني الشهير «أرنولد توينبي» يرى أن أهم العوامل في قيام الحضارة يتمثل فيما أسماه «نظرية التحدي والاستجابة». فالتحدي يثير القوى الكامنة في المجتمع، ويؤدي إلى تعظيم طاقتها وقدرتها على مقاومة العقبات والمشكلات والتحديات العارضة[٤].

لكن «مالكًا» ينقد هذا الرأي ويرتضى رأيًا آخر لبعض فلاسفة الحضارة، ممن يذهبون إلى أن الدين هو أكثر العوامل تأثيرًا في بناء الحضارات.

ويرى «مالك» أن الدين في تركيبه لعناصر الحضارة، أشبه بالموصِّل الذي يقوم بتوصيل أطراف الأسلاك الكهربية بعضها ببعض حتى يتولد التيار الكهربي. ويمكن تشبيهه -كذلك- بالعامل الوسيط في التفاعلات الكيميائية؛ فالأكسوجين والأيدروجين لا يكوِّنان الماء تلقائيًّا، بل إن ذلك التركيب يخضع لقانون معين يقتضي تدخل مركب ما، بدونه لا تتم عملية تكوين الماء: «وبالمثل لنا الحق في أن نقول إن هناك ما يطلق عليه مركِّب الحضارة، أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض». وهذا العامل الذي يدل عليه استقراء التاريخ، هو الفكرة الدينية التي رافقت -دائمًا- تركيب الحضارة خلال التاريخ.

ولكي يؤكد هذه الفكرة، شرع في تحليل عدد من الحضارات، ليبحث عن السبب الفاعل في نشأتها حتى لا يقال إن هذا الأمر خاص بالإسلام. وقدم -في هذا المجال- شواهد من الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية اللتين تنطلقان من الفكرة الدينية، وخلص من ذلك إلى القول بأن «الحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث -في حضارة من الحضارات- عن أصلها الديني الذي بعثها»، ثم يضيف قائلاً: «ولعله ليس من الغلو في شيء، أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية».

إذا كان المجتمع الإسلامي يتطلع إلى تحقيق دورة جديدة من دورات الحضارة، فإن عليه أن يعرف مكانه من هذه الدورة، والشروط التي عليه أن يقوم بها مع معرفةِ ما هو واقع فيه من عوامل الانحطاط، وما تنطوي عليه من أسباب التقدم.

وهكذا يقرر في لهجة واثقة مستندة إلى الاستقراء التاريخي، ما يشبه أن يكون قانونًا عامًّا أو ما يسميه «سرا كونيا» يحتل فيه الدينُ هذا الموقع المهم في مجريات التاريخ الإنساني، يقول «فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي من السماء.. أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام؛ فكأنما قَدَرُ الإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية.. إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء، التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها».

ولا يفتأ «مالك» يؤكد هذه الفكرة التي كانت تلح على فكره ووجدانه، فكان يكررها كلما وجد مناسبة لذلك، وكان يضيف إليها شواهد جديدة عند تكراره لها. وقد ذكر أن الحضارات الهندوسية والبوذية والموسوية والمسيحية والإسلامية، قد ولدت من هذه الانطلاقة الروحية التي أقامت هياكل «براهما» و «يَهْوَهْ»، ومعابد البوذية، والكنائس القوطية، والمساجد الإسلامية.. «فكل هذه الحضارات المعاصرة لنا، قد شكلت تركيبها المتآلف الأصلي للإنسان والتراب والزمن، في مهد فكرة دينية».

وقد أحس «مالك» أن من الممكن أن يُعتَرَض على هذه التحليلات كلها بالماركسية التي ترفض الدين أصلاً، ولهذا

كان حريصًا على القول بأن الاشتراكية أو الماركسية في الاتحاد السوفيتي -الذي كان ما يزال موجودًا في حياة مالك- ليست استثناء من هذا القانون العام الذي تخضع له تلك الحضارات التي ذكرها، مع أنها ترفض الدين وتراه وسيلة برجوازية يراد بها صرف الطبقات العاملة عن المطالبة بحقوقها من أصحاب المال، اكتفاء بما سيلقونه من جزاء في الآخرة؛ لأن الأيديولوجية الماركسية قد تحولت عند أصحابها إلى عقيدة تماثل في قوتها وتأثيرها عقائد المؤمنين بالأديان، وأنها قد استخدمت -لنموها واكتمالها- كلَّ البنى التحتية: النفسانية والمفاهيمية المسيحية»[٥].

ولا يفوت مالك بن نبي أن يشير إلى أن «جيفارا» الذي كان يخوض غمار النضال الماركسي لتحرير بعض دول أمريكا اللاتينية من براثن الاستعمار، كان يتحدث- أحيانًا- بنفَس تدخله حدة دينية.

ولم يكن «مالك» يجهل أن هناك نظريات كثيرة تفسِّر قيام الحضارة أو النهضة. وقد ذكر عـددًا من هذه التفسيرات، ومن بينها ما يتعلق بعبقرية النوع أو العنصر البشري، ومنها ما يتعلق بتأثير الجغرافيا، ونظرية التحدي والاستجابة، ومنها ما يتعلق بالعوامل المادية والاقتصادية كما هو الشأن في التفسير الماركسي. لكن ذلك كله لم يكن كافيًا لزحزحته عن انحيازه لتأثير الفكرة الدينية التي رأى أنها لم تكن ذات تأثير مهم في نشأة الحضارات في الماضي فحسب، بل إنها صالحة -في الحاضر والمستقبل- لإحداث النهضة أيضًا: «فإن قوة التركيب لعناصر الحضارة، خالدة في جوهر الدين وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين -حسب العبارة الشائعة- مؤثر صالح في كل زمان ومكان ما لم يخالف الناسُ شروطه وقوانينه»[٦].

ولا يكتفي «مالك» بتقرير هذه الفكرة عن تأثير الدين من الناحية النظرية، بل إنه يُعنَى بذكر بعض المسائل التفصيلية المستندة إلى وقائع عملية تشهد كلها بصحة الفكرة وتؤكدها. وكان من جملة ما قاله أن الدين هو الذي يطلق الشرارة الروحية في النفس الإنسانية، ويعمل على إطلاق الطاقات الكامنة فيها، وتمثلها لحظةُ التوتر التي تحرك هذه الطاقات الخاملة الخامدة، وتدفعها إلى الحركة والتأثير والفاعلية..

وفي هذا يقول: «إن الإسلام أتى بالمبررات الكفيلة بتحقيق أقصى ما يمكن من التوتر في الطاقات الاجتماعية، وأسمى ما يمكن من المصلحة التي تخدمها تلك الطاقات».

وبدأ هذا التأثير في حضارة الإسلام عندما تجلى الروح بغار حـراء؛ فبدأت الحياة تدب في هذا المجتمع العربي، محدثة نقلة هائلة في حياته وفي رسالته.

ويشير «مالك» هنا إلى أن المجتمع العربي قبل الإسلام لم ينتج إلاّ عشر معلقات؛ ومعنى ذلك أنه كان في حالة من الخمود التي لا تسمح له باستثمار طاقاته، وأنه لم يكن في حالة من التوتر الاجتماعي الذي يدفع إلى الإنتاج بقوة وحرارة، وعندما جاء الإسلام استطاع أن يقيم حضارة خلال نصف قرن. ومعنى ذلك أن الإسلام أتى بالمبررات الدافعة لليد والعقل والقلب، لكي تحقق -متساندة- حضارة ذات إشعاع.

ولا يقتصر دور الدين على إطلاق الشرارة أو إعطاء لحظة التوتر، بل إنه يعطي -كذلك- للحياة هدفًا ومعنى، وهو يعطي للحياة امتدادًا وديمومة، ويحدد لها قيمًا كبرى يسعى الإنسان إلى تحقيقها. وهكذا

إن قدرة الإسلام على بناء الحضارة قدرة متجددة، وإن العالم الإسلامي لن يستعيد حضارته إلا بالإسلام؛ ولكن الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي.

يمنح الدين للإنسان الوعي بهدف معين تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى. وحينما تمكِّن الفكرة الدينية لهذا الهدف من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكّنت لبقاء المجتمع ودوامه.

وهكذا كان للإسلام الفضل في تحريك الإنسان السابق على الحضارة، والذي تحول بالإسلام إلى أن يكون صانع حضارة، إلى حيث يسوقه الله.

ولعل من أهم ما يحققه الدين للإنسان، أنه يزوده بالقيم الأخلاقية التي تحكم سلوك الفرد، وتهذب مشاعره، وترتقي بسلوكه، وتجعله -بالقبس الروحي الذي يمتلئ به ضميره، ويتطهر به فكره- رقيبًا على ذاته، محاسبًا لنفسه، لا يستنكف من الاعتراف بخطئه، ولا يتأبى على تحمل عواقبه مهما كانت جسيمة.. ولا يستطيع شيء غير الدين، أن يمنح أتباعه مثل هذا المستوى العالي من التطهير الذاتي، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حكامهم[٧].

وبهذا تكون -تلك الروح الخُلُقية- منحة من السماء إلى الأرض تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات.

ثم إن الدين من أقوى العوامل تأثيرًا في الإرادة الإنسانية، التي يمنحها الدين صلابة وجرأة وقدرة على الحركة والمقاومة والتغيير.. التغيير الذي هو مرهون في الإسلام بتغيير النفس؛ وكثيرًا ما كان يردد الآية القرآنية التي تقرر هذا المعنى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

وهو يرى أن هذا يمثل النص المبدئي للتاريخ التكويني، لكنَّ على المسلمين ألاّ يكتفوا بتقرير هذا المبدأ من حيث الإيمان به فحسب، بل يجب أن ينقلوه إلى ساحة التاريخ، وبناء على ذلك يقول: «وإنها لشرعة السماء: غيِّر نفسك تُغيِّر التاريخ».

ولا يتوقف تأثير الدين على التأثير في أخلاق الفرد وإرادته ووعيه، بل إن هذا التأثير يمتد إلى التأثير في عقل الإنسان وفكره؛ فالعقل يفقد فاعليته -بل يفقد معناه- إذا غابت القيم الإيمانية. فأينما يقف إشعاع الروح يخمد شعاع العقل؛ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم، وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان، وليس هذا بغريب إذا تذكرنا أنه يشير إلى أن الدين يمنح الإنسان معنى الخلود، ويفتح له باب الأمل، ويمده بالطاقة التي تمكّنه من احتمال الألم ومواجهة النكبات.

ثم يمتد تأثير الدين إلى الحياة الاجتماعية أيضًا، فالدين يربط الأفراد بعضهم ببعض: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال:٦٢-٦٣)، وهو قادر على التأثير في الشبكة الروحية والعلاقات الاجتماعية والتغييرات النفسية.. وهو ينقلهم بهذا، من الأنانية والفردية والعصبية والدوائر الضيقة المتمثلة في الفئة والطبقة والمستوى الاجتماعي والمادي، ليكون الجميع عباد الله إخوانًا، يجمعهم هدف، وتربطهم غاية، يقول «إن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة -كالأنصار والمهاجرين- أول مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد، يعرض على أخيه أن ينكحه مَن يختار من أزواجه بعد أن يطلقها له، لكي يبني بذلك أسرة».

وكان للمجتمع الإسلامي الوليد نفس الهمة عندما كان يسمع نشيد الإسلام الفتي في أعماق روحه، ذلك النشيد الذي كان يسوق الأبطال إلى ميادين القتال أو إلى ميادين الشغل سواء. ثم إن المجتمع لا يستطيع أن يجابه أهوال الزمن، إلا بجهد تدعمه عقيدة لا يعتريها الشك أبدًا، كذلك فإن «التعاون بين الدولة والفرد، لا بد له من جذور في عقيدة تستطيع أن تجعل ثمن الجهد محتملاً مهما كانت قيمته لدى صاحبه، يضحّي -هكذا- بمصلحته وحتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره».

ولعل هذا كله يكشف لنا بوضوح رأي «مالك» في علاقة الدين عمومًا بالحضارة، وعلاقة الإسلام خصوصًا بها. وهو يرى -ونحن معه- أن قدرة الإسلام على بناء الحضارة قدرة متجددة، وأن العالم الإسلامي لن يستعيد حضارته باتباع الشرق أو اتباع الغرب، بل إنه لن يستعيدها إلا بالإسلام؛ ولكنه يتساءل: «أي إسلام؟»، ثم يجيب قائلاً: «الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي. وقوةُ التماسك هذه جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة، وفي يدها -ضمانًا لذلك- تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة وسط البدو، رجال الفطرة والصحراء»[٨].

ويقرر «مالك» -في لهجة حاسمة كانت تفرضها واقعيته- أن الإسلام ليس في حاجة إلى مديح دون عمل به، لأن هذا نوع من التعويض بالكلام عن الواقع، والإسلام هو الفكرة والمنهج، أما الإنسان فهو الذي يقتنع بالفكرة ويطبق المنهج، ويستخدمهما في تحقيق تقدمه: «ولا شك في أننا حين ننقد مظاهر ضعف هذا العامل، فإن ذلك خير وأفعل من أن نستطرد في تقريظ الآلة، ومما لا جدال فيه أن الإسلام قد احتفظ بمضائه كدُرَّة فريدة في التاريخ، ولكن المسلم هو الذي فقد استخدامه الاجتماعي».

لقد تحدث مالك بن نبي كثيرًا عن ضرورة المنطق العملي الذي يلزم لتحويل الأفكار إلى أعمال، وللخلاص من الجدل الفكري الذي لا يؤدي في النهاية إلى تغيير في النفس والمجتمع، وعارض القول الذي يذهب إلى أن المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن، ورأى أن الصواب أن يقال: إنه يتكلم طبقًا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه.

وكان هذا يمثل دعوة ملحة إلى ضرورة الانتقال من عالم الأفكار إلى الأعمال، ولكن الأفكار تظل حبيسة الكتب -بل حبيسة بعض العقول أحيانًا- ما لم تجد طريقها إلى التنفيذ، لتتحول على أيدي من يقتنعون بها ويعتنقونها إلى برنامج عمل ومنهج حياة.

وقد بقيت أفكار «مالك» تحلّق في سماء الفكر الإسلامي، بما يتحقق لها من فهم عميق وتحليل للمشكلات التي يعاني منها المجتمع الإسلامي في حياته العملية، أو في علاقته بالقوى المؤثرة في العلاقات الدولية. وقد حلل هذه المشكلات بروح الفليسوف، ومبضع الجراح وأدوات المهندس، مع رغبة في البناء وإرادة للتغيير.. ولكنها ظلت عملاً فكريًّا شامخًا يقوم على تكامل في الرؤية، واعتزاز بالإسلام دينًا وحضارة وأخلاقًا وجدارة باستعادة النهضة للأمة، بل للإنسانية. وقد أشبهت في هذا ما قدمه كثير من المشغولين بالنهضة في عالمنا الإسلامي منذ قرنين أو أكثر من الزمان، ولكنها كانت جميعًا بحاجة إلى الانتقال من عالم الفكر إلى عالم الواقع، ومن خزائن الكتب إلى حيز التطبيق. وهذا هو الذي حاوله فريق آخر من المهتمين بنهضة الإسلام، وكان من أبرز هؤلاء الأستاذ محمد فتح الله كولن، الذي سيكون موضوع الحديث في الفقرة التالية:

٢- محمد فتح الله كولن

بدأت حياة الأستاذ محمد فتح الله كولن في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين (١٩٣٨م)، وكان العالم الإسلامي عندئذ -بل قبل ذلك بقرون- يعاني من الركود الفكري والتخلف المادي، كما أنه خضع لصراع مع الحضارة الغربية التي جاءت إليه غازية مستعمرة تبتغي احتلال أرضه، والحصول على ثرواته، وتقسيم شعوبه وبلدانه، وبذل الجهود لفرض أنموذجها الحضاري عليه، وحملت إليه فكرها وثقافتها لتقاوم عوامل القوة والتماسك والاستمرار فيه، وعلى رأسها انتماء هذا العالم إلى الإسلام.

وكان لهذا كله، أثر في حياة المسلمين. ويشير الأستاذ «كولن» إلى ما أسماه «التآكل الذي أصاب المسلمين في بنائهم الداخلي، من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلفهم -بمراحل طويلة- عن العصر». وكان من مظاهر هذا التآكل «التضحية بالدين في سبيل الدنيا طمعًا في عمارة دنيانا، وتبنّينا منهجًا يرجِّح الدنيا على الدين؛ فضاع الدين، وفرَّت الدنيا، وعاش العالم المجيد التعيس مرحلة التفريغ لميراث مبارك من ألف عام».

ولم يكن «كولن» من هؤلاء الذين يستسلمون لضغط الواقع مهما كان ثقيلاً، بل إنه -بما أوتي من بصيرة وأمل، وما تسلح به من همة وعزيمة- كان ينظر إلى عوامل القوة التي ما تزال كامنة في هذا العالم الإسلامي رغم ما يبدو عليه من ضعف. ولهذا نجده يقول: «وما زالت الأرض -بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، رغم أنف الأشياء- قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، مالكة لطاقةٍ تُحقِّق بعثًا جديدًا بعد الموت، وإنّ أمّتنا تمتلك تراكمًا علميًّا يجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة».

ولم يغب عن فكر «كولن» ولا نظره، أن هناك محاولات للنهضة والإصلاح والبعث تشهدها تركيا وأماكن أخرى في العالم الإسلامي، ولكنه نظر إلى هذه المحاولات نظرة نقدية اتسمت بالصراحة والموضوعية والجرأة -بل والحدة أحيانًا- ولذلك وصف بعض هذه المحاولات بأنها تقليد وضيع، وتَكلُّمٌ بلسان الغير، وتجديد شكلي، وظهر فيما يقال إنه تجديد تلبُّسُ الفكر المِلِّي الديني بلبوس الفسق وتخريب روح الملة. وما كان لمثله أن يهادن مثل هذا الفكر، أو أن يتسامح مع هؤلاء الذين يرفعون رايته، وهو يرجو للأمة كلها -وفي مقدمتها تركيا- إصلاحًا حقيقيًّا يعيد لها مجدها العلمي والفكري والسياسي الذي كان لها من قديم.

وقد تصدَّى كولن -بقوة- لدعوات التغريب التي كانت تروِّج للنموذج الغربي على الرغم من سوآته وسيئاته الكامنة في بنيته الأخلاقية وسلوكه العلمي واستعلائه على الشعوب، ثم إهماله للدين قبل هذا كله.. وفي هذا يقول: «وما فعله الغرب -حتى اليوم- هو إهمال القيمة الدينية، ووصايا السيد المسيح عليه السلام؛ إذ شنوا الحروب في القارات، وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلوا، فلطّخوا وجه العالم بالسواد»، ثم يضيف قائلاً: «ثم إن هذا العالم يحاول أن يسلي نفسه بالمنجزات العلمية والتكنولوجيا هنا وهناك عن غمِّه بالثروة والراحة أحيانًا، لكن من البدهي أنها لن تمنح الإنسان سعادة مستمرة أبدًا.. ولذلك ما من شيء يتخذه دواء وعلاجًا، إلا ويزيد في قتام أفق الأمل الإنساني، ويضيف بؤسًا إلى بؤسه الروحي».

ثم نراه يكرر -في لهجة حاسمة- أن العالم لم يعرف حتى اليوم إيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنًا طويلاً، وأن الدول الغربية لم تستطع -رغم الادعاءات الكثيرة- أن تحقق الأمان للعالم، ولا أن تحقق السعادة له، ولم يفلح في ذلك دعاة الرأسمالية في الغرب ولا دعاة الشيوعية في الشرق، ولا المحايدون؛ وأن هذا الإخفاق زعزع أركان الثقة في هذه النظم أمام العالم، إضافة إلى عجز الحلول المطروحة وقصورها عن احتضان البشرية، ومخالفتها للطبيعة الإنسانية.. ولهذا تقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يُعْرَضُ عليها، موقف الشك والقلق. ثم ذكر أن من أهم عيوب هذه النظم وأنكاها، إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية، «فذلك كله قوَّض أركان الأيديولوجيات كلها، فخلفت خرائب وأنقاضًا فكرية.. ولذلك يمكن القول بأن الجميع اليوم -إلا شرذمة قليلة- في حالة تزعزع وخيبة أمل مريب، وبحث عن مخرج خارق للأسباب»[٩].

ولم يكن هذا المفكر الذي نشأ في أحضان الإسلام، بحاجة إلى مزيد من البحث عن مخرج؛ لأن المخرج حاضر في ذهنه ووجدانه، مجرَّب على مدى تاريخ طويل، وهو صالح لإعادة الحياة من جديد إلى هذا العالم الإسلامي، الذي فقد روحه، وتخلى عن عوامل قوته.. وكان هذا المخرج هو «اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعار هذا الإيمان في وجدانه».

وهنا ينطلق «كـولـن» في حديث مستفيض عن الدين وأهميته، وأثره في التكوين النفسي والخلقي والاجتماعي للمؤمنين به، بما يسمح بتقدم المؤمنين به على نحو لا يحققه غيره، بسبب هذا الانسجام والتكامل بين قوي النفس في الفرد، وبين الأفراد بعضهم وبعض في المجتمع. ومن شأن هذا أن يؤدي إلى حسن استثمار كل الطاقات والملكات والمواهب والإرادات والأعمال، كما أنه يؤدي إلى ضبط حركتها، ومنع تصادمها؛ حتى لا يقع صراع أو اختلال في نظامها، وتضادّ في حركتها، بما يترتب على ذلك من فشل في تحقيق أهدافها. ويضيف «كولن» أن الأديان كلها جاءت لترسخ هذا الفهم، «فقد وَضَع كلُّ دين ضوابط لتنظيم القدرات الفردية، فحوَّلتها إلى مقومات مهمة في توجيه كل الطاقات الكامنة الموجودة، نحو المسير إلى حضارة جديدة وعمران جديد. فبإرشاد الدين يوازن كل فرد حريته وفعاليته الشخصية مع حركة المجتمع وفعاليته»، وأن المتدين ينجح في هذا التفاعل بين الفرد والمجتمع، فيكون كالنجم في موقعه «يدور في فلكه حول مركز الجذب، وحول نفسه في الوقت نفسه».

وإنما يتحقق هذا بالدين؛ لأن الدين إذا تغلغل في الضمير وفي الشعور، يؤدي إلى ما يشبه أن يكون ولادة جديدة للإنسان، وأنه يؤثر في قواه تأثيرًا غير محدود، وأنه كلما تغلغل في القلوب «فسيتمادى تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية، وبعد مدة سيحقق

إن كولن يقدّر قيمة الفكر تقديرًا عاليًا، ويرى أنه -في ظروف عصرنا- هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديمًا، ولذلك كان من صفات إنسان الفكر أنه "وليّ الحق اللدني الذي يُعِدّ "قادة أركان" الروح ومهندسي العقل وعمّال الفكر، بدلاً من استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش".

حصول طبيعة ثانية فيه: هذه الطبيعة ستبدي تأثيرها من الأعماق رويـدًا رويـدًا في كل صفحات حياته ومعتقداته وعباداته وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته.

وإذا كان هذا التأثير يرتبط بالدين عمومًا، فإن ارتباطه بالإسلام أكثر قوة بسبب هذا الشمول الذي للإسلام. وهو ليس شمولاً في جمعه بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق فحسب -وهذا من عوامل كماله وتميزه- بل إنه شمول يمتد إلى التأثير البيِّن في الحياة الاجتماعية؛ لأنه يقيم حياة الأفراد والجماعات والنظم على العدل والاستقامة، ويحرر البشر من سلطة الأقلية، ويعمل على تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص، ويقاوم الإقصاء والإبعاد لأصحاب الكفاءات لأسباب عنصرية أو سلطوية، ثم يعمل على إيقاظ الحركة الداخلية للفرد.. ويراعي خصوصيات الإنسان الأساسية مراعاة تامة، ويوقظ ملكاته الذهنية والفكرية والروحية بمجموعها، ثم يشحنه بطاقات متنوعة، فلا يحصر توجهه في العقل والفكر، ولا يهمل أحاسيسه، ولا يغض البصر عن آليات وجدانه كما تفعل بعض المدارس الفلسفية، «بل إن الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين -بكلِّه الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام-

لم ينحصر مشروع فتح الله كولن في نطاق الفكر، بل إنه خرج إلى نطاق الحركة والتأثير، وتمثل هذا في جماعة الخدمة التي اعتنقت أفكاره، وبذلت من روحها وجهدها وجهادها من أجل تطبيقها، وتحملت في سبيلها تضحيات ومشقات وحركة دائبة مستمرة؛ في تجرد كامل، وإخلاص عظيم، ودون انتظار لميزة مادية، أو مكانة اجتماعية، أو منصب رفيع.

ويعدُّه بعناصر وجوده المادية والمعنوية كلها، ليكون جاهزًا للسعادة الدنوية والأخروية، وأهـلًا لدخول الجنة».

ويتنوع حديث «كولن» عن هذا الإسـلام ويشف، ويكتسب مسحة روحية وجدانية -فضلاً عن طابعها العقلي- ليزداد حديثه عن الإسلام قوة في بيان تأثيره في الفرد والمجتمع، ويتجلى هذا في بعض الأوصاف التي وصف بها هذا التأثير. فالإسلام «هو مصدر غذائنا الأصيل كحليب الأمهات». وهو -كذلك- يحدد للإنسان الهدف الذي هو «مُوَلِّد الطاقة (الدينامو) الأساسي لهذا الإنسان»، وهو الذي يرتقي بالملكات الإنسانية عندما تعتنق هذا الدين، فترث مواريث الإيمان في النفوس والعقول والمشاعر والأحاسيس. ثم يتحول هذا كله في النفس الإنسانية إلى نوع من العشق والاشتياق الذي يجعل من الإنسان المؤمن إنسانًا جديدًا قائمًا على محور الوجدان. ثم يمتد التأثير إلى كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق، فتصير عباداته وطاعاته وحركته كلها انعكاسًا لتأثير الدين في نفسه، «وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها حول قوة الجذب المركزي هذه، فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية وتتوسع بها»، ويصير هذا الإيمان بمثابة شجرة طوبى.

وتتكامل كل صفات الكمال للإسلام، فهو يجمع بين العقل والقلب، وبين الدين والعلم، وبين الفكر والعمل، وبين الاعتقاد والسلوك، وبين المنطق والشعور، دون صراع أو تنافر.. ثم هو يقدم للبشرية كلها نظامًا للحياة -جديدًا وفريدًا- يقيم الوشائج بين الكائنات وخالقها، ويقطع دابر التناقضات في الإلهيات، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم[١٠].

ثم تعلو نبرة الحديث عن الإسلام إلى آفاق علوية حين يصور آيات القرآن بأنها مائدة سماوية، وماء كوثر عذب رقيق، وشلال هادر شديد التأثير في قلوب من يستمعون إليه، وهو أشبه بفوارات دائمة الانبجاس، أو بالأحرى كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية. ولا يوجد مثيل للإسلام في استجابته لحاجات الإنسان -بل لن يوجد- وهذا طبيعي للغاية «لأن مصدره الأول هو الوحي الصافي النقي، وتفسيره الأول هو السُّنَّة، فكما أن القرآن معجز، فكذلك نظامه المنبثق والمكوَّن من خطاباته وتعاليمه معجز، وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل ولا نظير للإسلام الذي يعد من آثاره».

وأما الروح الذي ينبثق من هذا الإسلام، فإنه لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه، طاهرًا أبدًا، نديًّا عميقًا لا يتكدر -قط- بالأوساخ الفكرية (!!) لأي زمان أو مكان[١١].

وسيطول بنا الحديث إذا تتبعنا هذه الإضاءات الفكرية، والوقفات الشعرية والشعورية التي تحدث بها الأستاذ «كولن» عن الإسلام، ولكن الرجل كان حريصًا على أن ينقل إلى سامعه -أو إلى قارئ فكره- أنه عندما يتحدث عن هذا الإسلام، يقصد به إسلام العصر النوراني الأول في عهد النبي ﷺ وفي عصر السعادة عصر الصحابة

الأبرار ﷺ، ولكنه يلفت النظر إلى أن الإسلام -بسبب حفظ مصادره- صالح لإعادة الكرة مرة ومرات؛ لأنه لم يفقد أنواره، ولم تتبدد قوته، لأنها كامنة في جوهره وذاتيته، وليس بمستطاع أحد أن يطفئ هذه الأنوار، أو أن يبدد هذه القوة، وأنه ما على المسلمين إلا أن يعودوا بعقولهم وقلوبهم وأحاسيسهم إلى هذا النبع الصافي الذي لا ينقطع تدفقه، وأن يتذوقوا طعم الإيمان به، وأن يجنوا من ثمراته التي أفاءها الله على البشرية كلها منذ سطعت أنواره، فتحول الأُمِّيُّون إلى حَمَلَة لمشاعل العلم والحضارة والعدْل والتسامح والإنصاف والأخوة الإنسانية.

وينبغي أن يكون معلومًا -إذن- أن المقصود بالإسلام هو الإسلام الأول عند منابعة الأولى، وليس هو الإسلام الذي يبدو في واقع المسلمين المعاصر باهتًا ذاويًا فاقدًا لبريق جاذبيته السماوية. ولذلك كان النموذج الذي يصلح لاستحضاره في الذهن، وللاقتداء به في الواقع، هو نموذج الصحابة ﷺ أو ما يطلق عليه أصولنا الذهبية التي حملت الرايات في مراحل الارتقاء كافة وفي المقدمة رجال عصر السعادة النبوية. وهؤلاء هم المهندسون العظام لتاريخ الأمة الإسلامية، وهم الذين مثلوا الإسلام حق التمثيل.. وهم يقدمون مثالاً نموذجيًّا لتأثير الإسلام؛ إذ كان هؤلاء العرب قبل الإسلام مجتمعًا صلبًا للغاية، بل وحشيًّا متعصبًا لعاداته، ومعاندًا أشد العناد، متهاويًا في أخلاقه السيئة وعاداته الفاسدة.. لكن الإسلام حوَّلهم عن هذا كله، فيما يُعَدُّ معجزة باهرة للإسلام؛ «فهؤلاء أنصتوا للقرآن، وتربّوا بغذاء القرآن، وعشقوا صاحب القرآن ﷺ، فإذا بهم يجدون أنفسهم في صعيد البناء والإعمار والإحياء، بعوالمهم الشعورية والفكرية والحسية»[١٢]. وقد حملهم الإيمان على أن ينقلوا «إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم إلى صدور الآخرين، فبجملة واحدة بدَّلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل وَنَفَسَه في ثلاث قارات».

«وما دام جوهر الإسلام محفوظًا، فإن النهضة والقضاء على مشكلات العالم الإسلامي ليست بالأمر المستحيل كما قد يبدو لذوي العقول القاصرة أو الواقعين في أسر تجارب أخرى شرقية أو غربية، لكن هذا الأمر مرهون بأن يكون التمسك بالقرآن والسنة وإدراكُ مراميهما شبيهًا بالدرجة التي كان عليها المخاطبون بهما في العصور الأولى».

على هـذا لن يتم الإحياء والتجديد والنهضة في العالم الإسلامي، إلا بأن يكون الإسلام في قلب الحركة التجديدية ومركزها.

وإذا كان الأمر كذلك، فإننا -كما يقول كولن- «لسنا بحاجة إلى أن نقدم فهمًا جديدًا للإسلام، ولا إعادة تعليم الإسـلام للمسلمين، لكننا بحاجة إلى تفهيم المسلمين الأهمية الحيوية لما يعرفونه عن الإسلام»[١٣].

ثم ينبغي «أن يكون هذا الفهم مشروطًا بأن يتشبع المسلمون بروح الكفاح من أجل تحقيق هذا الإسلام، ويتخلصوا من الفتور، ويتصرفوا بوعي وانتباه، ويتعالوا على الشهوات النفسية والجسمانية، وأن يعيشوا حسب أفق القلب والروح، وألا يدَعوا مجالاً لظهور أي فكر سلبي في عوالمهم الداخلية».

إن فتح الله كولن يرى أن التكامل بين العقل والروح يؤدي إلى تكامل في الشخصية الإنسانية، وإلى توسع وتنام في الطاقات والملكات والإمكانات المكنونة في الإنسان، وهو ينبّه إلى أهمية الطاقة الروحية، وأثرها في تحويل الفكر إلى عمل.

الانتقال من الفكر إلى العمل

لعل أهم ميزات الأستاذ كولن أنه لم يتوقف عند التأصيل النظري للأفكار التي أقام عليها مشروعه للتجديد والإحياء والبعث، وربما يلاحَظ عليها أنها تتشابه مع مشروعات فكرية سابقة شهدها العالم الإسلامي على امتداد أقطاره وشهدتها تركيا نفسها.. ولقد نجد في كتاباته ذكرًا لبعض هؤلاء السابقين، وتقييمًا لأفكارهم، وإشادة بجهودهم، وثناء عليهم.. وقد نجد في بعض حديثه عنهم لمحات مهذبة، تشير إلى بعض أوجه القصور التي وقعت فيما قدموه من أفكار بجانب ما قدموه من عناصر إيجابية يمكن البناء عليها. «ومن هؤلاء من سبق فكرُه عملَه الحركي، ومنهم من تبارى فكره مع عمله الحركي، ومنهم رجال حركةٍ فكْرُهم مكنون ومخزون»[١٤].

إن «كولن» يقدّر قيمة الفكر تقديرًا عاليًا، ويرى أنه -في ظروف عصرنا- هو السبيل إلى فتح العالم، وهو البديل عمّا كانت تقوم به الجيوش قديمًا، ولذلك كان من صفات إنسان الفكر، أنه «وليّ الحق اللدني الذي يُعِدّ قادة أركان الروح ومهندسي العقل وعمّال الفكر، بدلاً من استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش».

وليس هناك ما هو أعلى من ذلك بيانًا لأهمية الفكر وتقديرًا لقيمته؛ فهو يمثل الخطوة الأولى للتغيير، وهو يمثل -بالتعبير الشائع هذه الأيام- خريطة الطريق التي تحدد المنطلقات، وتضع البرامج، وتصور المشكلات، بناء على فهم الواقع، والمعرفة بالتحديات والصعوبات، ثم تضع الحلول والبدائل التي تؤدي إلى تحقيق الغايات المرجوة من وراء هذا الفكر.

لكن هذا الفكر -على الرغم من هذه القيمة العالية- لا يكفي وحده لإحداث التغيير المنشود، بل لا بد من الانتقال -بعد إحكام الفكر وإجادة بنائه- إلى مجال العمل، أو إلى المنطق العملي الذي سبق مالك بن نبي إلى الحديث عنه، كما سبق إليه دعاة مصلحون في الهند، وفي مصر، وفي غيرها مع اختلاف في الوسائل والبرامج والغايات. ولذلك وجدنا الأستاذ كولن يتحدث عن بناء الحضارة (ونحن نبني حضارتنا)، ويتحدث عن إقامة صرح الروح (ونحن نقيم صرح الروح)، ويتحدث عن علاقة الفكر بالحركة، وخطر افتقاد الفكر، ثم خطر الوقوف عنده وحده دون انتقال إلى العمل.. وها نحن نراه يتحدث عن نوعين من البشر، يعيش أحدهما من غير ممارسة للفكر، ويتصف ثانيهما بأنه يفكر ولكنه لا يعكس فكره على واقع الحياة قط؛ فأما الذين يعيشون بلا فكر، فهم دُمى تقلّد الآخرين وتردد أفكارهم، وهو يشبّههم ببرَك الماء العقيمة الآسنة الخامدة، وهم يتحولون -بمرور الزمن- إلى مجمع للفيروسات، كما يتّهمهم بالضحالة والسطحية والطفولية[١٥]، ومن ثم كان من الواجب تجنب مثل هذا الموقف.. «أما ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطًا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاقِ مُركَّباتٍ فكرية مختلفة»[١٦]. ومعنى ذلك أن هناك علاقة ديناميكية بين الفكر والعمل، فالفكر يتحول إلى عمل، والعمل يلهم المفكر أفكارًا جديدة تضيف إلى الفكر أبعادًا، ويستكمل جوانب وعناصر لم تكن ملحوظة لصاحبه قبل البدء في العمل، كما يمكن أن يؤدي العمل إلى تصويب الفكر أيضًا. وهكذا وجدنا «كولن» يتحدث عن تداخل الفكر والحركة في وقائع التاريخ العظيمة، وهو «تداخل يتربَّى ويتبرمج فيه العمل الحركي بالفكر من جهة، وتهيء فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى. فكأن الفكر بهذا المعنى سماء ومطر للعمل الحركي، أو فضاء وهواء له.. وكأن الحركية أرض وسندانة للفكر، أو تراب وقوة الإنبات فيه، فلا أحسب هذا الأداء المتقابل غلطًا؛ ذلك بأن كل جهد حركي هو تَحقُّقُ فكر وبرنامج، وكل فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أُطُره

الحقيقية في ثنايا التحركات الملتزمة به». ولهذا نجد «كولن» يضع هذا الترابط بين الفكر والحركة على قمة مشروعه وجهوده الإصلاحية، وفي هذا يقول: «يمكن تلخيص خط كفاحنا -كوَرَثة الأرض- بكلمتَي «الحركة» و «الفكر»، وإن وجودنا -بوجهه الحقيقي- يمر عبر الحركية والفكر؛ حركية وفكر يغيران الذات والآخرين».

وإذا كان «كولن» قد قدَّر الفكر تقديرًا عاليًا -كما سبق القول- فإنه يقدر الحركة على نحو مماثل، وذلك عندما يقول: «وإن أهم شيء وأشده ضرورةً في حياتنا، هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام». وعلى المقتنعين بهذا الفكر -إذن- ألاّ يركنوا إلى الراحة، بل إن عليهم -كما يقول- أن يضعوا أنفسهم في ظروف قاهرة، ليعوِّدوا أنفسهم على الصبر والتحمل وابتكار الحلول، وتوقع المشكلات؛ «ولنحملْ فوق ظهورنا واجبات، ونفتح صدورنا أمام معضلات الحركية المستمرة والفكر المستمر ومهما ضحينا في هذا السبيل». ويعلل لذلك كله بقوله: «فإن لم نتحرك نحن، فسندخل في تأثير الدّوَّامات الفكرية والبرامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فضول حركاتهم». ثم يحذّر من أن الإخلاد إلى السكون يؤدي إلى خطر الذوبان في الآخرين، كقطعة جليد سقطت في الماء.. وقد يؤدي هذا، إلى التسليم بما يناقض الذات ويضاد الجوهر. «فالحركة -إذن- بناء وحياة وتغيير وأصالة وحفاظ على الذات».

ولا ينبغي أن يفهم من هذا التقدير العالي للفكر وعلاقته بالحركة، أن «كولن» يغفل جانب الروح في بناء هذا الفكر أو في تربية معتنقيه؛ إذ إن من خصائص منهج «كولن»؛ التخلص من هذه الثنائيات المتضادة التي وقع فيها مفكرون آخرون، كالقول بالتناقض بين الدين والعلم، أو بين الفكر والعمل، أو بين العقل والروح، أو بين الفلسفة والتصوف، وهكذا.. بل إن «كولن» على عكس هؤلاء، يعمل على مزج هذه الأمور التي تبدو عند غيره متضادة، وهو يستخلص من كل جانب منها، ما يؤدي إلى التكامل مع الجانب الآخر. فالثنائيات -في فكره- تتكامل ولا تتناقض، ولذلك وجدناه -هنا- يقول في قوة وصراحة: «إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية، في حالٍ لا يمكن به فصل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني، فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور -خاصة لدى شعبنا- باللجوء إلى المعنى، والروح الإسلامية، وظهر بارزًا بالأعماق التي يختزنها في ذاته كلما توجه إلى الإسلام». وهو يرى أن هذا التكامل بين العقل والروح -وهو الأمر الذي يعود إلى الإسلام ذاته- يؤدي إلى تكامل في الشخصية الإنسانية، وإلى توسع وتنام في الطاقات والملكات والإمكانات المكنونة في الإنسان. وهو ينبِّه -هنا- إلى أهمية الطاقة الروحية، وأثرها في تحويل الفكر إلى عمل؛ لأن الفكر وحده ليس بإمكانه -في ذاته- أن يتحول إلى عمل، لأنه يغلب عليه التأمل الهادئ الذي يستغرق جهد المفكر الذي يُعْني -في المقام الأول- بالإحكام النظري، والتناسق الداخلي، والتميز الذاتي، وقد لا يعنيه جانب العمل فيكفيه أن يضع مذهبًا، أو أن يقدم منهجًا، أو أن يهدم فكرة.. ولذلك تبقى الأفكار حبيسة الكتب أو العقول، بعيدة عن التأثير الفعلي في حركة الحياة، ولا يتحقق لها ذلك إلا إذا تحولت إلى عقيدة أو أيديولوجية تحرك الإرادة الإنسانية، وتمنحها الصلابة والقدرة على التحمل.. وهذا دور الدين الذي يخاطب عقل الإنسان ووجدانه، ويؤثر في شعوره وإرادته، ويغير فكره وسلوكه.

ولذلك كان من الواجب في التربية، أن يتحقق الجمع بين إشراقات العقل وإلهامات الـروح، والمزج بين الفكر والذكر، وبين التأمل والعبادة، وأن يتهيأ الإنسان للانتقال من المنطق والمحاكمة (الفلسفة)، إلى تلقي الإلهام والـواردات الإلهية، وبهذا يكون «كل تصرف للمؤمن الحقيقي عبادة، وكل فكر منه مراقبة، وكل كلام له مناجاة وملحمة معرفة». أو بعبارة أخرى -كما يقول- «من العسير الارتقاء إلى هذه الذروة، ما لم تُحرَّر التجربةُ في مصفاة العقل، وما لم يسلِّم العقلُ نفسه للفطْنة العُظمى، وما لم يقع المنطق في الحب عينه، وما لم ينقلب الحب -أيضًا- إلى عشق إلهي». فإذا تحقق هذا، كان العلم بُعْدًا من أبعاد الدين وخادمًا له، وكان العقل طيف نور يصل به الإلهام أينما شاء، وأصبحت المكتسبات التجريبية موشورًا يعكس روح الوجود، ويصدح كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني.

ولذلك وجدناه يتحدث عن إقامة صرح الروح، وعن ترانيم الروح وأشجان القلب، وعن التلال الزمردية التي يستخلص فيها من مقامات التصوف وأحواله ما يؤدي إلى ترقية النفس وتهذيبها، واكتسابها لأخلاق التواضع والتضحية والفناء عن الشهوات والرغبات.. كما وجدناه يتحدث عن رياضة الأوراد والأذكار، واستمعنا إليه وهو يتحدث عن صفات ورثة الأرض فيجعل من عناصرها الإيمان الكامل والعشق الذي يُعَدُّ أهم إكسير للحياة، وأن الذي يؤمن بالله ويملأ قلبه بمعرفته، يعيش عمره كله وسط حالات المدّ والجزر للعشق والمواجد والجذبات والانجذابات والأذواق الروحية.. ومن ثم فنحن في الحاضر وفي كل مناسبة «بحاجة إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق في فهم جديد لتحقيق انبعاث عظيم». ووجدناه -وهو يتحدث عن ضـرورة الفكر الرياضي لورثة الأرض- يقول: «إن أصحاب هذا الفكر الرياضي، يجمعون بين الرياضيات وقوانينها ويصاحبونها دائمًا من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهمًا شاملاً، وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي».

وكما قررنا سابقًا، لم ينحصر مشروع هذا الأستاذ في نطاق الفكر، بل إنه خرج إلى نطاق الحركة والتأثير. وتمثل هذا في جماعة «الخدمة» التي اعتنقت أفكاره، وبذلت من روحها وجهدها وجهادها من أجل تطبيقها، وتحملت في سبيلها تضحيات ومشقات وحركة دائبة مستمرة، وتنقلاً إلى كل مكان تمتد الخدمة إليه في تجرد كامل، وإخلاص عظيم، ودون انتظار لميزة مادية، أو مكانة اجتماعية، أو منصب رفيع.. ويكفيهم ما يستشعرونه من مشاعر الرضا التي تملأ قلوبهم، وهم يعملون على إرضاء الله تعالى، وتحقيق مراده، واستعادة مجد الإسلام، وإثبات جدارته وقدرته على بناء الحضارة في هذا الزمن، وفي كل الأزمان.

إن هؤلاء هم فسائل الروح الذين يقتدون بالصحابة الذين شهدوا عصر النور والسعادة، وينسجون على منوالهم، ويظهر في حركتهم وسلوكهم التفاني النبيل، والتواضع الجميل، وإنكار الذات.. وهؤلاء يستحقون إلقاء الضوء عليهم، وبيان المنهج التربوي المعرفي والسلوكي الذي يُرَبَّوْن عليه، والخصال الخُلُقية الرفيعة التي يتصفون بها، ونماذج القدوة التي تصدر عنهم.. وهؤلاء ذوو دور عظيم في هذا الانتقال لأفكار هذا الأستاذ من عقله المملوء حكمة ورشـدًا، وروحه

المتوهجة بالمحبة والشوق إلى نطاق الحياة على امتداد أقطار الأرض.. وظهر هذا على شكل مدارس تمتد -حتى الآن- إلى مائة وسبعين بلدًا، وإلى جامعات تتميز بجمعها بين منجزات العلم وأخلاقيات الدين، وفي مستشفيات ووسائل إعلام.. ويمكن القول بأن هؤلاء العاملين في نطاق «الخدمة»، هم أسباب قدرية هيأها الله تعالى لإنجاح هذا المشروع. وهم -لذلك- جديرون بالكتابة عنهم وبالتعريف بهم وإن كانت الكتابة عنهم لا تتكافأ مع جهودهم[١٧].

٣- خاتمة وتعقيب

بعد هذه الجولة مع جانب من أفكار الأستاذين مالك بن نبي ومحمد فتح الله كولن حول دور العقيدة وأثرها في بناء الحضارة واستعادة النهضة للعالم الإسلامي، يمكن أن نقول كلمات عن علاقة هذه الأفكار بعضها ببعض، بعد أن نلاحظ ما يأتي:

أننا لا نقوم بمقارنة شاملة لأفكار الرجلين؛ لأن ذلك ليس هدفًا من أهداف البحث، ثم هو مما لا يتسع البحث له أيضًا.

أننا لا نقصد من وراء عرض هذه الأفكار، أن نستخرج مواطن التأثير والتأثر في العلاقة بين فكرهما، حتى مع إمكان وجود التشابه الذي يشي بالتأثر؛ وذلك لأن هذين المفكرَيْن المسلمَيْن مهمومان بقضية النهضة، وهما يحملان -مع غيرهما من المفكرين المسلمين- هَمًّا مشتركًا، وينتميان إلى غاية واحدة، وينطلقان من مصادر واحدة، ومرجعيتهما الفكرية واحدة، وهما يعالجان مشكلات لا تخلو من التشابه أيضًا.. ثم إنهما جنديان في كتيبة هذا الفكر الإسلامي الذي يبحث عن حلول؛ لنهضة هذه الأمة وإخراجها من عوامل التقهقر والتخلف التي أحاطت بها بتأثير الاستعمار والعلمانية واستيراد النموذج الغربي أو فرضه بالقوة الخارجية أو الداخلية.. ولذلك ليس ببعيد أن تتقارب الرُّؤى وأن تتشابه الحلول، وأن تظهر في آراء الأستاذ كولن أصداء من فكر مالك بن نبي، كما تظهر فيه أصداء من فكر غيره أيضًا.

ومع ذلك يبقى لكل مفكر طابعه وشخصيته ونمط تفكيره.. فمالك بن نبي يغلب عليه الطابع الفلسفي الذي يُعنَى بالتحليل للظواهر الاجتماعية بمفهومها الشامل للثقافة والحضارة، وهو منذ كتابه الأول «شروط النهضة» وما تلاه من كتبه عن الثقافة ومشكلة الأفكار ثم ما ظهر في كتابه «ميلاد مجتمع»، يقدم نظرية في فلسفة التاريخ يمكن وضعها إلى جانب النظريات المقدَّمة في هذا المجال، وهو يستخرج لبنات هذه النظرية من آراء بعض المفكرين، ومن النظر العميق في القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، ومن النظر في أحوال المجتمع الإسلامي عمومًا، والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص. وكان لهذا الطابع الفلسفي في التحليل والتركيب والمقارنة، أثر في صياغته لأفكاره وبنيتها النظرية.

لكن هذا لم يكن يعني الإهمال للجانب العملي الذي تنتقل به الأفكار إلى حلبة الواقع، وكثيرًا ما تحدث عن المنطق العملي، وعامل الفاعلية أو الفعالية. وقد لاحظ أن من أهم أسباب تخلف العالم الإسلامي هو غياب المنطق العملي. وانقدح هذا في ذهنه منذ شبابه الأول عندما ذهب إلى فرنسا، ونبّه على ذلك في عديد من المناسبات، ولكن يبقى -مع ذلك- أن الطابع النظري هو الغالب عليه. ثم إنه لم ينتمِ إلى حزب ولم يُنشئ جماعة تقوم بهذا الجهد في تحويل الأفكار إلى أعمال. وهذا ما يتضح بجلاء فيما يتعلق بالأستاذ فتح الله كولن، حيث رزقه الله هذه الجماعة المخلصة التي قامت

بهذا الدور العظيم كما ذكرنا منذ قليل. وليس معنى ذلك أن «كولن» لا يقدم نظرية في النهضة، بل إنه يفعل ذلك؛ لأن الفكر هو دليل العمل، وهو يمثل نقطة البدء فيه، ولا بد أن يتحقق له صفة العمق والتخطيط، ليكون ذلك من أسباب نجاحه عند التطبيق. ثم إن عناية «كولن» بالجانب الروحي في بناء الشخصية، كانت أكثر من عناية مالك بن نبي بها. ولعل «مالكًا» كان سيء النظرة إلى التصوف بسبب بعض الظروف المحلية في الجزائر، والتي تمثلت فيما كان يقع من تعاون بين بعض الطرق الصوفية في الجزائر والاستعمار الفرنسي، مما جعل أصحابها موضع الهجوم من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية والجهاد لتحرير الجزائر؛ كالشيخ عبد الحميد بن باديس وغيره.. أما التصوف في تركيا، فقد كان له دور عظيم في الحفاظ على الإسلام في مواجهة الهجوم العاتي عليه من جانب الدولة والسلطة العسكرية، ويتجلى هذا الجمع بين العقل والقلب في فكر مفكر كبير كبديع الزمان سعيد النورسي الذي يُجلّه «كولن» إجلالاً كبيرًا كما يظهر في فكر آخرين.

وهكذا، يمكن أن يتسع القول في وجوه التشابه والاختلاف بين المفكرَيْن، ولا بأس في ذلك ولا ضرر، بشرط أن تكون المقارنة هادئة موضوعية خالية من التحزب والعصبية، لأن هذا هو اللائق بهما وبأمثالهما من أعلام المفكرين المسلمين. ■

---

(١) انظر على سبيل التذكرة: الحضارة، د. حسين مؤنس، عالم المعرفة، ط:٢، ١٩٩٨م، الكويت. نظرية الثقافة، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة: د. علي الصاوي، عالم المعرفة، ١٩٩٧م، الكويت، ومقدمته بقلم د. الفاروق زكي يونس.

(٢) بين الرشاد والتيه، إصدار ندوة مالك بن نبي، طبع دار الفكر، ١٩٨٦م، سوريا، ص:٦٠. وانظر: تأملات، مالك بن نبي، ص:١٦٨ وما بعدها. وانظر: تفصيلات كثيرة عن هذه العناصر الثلاثة وكيفية إحيائها وتفعيلها، لتكون ذات فعالية وتأثير في بناء الحضارة: شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:٦٤-٦٥ وما بعدها، ثم ص:١١٣ وما بعدها.

(٣) انظر: ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، دار العروبة، ط:١، ١٩٦٢م، القاهرة، ٤٢/١. وهو يشير هنا إلى تجربة ألمانيا التي هزمت في الحرب العالمية الثانية هزيمة ساحقة، ولكنها سرعان ما أعادت بناء ما فقدته في الحرب، بفضل رصيدها من الأفكار.

(٤) انظر: مختصر دراسة التاريخ، توينبي، ترجمة: محمد فؤاد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط:٢، ١٩٩٦م، ٢٣٣/١. مع أرنولد توينبي، ترجمة: محمد عبد الله الشفقي، طبع الدار القومية، ١٩٦٤م، ص:٣٢-٣٣. وانظر مقدمة هذا البحث.

(٥) انظر: شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:٧٩-٨١. ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ٦٦/١، ٢٧. القضايا الكبرى، مالك بن نبي، ص:٦٠-٦١. وهكذا، فإن الفكرة الدينية تتدخل إما بطريقة مباشرة وإما بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها في التركيبة المتآلفة لحضارة ما.

(٦) انظر: شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:٨٧. وهو يعزز فكرته ويدعمها بآراء بعض فلاسفة الحضارة من أمثال هرمان دي كيسرلنج، وهنري بين. انظر: شروط النهضة، ص:٨٢-٨٤، ص:٩١-١٠٩.

(٧) يمكن الإشارة هنا إلى ماعز والغامدية، كما يشير هو إلى بعض ما فعله عمر بن الخطاب ﷺ. انظر: القضايا الكبرى، مالك بن نبي، ص:١١٣.

(٨) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:١٣٦-١٣٧. ويثير هذا القول الحاسم موقفا محددا من أولئك الذين يرون أن العالم الإسلامي يمكن له النهوض باستيراد النماذج الحضارية، وهذا عنده غير ممكن لأن بناء الحضارة يرتبط بالأصالة الحضارية ارتباطا وثيقا، ولأن الحضارة ينبغي أن تبني مقوماتها لا أن تستوردها، ثم إن التكديس للأشياء لا ينتج حضارة. وقد عالج هذه الفكرة معالجة مستفيضة في عديد من كتبه، وفي مقدمها «شروط النهضة» و «مشكلة الأفكار»، وفيما جمع من أبحاث في القضايا الكبرى، وفكرة الآسيوية والإفريقية، وفي كتابه «في مهب المعركة» الخ، وهذا كله يحتاج إلى معالجة واسعة

لا يتسع لها المقام.

(٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٣٦، ٣٧؛ وانظر: ص:٩٧. ويصل حسمه لهذا الموقف إلى أن الوقوع في أسر التغريب جريمة، وأن أصحابها مجرمون، وأنه لا بد من التجدد الذاتي، (انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٣٧-٣٨)، وأن هذه الأيديولوجيات الفاسدة ظلت غريبة عن أرواح المسلمين، وأنها لم تجد لها مكانًا في جسم الأمة إلا بمقدار الضعف الذي أصاب جهازها المناعي، (انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٨).

(١٠) انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٥-٥٦ وما بعدها؛ وانظر: ميزات أخرى، في المرجع نفسه ص:٧٧-٧٨ ومن أهمها: الاستناد إلى الوحي، والأفقُ العرفاني الذي ترتقي إليه النفس الإنسانية.

(١١) انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٧؛ وانظر: نصًّا مهمًّا ينقله عن الأستاذ المصلح المجدد بديع الزمان سعيد النورسي، ص:١١٠ من كتابه الكلمات.

(١٢) انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٠٢-١٠٣؛ ثم إنهم عملوا بعد ذلك على إحياء الآخرين أيضًا (ص:١٠٣-١٠٤).

(١٣) ونحن نبنى حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٤٧، وهو يتفق في هذا مع مالك بن نبي، كما سبق القول.

(١٤) انظر مثلا: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٦٣-٦٤. ثم انظر ما بعدها إلى ص:٧٩، وهو يشير إلى استحقاق جهود هؤلاء إلى دراسات أكاديمية على مستوى الماجستير والدكتوراه، انظر: ٦٣، ٦٥.

(١٥) ثم لا يقف نقده لهم عند هذا الحد، بل يصفهم بصفات أخرى؛ انظر: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٠-١٢١.

(١٦) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٢٠؛ وهو يتحدث عن الصفات الإيجابية لهؤلاء في ص:١٢١، ١٢٢.

(١٧) يمكن الإشارة والإشادة هنا ببعض الجهود العلمية التي قُدِّمت حول الخدمة، ومنها: فلسفة الخدمة لدى الأستاذ محمد فتح الله كولن، د. أركون جابان، نشر ضمن الكتاب الذي صدر عن مؤتمر: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي عام ٢٠٠٩م بجامعة الدول العربية، ونشرته دار النيل ٢٠١١م، ص:٢٥٧-٢٦٩؛ وبحث د. عمار جيدل، المنشور بالكتاب نفسه، ص:٤٤٨-٤٧٢؛ والكتاب القيم الذي قدمه د. محمد باباعمي بعنوان: فتح الله كولن ومشروع الخدمة، دار النيل، ٢٠١١م، وهو يركز على التأصيل النظري للأفكار وكيفية تحويلها من نطاق الفكر إلى نطاق الفعل، ص:٤ (من المقدمة).

المراجع

(١) سر تطور الأمم، تعريب: أحمد فتحي زغلول، المطبعة الرحمانية ١٩٢١م.

(٢) توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث، محمد فؤاد شبل، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، القاهرة.

(٣) شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر مسقاوي، د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط٢، ١٩٦٩م، سوريا.

(٤) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن بني، ترجمة: د. بسام بركة، د. أحمد شعبو، دار الفكر، ط:١، ١٩٨٨م، سوريا.

(٥) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ١٩٨٦م، سوريا.

(٦) تأملات، مالك بن نبي، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، ١٩٧٩م، سوريا.

(٧) القضايا الكبرى، مالك بن نبي، دار الفكر-دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠م، لبنان.

(٨) بين الرشاد والتيه، إصدار ندوة مالك بن نبي، طبع دار الفكر، ١٩٨٦م، سوريا.

(٩) ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، دار العروبة، ط:١، ١٩٦٢م، القاهرة.

(١٠) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠٦م، القاهرة.

(١١) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١١م، القاهرة.

(١٣) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، القاهرة.

(١٤) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، القاهرة.

(١٥) القلوب الضارعة، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م، القاهرة.

(١٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٦م.

مشروع الخدمة
حقيقة واقعية وليس نظرية خيالية

أديب إبراهيم الدباغ

ولد عام ١٩٣١م في الموصل بالعراق. حصل على دبلوم في التربية والتعليم ثم مارس التدريس ٢٩ سنة منذ عام ١٩٥٣م. كما مارس الكتابة في الصحف والمجلات العراقية والعربية منذ ١٩٥٠م. شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الدولية. كتب الكثير من الأبحاث. له أكثر من ١٤ كتابًا في الإسلاميات؛ منها «الاغتراب الروحي لدى المسلم المعاصر»، «الضاربون في الأرض»، «رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان»، «إشراقات قلب ولمعات فكر من فيوضات النورسي».

إن فكر الأستاذ فتح الله كولن، فيه خلاصة تجربة، هو تجربة مشروع حضاري عظيم.. مشروع «الخدمة» يقوم بعمل عظيم في كل مجتمع حل فيه. مجرد كلمة «الخدمة» هذه، دليل على أن القوم يريدون خدمة المجتمع، يريدون سعادة المجتمع الإنساني من خلال بعث الإيمان في قلبه، وإقامة الفضيلة في سلوكه.. الأستاذ فتح الله كولن هو عملاق الفكر الإيماني الانبعاثي والحضاري في هذا العصر. ولا أقول هذا مدحًا أو ثناء، وإنما إدراكًا للحقيقة وأداء للأمانة. هذا ما أؤمن به وأعتقده.. إن الأستاذ فتح الله كولن رجل روح بالدرجة الأولى؛ رجل روح يحمل مشروعًا حضاريًّا عظيمًا.. إنه استطاع أن يتفاهم مع القلب البشري بطروحاته التي يطرحها، فوجد هذا القلبُ غذاءه فيما ينتجه الأستاذ، فتجاوب معه تلقائيًا. هذا لب الحوار الذي أجراه الأستاذ «نوزاد صواش» مع الأديب الأريب الأستاذ «أديب الدباغ» والذي تتشرف «نسمات» بنشره للسادة القراء.

في ظل الأزمـات التي تعاني منها الأمة الإسلامية خصوصًا والإنسانية عمومًا في هذه الفترة العصيبة من الزمان، ازدادت محاولات البحث عن سبل للخروج من هذه الأزمات. السلبيات كثيرة، لكن لا تخلو الساحة من إيجابيات كذلك. مشروع الخدمة الذي سقته دموع الأستاذ فتح الله كولن وجهوده مع آلاف من الناشطين المتطوعين معه، يمثل اليوم إحدى تلك الإيجابيات المبشرة الباعثة للأمل في القلوب.

الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ مفكر فريد من نوعه، لا يزال يتوقد ذكاء وعاطفة رغم عمره المبارك الذي تجاوز الخامسة والثمانين. ولد في العراق وعاش فيها سنوات طويلة من المعاناة والحروب والتقلبات السياسية والاجتماعية التي ارتسمت على قسمات وجهه حزنًا وألمًا. الحرب العراقية الإيرانية أخذت منه أحد أبنائه، ذهب ولم يعد مرة أخرى، ولم يعرف عنه شيئًا حتى اليوم.

ذاق آلام الاستبداد السياسي وسقوط بغداد والويلات التي لاقاها البلد والشعب العراقي من بعد حتى يومنا هذا. لكنه وهو المفكر الأديب المرهف، عاش يسطر السنوات العجاف تلك بقلمه المبدع، يسطرها دمًا ودموعًا وآلامًا.. وآمالاً.. إلى أن عرف رسائل النور في الثمانينات من القرن الماضي، فكانت بلسم الأمل له، وسهر على قراءتها والكتابة عنها. ثم تعرف على فكر الأستاذ فتح الله كولن وغاص في أعماقه، ثم انتقل إلى تركيا ليطلع على تجليات هذا الفكر في ساحة الواقع، فرأى من المؤسسات ما يثلج الصدر ويبهج القلب. ثم قرر أن يعكف على هذا الفكر قراءة ودراسة وبحثًا وكتابة، وأن يستقر في درة المدن وملتقى الحضارات إسطنبول.

الأستاذ أديب الدباغ، ساهم في تحرير ترجمة كتب الأستاذ فتح الله كولن إلى العربية، وقدّم لبعضها، وألف مؤلفات حولها، وتحدّث عنها، وألقى محاضرات عديدة في محافل علمية كثيرة. أديب الدباغ قصة حياة حافلة بالتجارب.. حياته خلاصة حياة الأمة في العقود الثمانية الماضية. التقينا به في حوار ودّي حاولنا أن نستخلص من خلاله عصارة تجربته مع فكر الأستاذ فتح الله كولن ومشروع الخدمة، بما ينسجم مع خط مجلتنا الفتية «نسمات»، وإليكم ما دار بيننا من حديث.

> التجديد في الفكر الديني عند الأستاذ فتح الله، يتمحور حول الجمع بين الجانب العلمي والجانب الإيماني. الأستاذ بفكره العالمي الاستيعابي لمعطيات ومجريات الحضارة الحاضرة، وتوجهاته الفكرية والعلمية، استطاع أن يوجد أرضية للإنسان المؤمن، لكي يرتقي إلى هذا المستوى العالي من الإيمان، وإلى المستوى العالي من العلم.

(نوزاد صواش) س: حسب علمنا، بداية القصة كانت مع رسائل النور، وكان لكم إسهام كبير في تعريف العالم العربي برسائل النور. وفيما بعد عندما بدأت تصدر الطبعات العربية لكتب الأستاذ فتح الله كولن اشتغلتم في تحريرها والبحث فيها والكتابة عنها.. هل لكم أن تلخّصوا لنا مساركم مع هذين العلَمين؟

(أديب الدباغ) ج: اطلعت على كتب الأستاذ النورسي عن طريق الأستاذ إحسان قاسم. كان صديقًا لي، وكان مهتمًّا بترجمة رسائل النور. وكان كلما يترجم جزءًا من هذه الرسائل يطلعني عليه، فوجدت فيها عمقًا إيمانيًّا عظيمًا يحتاج إليه المسلمون في العصر الحاضر، هذا العصر الذي طغت فيه المادية بشكل فظيع، فكأن الفكر النورسي الإيماني يقف ضد هذا التيار المادي القوي المتدفق.

س: بعد رسائل النور تعرفتم على مدرسة الأستاذ فتح

فكر الأستاذ كولن يحتاج إلى شيء من الهدوء حتى يفهم. ينبغي ألا يقرأ ككتاب اعتيادي، لأن هذا الفكر فيه خلاصة تجربة، هو تجربة مشروع حضاري عظيم. مشروع الخدمة يقوم بعمل عظيم في كل مجتمع حل فيه. مجرد كلمة «الخدمة» هذه، دليل على أن القوم يريدون خدمة المجتمع الإنساني وسعادته من خلال بعث الإيمان في قلبه، وإقامة الفضيلة في سلوكه. الأستاذ كولن هو عملاق الفكر الإيماني الانبعاثي والحضاري في هذا العصر.

الله كولن، فما هي الصورة التي انطبعت في ذهنكم؟

ج: الحقيقة، تحدث مفكرون كثيرون عن الأستاذ فتح الله كولن، وأنا لا أدعي أنني سأضيف جديدًا على ما قالوا. ولكن أقول؛ أنا اطلعت على الأستاذ فتح الله كولن من خلال معالم هذه «الخدمة» المباركة التي كنت ألمس بعض جوانبها، سواء عن طريق الأفراد أو عن طريق المؤسسات.. فمن الأشياء التي عرفتها، أن الأستاذ فتح الله لم يكن قد التقى بالأستاذ النورسي، بل قرأ بعض رسائله وتأثر بها، وجعلها أساسًا في تفكيره فيما بعد. نستطيع أن نقول إن الأستاذ فتح الله اتخذ من فكر الأستاذ النورسي مستندًا لتطوير رؤيته الحضارية. كان فكر الأستاذ النورسي عبارة عن فكر تنظيري، لكن الأستاذ فتح الله استطاع أن ينزّله على أرض الممارسة والواقع والحياة، وهذه هي ميزة هذا الرجل العظيم؛ إنه استطاع أن ينزّل هذا الفكر التنظيري إلى الواقع، بحيث يعيشه الناس في حياتهم اليومية وفي معاملاتهم، ويمارسونه بشكل لا أقول جيد مائة بالمئة، فالكمال لله، ولكن على قدر ما يستطيعون.

س: جلّ المطلعين على مشروع الخدمة يؤكدون على النقطة التي تكرمتم بها، أي القدرة على تحويل الفكر إلى فعل حضاري. برأيكم هل تجاوز الأستاذ الأزمة القائمة في العالم الإسلامي، أي أزمة العجز عن تحويل الفكر إلى فعل؟

ج: نعم، هذا ما حصل. وهذا ما نشاهده في تلك المؤسسات التربوية التي نراها، وهي تقوم بعمل عظيم في خدمة الناس، وفي توعية الناس، وترقية الناس.. ولكن أنا في رأيي أن كل ما قاله الأستاذ فتح الله هو دون ما عنده من قول. صحيح هو قال كلامًا عظميًا، ولكن ما لم يستطع أن يقوله هو كلام أعظم مما قال؛ لأن اللغة أحيانًا لا تسعف المفكر على أن يقول كل ما عنده. فأنا في رأيي المتواضع أنه لا يجب أن نقف عند كتابات الأستاذ فتح الله، ولكن ينبغي أن ننطلق مع انطلاقاته الروحية والفكرية التي هي أعظم وأجلّ وأكبر مما نقرأه من كتابات. نستطيع أن نقول إن ما قاله الأستاذ، نزر يسير مما يحمله من أفكار ومشاريع، لأن حقيقة المعاني العظيمة والمعاني الكبيرة التي يختزنها في نفسه، لا تسعفه اللغة على أن يعبر عنها التعبير الذي يستسيغه الناس.

س: بالتأكيد تقولون ذلك بناء على تجربتكم الذاتية فيما تقرأون من مؤلفاته.

ج: نعم، أنا هكذا أشعر. أشعر أن الرجل أعظم مما كتب، وأن عنده ما يقوله، ولكن اللغة حائلة بينه وبين ما يريد أن يقوله من هذه المعاني العظيمة التي تجول في خاطره.

س: حسب علمي انطلاقتكم الأولى للتعرف على ممارسات الخدمة العملية لم تكن من تركيا؟ الخطوة الأولى كانت خارج تركيا، أين بالتحديد؟

ج: نعم، أنا عملت في جامعة داغستان، في مدينة اسمها دربنت. كان هناك جامعة تأسست بتشجيع

الأستاذ فتح الله، وكانت تؤدي خدمة كبيرة للطلبة الذين كانوا يرتادونها وخاصة من منطقة أذربيجان. كانوا يأتون إلى هذه الجامعة بكثرة، ورغم ما كانوا يجدونه من منغّصات، فقد كانوا متشوقين جدًّا للسماع إلى أفكار الأستاذ.

س: كيف كان شعورك وقد خرجت من العراق، وانطلقت إلى القوقاز ثم تركيا ورأيت ما رأيت، واطلعت على قوافل من المدرسين الذين يهاجرون من أجل رسالة، ومن أجل بناء الإنسان؟

ج: أقول أمانة، نحن نحيّي العمل العظيم الذي يقوم به الأستاذ ورفاقه فيما يخص العالم. لأنه يعتقد، لا بل يؤمن إيمانًا جازمًا، أن هذا الفكر الإسلامي الإنساني لا بد أن يكون له ركائز في كل أنحاء الدنيا. فالرجل فكره عالمي، وليس فكرًا محليًا ضيقًا. يريد أن يقدم روح الإسلام إلى هذا العالم المتعشق المتعطش للفكر الإيماني السليم المتوازن المتزن. وليس في داغستان فقط، وإنما في مختلف أنحاء العالم، حتى عندنا في العراق. في الموصل بالعراق كان هناك مدرسة فتحت بتشجيع الأستاذ. الأساتذة الذين يعملون فيها كانوا نماذج عظيمة تعكس الفكر الحضاري الاستيعابي الذي يجمع بين العلم والإيمان. فهذه المدارس ما أسست -في رأيي المتواضع- إلا كمحاولة للربط بين العقل الكوني والعقل الإنساني. هذه الرؤية هي التي ستفتح آفاق العلم التي يحتاجه المسلمون في العصر الحاضر.

س: ما هي كلمة السر بالتحديد؟

ج: هي المدارس؛ المدارس التي تجمع بين العلم والإيمان، بين العلم والأخلاق. هذه المدارس تقوم بهذه المهمة؛ مهمة الجمع بين العلم وبين الإيمان. وقد نجحت كثيرًا وخرّجت أجيالاً من الشباب ذوي روحية عالية، وفي نفس الوقت ذوي علمية عالية. العلمية العالية التي قد تضاهي كثيرًا مما نشاهده من الطلبة الأجانب في أمريكا وفي أوروبا وفي مختلف أنحاء العالم. التجديد في الفكر الديني عند الأستاذ فتح الله، يتمحور حول الجمع بين الجانب العلمي والجانب الإيماني. وهذا هو ما تحتاجه البشرية اليوم، وليس المسلمين فقط. الأستاذ بفكره العالمي الاستيعابي لمعطيات ومجريات الحضارة الحاضرة، وتوجهاته الفكرية والعلمية، استطاع أن يوجد أرضية للإنسان المؤمن، لكي يرتقي إلى هذا المستوى العالي من الإيمان، وإلى المستوى العالي من العلم.

> الأستاذ فتح الله كولن فكره عالمي وليس فكرًا محليًّا ضيقًا. يريد أن يقدم روح الإسلام إلى هذا العالم المتعشق المتعطش للفكر الإيماني السليم المتوازن المتزن، وليس في داغستان فقط، وإنما في مختلف أنحاء العالم.

س: ما الذي يجعل لكلام الأستاذ فتح الله كولن تأثيرًا في القلوب، فينطلق الناس ليحوّلوا كلماته إلى مشاريع عملية؟ ما سر التأثير عنده من خلال قراءتكم له؟

ج: أستطيع أن أقول إن الأستاذ فتح الله رجل روح بالدرجة الأولى، رجل روح يحمل مشروعًا حضاريًّا عظيمًا. فهو يمتلك قدرة فذة في فهم الوجدان البشري والقلب البشري، كما أنه يمارس شخصيًّا رياضة روحية عالية. وبالتالي استطاع أن يتفاهم مع القلب البشري بطروحاته التي يطرحها، فوجد هذا القلبُ غذاءه فيما ينتجه الأستاذ، فتجاوب معه تلقائيًا. وهو يرى أن القلب البشري -كما يؤكد الحديث الشريف- هو منبع كل السلوكيات الإنسانية. فإذا صلح القلب صلح الإنسان، وإذا صلح الإنسان، صلح العالم وصلحت البشرية.

الأستاذ فتح الله يرى أن الذات المسلمة تنطوي على كثير من الطاقات، ولكنها مطمورة تحت جوانية المظاهر. ولذلك في كل كتاباته يحاول أن يثير هذه الذاتية المختزنة في داخل المسلم، لكي تعود من جديد، ولكي تعطي وتبدع وتجدد وتبتكر.

فلذلك اختار أن يبدأ من القلب، يغذّيه بالأشواق إلى بارئه إلى خالقه.

س: يبدو أن العصر الحديث عبّأ عقل الإنسان بالمعلومة لكن نسي قلبه.

ج: نعم، كثر علمُه، ولكن قلّت حكمتُه. سمة هذا العصر أن العلوم كثيرة، ولكن الحكمة قليلة. الاتصال بالسماء ضعيف، ولا تجد ذلك -مع الأسف الشديد- إلا عند القلة القليلة من البشر، وهذه هي مشكلة البشرية في الوقت الحاضر. فالأستاذ فتح الله كولن وضع يده على نبض العالم، وعرف ما يعانيه من أزمات فكرية وروحية ونفسية، فحاول أن يقدم له الحلول التي تناسبه.

س: لا شك أن الأستاذ ليس منبتًّا عن رواد الإصلاح الذين عرفناهم في نهاية القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين، هو امتداد لهم، أليس كذلك؟ فالعالم الإسلامي عرف مالك بن نبي، عبد الحميد بن باديس، الطاهر بن عاشور، محمد عبده، محمد إقبال، المودودي، النورسي وأمثالهم من الأعلام.

ج: نعم، هؤلاء كانوا رواد النهضة الإسلامية الحديثة. كان المسلمون في ذلك الوقت يشعرون بالدّونية، ويشعرون بالتخلف، ويحسبون سبب ذلك التخلف هو عدم إدراكهم للقضايا العلمية الحديثة. هكذا كانوا يظنون في بادئ الأمر، لذلك حاول هؤلاء الرواد أن يقولوا للمسلمين أن ما يشاهدونه من عظمة الحضارة الغربية وما فيها من علوم وتكنولوجيا، إنما أسسها موجودة في صلب الإسلام وفي صلب القرآن. فينبغي أيها المسلون أن لا تتركوا دينكم وتستبدلوا به العلوم الحديثة، فلا تناقض بين العلم والإسلام.

س: إذن نبهوا المسلمين إلى حقيقة في غاية الأهمية.

ج: بالتأكيد، قاموا بعملية إيقاظ، بعملية انبعاث للقوة الجوانية الكامنة داخل المسلم والتي كادت أن تنطمر ويفقدها المسلم إلى الأبد. الأستاذ فتح الله يرى أن الذات المسلمة تنطوي على كثير من الطاقات، ولكنها مطمورة تحت جوانية المظاهر. ولذلك في كل كتاباته يحاول أن يثير هذه الذاتية المختزنة في داخل المسلم، لكي تعود من جديد، ولكي تعطي وتبدع وتجدد وتبتكر.

س: أذكر في سنة ١٩٩٢ فاز طالب في نهاية الإعدادي بمدرسة «ياماڤلَر» في مدينة إزمير الواقعة في غربي تركيا بميدالية ذهبية في أولمبياد الفيزياء العالمية، وكان ذلك يحدث لأول مرة في تاريخ تركيا. فأوصى الأستاذ باستقبال ذلك الطالب في المطار بسجادات حمراء، لأنه أعاد الثقة إلى نفوسنا من جديد بأننا نحن المسلمين نستطيع أن نحقق شيئًا في مجال العلوم، ويمكننا أن ننجز شيئًا في هذا المجال كذلك على مستوى العالم.

ج: وهذا يعني أننا منسحقون أمام الحضارة الغربية ونعتقد أنه يستحيل أن نصل إلى ما وصلوا إليه، بينما الحقيقة أنه إذا وُجد من يستخرج الكنوز الكامنة في داخل الإنسان المسلم، يستطيع أن يفعل أكثر مما يفعله الآخرون. وأنا أعلم أن تلك النجاحات، تواصلت بعد ذلك وانتقلت إلى مـدارس أخـرى، والآن هذه المدارس وأخواتها من المدارس المماثلة تسابق العالم كله في كل هذه المسابقات. نحن نحتاج إلى مئات من هذه المدارس وهؤلاء الطلاب، بل الآلاف.

س: اليوم هناك اتجاهات فكرية تنهل -على حد تعبيرها- من منابع الإسلام، ولكن للأسف الشديد يتمخض عنها صورة مشوهة عن الإسلام. يتمخض عنها تدمير وتخريب وعنف، وتتلوث صورة الإسلام على مستوى العالم. أين يكمن الخلل؟

ج: المشكلة عندنا أن الطاقات المعطلة عند الشباب، والشعور بالسأم، والضجر، والإحباط، يجعل هؤلاء الشباب يندفعون إلى اعتناق التطرف في كل شيء. يأخذون الجانب العنفي التطرفي تعبيرًا عما في نفوسهم من سأم وضيق. يعني شاب قواه الذاتية معطلة، قواه الفكرية تكاد تكون متلاشية، فهو إما أن ينتحر، وإما أن ينصرف إلى الأعمال العنفية التي نشاهدها في الوقت الحاضر.

س: الأستاذ فتح الله كولن يتعامل كذلك مع الشباب، ويستلهم الكتاب والسنة في توجيهاته، لكن رؤيته لا تولّد عنفًا كما نرى. نحن لم نر أحدًا ممن تربوا في مدرسة الأستاذ انحرف إلى العنف. فما سر ذلك؟ كيف استطاع أن يستوعب الطاقة الشبابية برأيكم؟

ج: أنا أرى أن الأستاذ يبعث فيهم الرجاء، يبعث فيهم الأمل. هناك فرق كبير بين خطاب الأستاذ وخطاب اتجاهات العنف. فالأستاذ على الرغم من أحزانه الشديدة على هذه الأمة، وعلى انتكاساتها طوال القرون الأخيرة، رغم ذلك فهو متفائل، ورغم ذلك فهو يبعث التفاؤل في نفوس الشباب. هذا التفاءل هو الذي يجعل الشباب يندفعون نحو العمل البنّاء. العمل المنتج هو الذي يمتص الأزمات الموجودة عند الشاب. أما إذا لم يجدوا من يحاول أن يوقظ قواهم الداخلية -كما يفعل الأستاذ- فإنهم حتمًا سيجدون متنفسًا لهم في أمثال هذه الحركات الهدامة العنفية التي ترى في القتل والسحق متنفسًا لهؤلاء الشباب، مع الأسف الشديد.

س: هل يمكن أن نقول بأن توجيه طاقة الشباب إلى العمل البناء هو كلمة السر؟

> كلمة السر في الخدمة هي المدارس؛ المدارس التي تجمع بين العلم والإيمان، بين العلم والأخلاق. هذه المدارس تقوم بهذه المهمة؛ مهمة الجمع بين العلم وبين الإيمان. وقد نجحت كثيرًا وخرّجت أجيالاً من الشباب ذوي روحية عالية، وفي نفس الوقت ذوي علمية عالية. العلمية العالية التي قد تضاهي كثيرًا مما نشاهده من الطلبة الأجانب في أمريكا وفي أوروبا وفي مختلف أنحاء العالم.

ج: أجل، توجيه الطاقات إلى العمل وإفراغ شحنتها في العمل والبناء والإنتاج ونفع الناس. العمل هو إكسير الحياة. إذا استطعت أن توجه شابًّا إلى أن يقوم بمهمة من المهمات أو عمل من الأعمال، فقد أبعدته عن منطقة الخطر، وهذا ما تفعله مدارس الخدمة اليوم. لذلك عندما تتابع التلاميذ الذين يدرسون في هذه المدارس، تقرأ في وجوههم البهجة والسعادة والاستبشار بالمستقبل، وهذا الشعور قلما تجده في مدارس أخرى. سمعت كثيرًا عن حالات انتحار تقع بين تلاميذ بعض المدارس الحكومية، يعني هذا منتهى اليأس، منتهى القنوط، لم يعد يجد في هذه الدنيا بارقة أمل، فلذلك يلجأ إما إلى أن يقاتل الآخرين ويقتلهم أو يقتل نفسه وهكذا.

س: إذا سمحتم أريد أن أكون مباشرًا في سؤالي، عندما نتحدث عن الأستاذ فتح الله كولن، هو تركي، فهل هذا يسبب مشكلة نفسية بالنسبة للعربي؟ يعني هل يقول العربي، وهل ينقصنا نحن العرب علماء؟ القرآن بِلُغتنا،

أفق الأستاذ فتح الله كولن ليس محصورًا في حدود تركيا والأتراك، بدليل أن كثيرين من غير الأتراك يشيدون بهذا المنهج ويعجبون به وينخرطون فيه ويسلكون فيه. فهذا دليل على أن القضية ليست قضية أقطار أو مدن، القضيةُ عالمية. الأستاذ صاحب فكر عالمي، وهذا الفكر العالمي منطلقاته من القرآن الكريم.

السنّة بِلُغتنا، الدين بِلُغتنا.. فما عسى أن يضيف هذا التركي إلى علمنا ورؤانا؟ سيادتكم متفاعلون مع كتب الأستاذ فتح الله كولن وفكره وممارساته، فما الجديد عنده برأيكم؟

ج: الحقيقة أن القرآن كتاب المسلمين جميعًا، وليس كتابًا للعرب حصريًّا لكونه نزل باللغة العربية. القرآن الكريم نزل للأرض كلها، نزل للعالم كله، ولم ينزل للعرب فقط. كنوز القرآن وخفايا القرآن وعظمة القرآن، مشاعة لكل من له فكر، ولكل من يتعمق في فهم القرآن وفي دراسة القرآن. جلّ الحركات الإسلامية الموجودة في العالم العربي، تختصر على جانب محدود من العمل وتنكفئ عليه، ولا تحاول أن يكون عندها نوع من السعة، بحيث تقدر على استيعاب التوجهات العالمية والفكرية في العالم، أي تقتصر على خط معين. من خلال متابعتي وقراءتي أرى أن الأستاذ يمتلك نظرة عالمية، نظرته ليست ضيقة في حدود المنطقة أو في حدود البلد أو في حدود القُطر.

س: إذن الرؤية التي يطرحها ليست تركية أو خاصة بتركيا؟

ج: بالتأكيد، أفقه ليس محصورًا في حدود تركيا والأتراك، بدليل أن كثيرين من غير الأتراك يشيدون بهذا المنهج ويعجبون به وينخرطون فيه ويسلكون فيه. فهذا دليل على أن القضية ليست قضية إقليميات، وليست قضية أقطار أو مدن، القضيةُ عالمية. الرجل صاحب فكر عالمي، وهذا الفكر العالمي منطلقاته من القرآن الكريم.

س: بما أننا وصلنا إلى القرآن الكريم، كلنا نقرأ القرآن، ولكن لم يخرج أحد منا بمثل ما خرج به الأستاذ فتح الله كولن. من خلال متابعتكم، كيف يتعامل الأستاذ مع القرآن، كيف يقرأ القرآن، ما موقع القرآن في حياته؟

ج: القرآن هو وجدان فتح الله العميق في نفسه. عندما تقرأ في كتابه «أضواء قرآنية في سماء الوجدان» تجد فيه لمحات عجيبة عن فهمه وإدراكه للمعاني القرآنية. فالأستاذ من المتعمقين في القرآن الكريم، وفي فهم القرآن الكريم، وفي إدراك المعاني العظيمة التي تختفي وراء الآيات والسور ومجموع القرآن. هو متأثر بروح القرآن بشكل منقطع النظير. فلذلك سلوكه -إذا نظرت- سلوك قرآني، وفكره فكر قرآني. ثم هو يقول إن الرسول ﷺ الوجه الثاني من القرآن الكريم. فهو يعشق الرسول ﷺ، يعشقه عشقًا حقيقيًّا. وعندما تقرأ كتابه في السيرة النبوية «النور الخالد» تقرأ كتابة عاشق لمعشوق، هو يُقبِل على السيرة النبوية بوجدانه، بروحه، بقلبه، وبفكره أيضًا.

س: هل ضيّعنا حقيقة القرآن بضحالة التوجه إليه يا ترى؟

ج: نعم، المشكلة أننا سطحيون. والسطحية سلاح قاتل بالنسبة للفكر والعقيدة وكل الأمور الأخرى. ما لم يكن هناك فكر معمّق قادر على استيعاب روحية الشيء، فسنبقى مقصرين دائمًا. ذكر لنا أحد طلاب العلم ممن حضروا مجلس الأستاذ يومًا، أن الأستاذ طلب منهم أن يقرأوا سورة الفتح، فأخذ البعض يقرأها من المصحف

والبعض الآخر يقرأها من حفظه. وبينما نحن كذلك إذا بالأستاذ يتدخل قائلاً: «أيها الإخوة تنبهوا جيدًا، فأنتم لا تقرأون شيئًا عاديًّا، أنتم تقرأون قرآنًا. كل آية، كل كلمة، كل حرف من القرآن حية تنبض، ذات كيان حي، ذات روح متحرك، فاقرأوها بهذا الوعي، حاولوا أن تحسوا بحيويتها. عندما تقرأون بيعة الصحابة الكرام للرسول الأعظم تحت الشجرة، انطلقوا بخيالكم وتصوروا ذلك المشهد، تصورا أنكم هناك اللحظة، تضعون يدكم في يد الحبيب المصطفى تبايعونه، فتتنزل الآيات حية طرية وتتلى عليكم في المجلس النبوي. اقرأوا القرآن بهذه الروح، وإلا تقتلونه».

الأستاذ فتح الله يتخذ من القرآن نافذة للأزليات، والأبديات، والسرمديات، وسر الزمن، وسر الخلود. كل هذا يختزنه في نفسه، وكل كتاباته تنطلق من هذه المنطلقات الموجودة في القرآن الكريم، كل كتاباته تنطلق من هذا الفهم الاستيعابي لمجمل القرآن الكريم. فقضية الأزل والأبد وسر الزمن وسر البقاء وسر الخلود، هذه الأمور التي تحدث عنها القرآن، هي التي أوحت للأستاذ بكل ما كتبه أو يكتبه.

س: كيف يتعامل مع السيرة النبوية؟

ج: عندما تقرأ كتاب «النور الخالد»، تجد أن الأستاذ لا يسرد أحداث السيرة النبوية ووقائعها سردًا تاريخيًّا، وإنما يتوقف كثيرًا عند بعض الأحداث بالتحليل والتركيز، وإدراك المرامي البعيدة الكامنة وراء هذه الأحداث، ويتعامل معها كما يتعامل العاشق مع سيرة معشوقته. هكذا، فهو يقرأ سيرة المصطفى ﷺ بكل كيانه وأعصابه ووجدانه وروحه، ولا يقرأها بشكل سطحي.

س: كأنه يبحث في السيرة النبوية عن شيء مفقود والأمة في مسيس الحاجة إليه. ما ثمرة مثل هذه القراءة؟

ج: السيرة أولاً تربية روحية. أولاً تربية، ثم هي اعتبار، وهي للاستذكار، ثم هي تاريخ في نفس الوقت. كل هذه الأمور مجتمعة في السيرة، وكلها توحي للمسلم في العصر الحديث كيفية السلوك في حياته اليومية وفي حياته الفكرية والثقافية والعلمية. كلها تكاد تكون خاصة في التعليقات الذي كان يعلق فيها الأستاذ فتح الله كولن على الأحداث والوقائع الموجودة في السيرة المطهرة.

س: عند الأستاذ إشارات مكررة وملحة إلى الصحب الكرام ﷺ كمثل أعلى، أليس كذلك؟

ج: بلى، فهو يضع أمام تلاميذه أفق الصحابة ليكونوا مثلهم، وهكذا إذا لم يتمكنوا من التحقق بمعنى كلمة الصحابة وما تعنيه، فلا أقل من أن يكونوا صدى، أن يكونوا أصداء للصحابة الكرام، أو أن يكونوا لهم مرايا. يعني ينظرون إلى الصحابة الكرام ويتأسون بهم، يتأسون بأعمالهم، يتأسون باندفاعاتهم، يتأسون بإيمانهم، يتأسون بخوفهم من الله ﷻ، بإقدامهم، بشجاعتهم، بفروسيتهم، بكل ما كان يحمل الصحابةُ الكرام من قيم سامية. وعندي لفتة طريفة تؤكد حب الأستاذ فتح الله للصحابة الكرام، وهو أنه كان يؤتى له بوليد جديد ليسميه، فكان يسميه باسم أحد الصحابة، معاذ، أنس، سعد، أسعد، مصعب، طلحة وهكذا.. وذلك في وقت غابت فيه أسماء الصحابة من المجتمع التركي تمامًا. وهذا تذكير بأسماء هؤلاء العظماء الذين بنوا هذه الحضارة العظيمة ليكونوا مثلاً أعلى للجيل الصاعد في بناء حضارة جديدة تكون روح الصحابة لبّها وخميرتها.

س: كثيرًا ما رأى الناس الأستاذ يبكي أثناء ذكر الصحب الكرام.

ج: صحيح، في هذا السياق ذكر لي ذات مرة أحد تلامذته النجباء شيئًا عجيبًا؛ قال «ذات يوم بعد أن

كتاب «النور الخالد»، لا يسرد أحداث السيرة النبوية ووقائعها سردًا تاريخيًّا، وإنما يتوقف كثيرًا عند بعض الأحداث بالتحليل والتركيز، وإدراك المرامي البعيدة الكامنة وراء هذه الأحداث، ويتعامل معها تعامل العاشق مع سيرة معشوقته. فالأستاذ يقرأ سيرة المصطفى ﷺ بكل كيانه وأعصابه ووجدانه وروحه، ولا يقرأها بشكل سطحي.

انتهى درس الأستاذ مع طلبة العلم الذين يلازمونه، حملت كتب الأستاذ وذهبت بها إلى غرفته، وضعتها على مكتبه وهممت بالخروج، فإذا به يدخل الحجرة، فتنحيت جانبًا ونظرت إليه، فإذا بنظرات عميقة حزينة منه تخترق قلبي، بقينا هكذا برهة لا يقول شيئًا، وأنا متسمّر مكاني بلا حراك أنتظر منه كلمة أو إشارة. يقول فترقرقت عينا الأستاذ بالدموع، ومد يده إلى المكتبة وأخرج منها كتاب حياة الصحابة ثم قال: يا جمال! أريد أن أقول لك ولإخوانك «كونوا مثل هؤلاء أو موتوا». كلام مؤثر جدًّا؛ «كونوا مثل الصحابة أو موتوا»، لماذا؟ لأن الأستاذ يرى أن الحِمل جِدُّ ثقيل، ولا يمكن أن تحمله أكتاف هزيلة، بل يحتاج إلى سواعد قوية مثل سواعد الصحابة، لذلك عليكم أن تكونوا بقوة الصحابة في أفقهم الرؤيوي وربانيتهم.

س: فضيلتكم اشتغلتم على بعض كتب الأستاذ وقدمتم لها. كتاب «ألوان وظلال في مرايا الوجدان» ما خلاصة رسالته بعد دراسة مستفيضة له؟

ج: في «ألوان وظلال» يرى الأستاذ في كل شيء لمحة من لمحات الجمال الإلهي، لمحة من لمحات القدرة الإلهية، لمحة من لمحات التثوير الإلهي في كل شيء. لا يوجد عند الأستاذ شيء لا يثير الاهتمام. مهما كان هذا الشيء مألوفًا، فكل شيء عنده معجِز، كل شيء عنده إعجازي. قد نرى الأشياء كثيرة، نراها ونعتقد أننا نعرفها، ولكن في الحقيقة قد نموت ونحن لم نعرف عنها شيئًا إلا الظاهر، الظاهر منها. فـ «ألوان وظلال» محاولة لتسليط الضوء على الأشياء التي تحيط بنا في هذا العالم، والنظر إليها بعين الحكمة. فهو يرى تجليات إلهية في كل شيء صغيرًا كان أو كبيرًا، مألوفًا أو غير مألوف. كل شيء فيه إعجاز، إعجاز خَلقي. هذا هو روح هذا الكتاب.

س: طيّب، كتاب «طرق الإرشاد في الفكر والحياة» وسيادتكم قدمتم له؟

ج: نعم، «طرق الإرشاد» من الكتب القيمة جدًّا عند الأستاذ. المرشد الحقيقي كيف يجب أن يكون؟ ما هي صفات المرشد في هذا الزمان؟ ما هي القدرات التي ينبغي أن يتمتع بها لكي يكون داعية عن حق؟ من أهم الأمور أنه عليه أن يفهم اللغة التي يخاطب بها الناس، أن يخاطبهم باللغة التي يفهمونها، بالمعاني التي يدركونها. أما أن يتحدث إليهم بلغة ليست مما عرفوها، فقد لا يؤثر فيهم. كما أن الداعية ينبغي أن يكون ممن يمتلك من القدرات الروحية والفكرية التي تؤثر بالآخرين إيجابًا، يعني هي ليست قضية فقط أن تقرأ له آية أو تقرأ له حديثًا وكفى، لا، إنما ينبغي عندما تقرأ له الآية أن ترسخ في ذهنه، في قلبه. وكذلك الحديث النبوي، وكذلك كل كلام، كل كلام يقوله المرشد، ينبغي أن يكون خارجًا من أعماق قلبه، خارجًا من أعماق فؤاده، وإلا لا يؤثر. الإخلاص، الإخلاص، هذا هو رأي الأستاذ.

س: «ونحن نقيم صرح الروح»، «ونحن نبني حضارتنا»، ما جوهر هذين الكتابين؟

ج: هذان الكتابان من الكتب العظيمة، «ونحن نقيم صرح الـروح»، «ونحن نبني حضارتنا». نستطيع أن نستشف منهما فسلفة الأستاذ فتح الله كولن في الانبعاث الحضاري الذي يريده أن يقوم على أسس الإيمان. هذه هي الخلاصة. الانبعاث الحضاري كيف يجب أن يكون وما هي أسسه؟ وما هي معطياته؟ وكيف ينبغي أن نبنيه من جديد؟ القضية هنا ليست عملية ترقية، وليست عملية تهذيب، إنما عملية تجديد، تجديد بالفكر. وهذا عمل نادر ما تجد من يستطيع أن يقوم به، ولكن الأستاذ فتح الله بما عنده من همة ومن أمل ومن رجاء ومن تصميم وعزيمة، وبما يجد من نجاحات، -وهذا شيء هام- في المؤسسات التي حث على إقامتها، وفي الأفراد الذين تتلمذوا عليه، هذا كله يبعث فيه الأمل بأن إقامة الحضارة التي ننشدها ممكنة إذا توفرت لها الآلية الصحيحة.

س: كتاب «الموازين» يتضمن أفكارًا مركزة، كيف تصفونه؟

ج: كتاب «الموازين» روعة من الروائع، ولا يقل عن كتاب ابن عطاء الله السكندري، لا يقل أبدًا، بل أعظم منه بالنسبة لهذا العصر.

س: هل أدبيات الأستاذ فتح الله كولن صعبة الفهم؟

ج: تجربتي المتواضعة، أن الإنسان إذا لم يكن عنده خزين معرفي سابق، قد يصعب عليه إدراك المرامي البعيدة التي يريدها الأستاذ فتح الله كولن. أعود وأكرر وأقول إن انطلاقات الأستاذ الفكرية والروحية، هي أكبر وأعظم من انطلاقاته الكتابية. فيجب أن نلاحق طموحاته الروحية حتى نفهم كتاباته القلمية، هكذا أرى.

س: العالم العربي عالم كبير واسع، له مشاكله، وله رؤاه، وله قراءاته، له أنماطه في النقد والتحليل. عندما تنظرون من العالم العربي إلى مدرسة الأستاذ ومشروعه الحضاري، ما توقعاتكم؟

ج: العالم العربي الآن مشغول بمشاكله، بقضاياه. هل يستطيع أن يقيّم فكرًا مثل فكر الأستاذ، لست أدري. العالم العربي يحتاج إلى شيء من الهدوء، وإلى شيء من الاستقرار، وأن يراجع نفسه، خاصة الاتجاهات الإسلامية، عليها أن تتوقف قليلاً، وأن تراجع نفسها وتراجع فكرها، وتراجع ما قدمته وما لم تستطع أن تقدمه، بعد ذلك يمكنها أن تتفاعل مع تجربة الأستاذ، لكن في هذا الفوران الهائل الذي نجده -لا أدري- قد يكون الأمر مختلفًا. فكر الأستاذ يحتاج إلى شيء من الهدوء حتى يفهم. ينبغي ألا يقرأ ككتاب اعتيادي، لأن هذا الفكر فيه خلاصة تجربة، هو تجربة مشروع حضاري عظيم. مشروع الخدمة يقوم بعمل عظيم في كل مجتمع حل فيه. مجرد كلمة «الخدمة» هذه، دليل على أن القوم يريدون خدمة المجتمع، يريدون سعادة المجتمع الإنساني من خلال بعث الإيمان في قلبه، وإقامة الفضيلة في سلوكه. الأستاذ فتح الله كولن هو عملاق الفكر الإيماني الانبعاثي والحضاري في هذا العصر. ولا أقول هذا مدحًا أو ثناء، وإنما إدراكًا للحقيقة وأداء للأمانة. هذا ما أؤمن به وأعتقده.

نوزاد صواش

أشكركم على هذه اللفتات الفكرية العميقة.

أديب الدباغ

بل أنا أشكركم لأنكم أتحتم لي فرصة للحديث عن مدرسة فكرية عظيمة. ■

السيـــرة النبـــويـــة
من خلال التمثلات والصور الإدراكية
مقاربة معرفية حضارية في تحويل المعرفة إلى سلوك

محمد باباعمي

ولد عام ١٩٦٧م في يزجن بالجزائر. حصل على الماجستير في العقيدة والفكر الإسلامي من جامعة الخربة. ثم حصل على الدكتوراه في العقيدة ومقارنة الأديان من جامعة الأمير عبد القادر بالقسنطينة. يعمل حاليًا مديرًا لمعهد المناهج للدراسات العليا بالجزائر العاصمة. له العديد من الكتب والمؤلفات العلمية والفكرية منها «من بنات الأسفار»، «مطارحة معرفية»، «البراديم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة»..

هذه الدراسة تدافع عن أطروحة تضع «الصور الإدراكية والتمثلات» ضمن مسار معرفي حضاري؛ يعالج تحويل المعرفة إلى فعل من خلال «نموذج الرشد»، مشغِّلاً في فكر الأستاذ فتح الله كولن، ومفعِّلاً في مشروع «الخدمة»، وتؤكد على أن اتباع هذا المسار المعرفي الحضاري، هو ما يميز فكر الأستاذ فتح الله كولن في تحوله السلس إلى واقع الخدمة.. كما تشير أيضًا إلى مراحل هذا المسار المعرفي الحضاري بأنها تبدأ بـ «نقطة الكمون» (الوعي، الحرية، الإرادة، الطاقة، الزمن)، ثم حين انفجارها يتولَّد «سؤال الأزمة»، ثم تضبط «الرؤية الكونية» (العلاقات الثلاث: بالله، بالإنسان، بالكون)، ثم تصاغ «قواعد كلية»، ثم يتشكل «صورًا ذهنية وتمثلات»، وينتهي إلى «مخطط الفعل» (نظام الفعل)، ومنه إلى «الفعل الحضاري» المؤسَّس.

عند سرد «المشهد التاريخي» للسيرة النبوية، كيف نفعِّله حتى لا يتكدَّس في العقل محفوظًا لمجرَّد الاستذكار، أو يراكَم لغرض «إدراك» المعنى اللفظي واللغوي، ولمقصد الخطابة والاستعراض ببرودة لا تستتبع «عملاً»؟ أو بالأحرى، ما الذي ينفخ الروح في «الحدث» المروي عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وعن الصحابة وعصر السعادة، وما الذي يجعله محرِّكًا «للفعل الحضاري»، ودافعًا «للدينامية الثقافية والفكرية والعمرانية»؟

الفهم، الوعي، الإدراك، المعرفة، الفقه، العلم، الإيمان.. كلها مصطلحات ومفاهيم تجيب عن الإشكال؛ لكنها لو تركت في عموميتها ولم تضبط معرفيًّا ومنهجيًّا وواقعيًّا، فإنها ستكون «مقنعة غير مؤثرة».

التمثُّلات، الصور الذهنية، ضرب المثل؛ هي إجابات من مستوى آخر أكثر تقييدًا، ولكنها كذلك قد تبقى معزولة عن «الفعالية» لو عولجت قاموسيًّا، أو تاريخيًّا، أو لفظيًّا؛ دون التمكن من إيجاد «نقطة العطالة» التي من خلالها يتحرك كلُّ شيء.

للإجابة عن هذه الأسئلة، تدافع الدراسة المقدَّمة عن أطروحة تضع «الصور الإدراكية والتمثلات» ضمن مسار معرفي حضاري، يعالج تحويل المعرفة إلى فعل من خلال «نموذج الرشد»، مشغَّلاً في فكر الأستاذ «فتح الله كولن»، ومفعَّلاً في مشروع «الخدمة»؛ ولعل من المناسب عرضَ صورة قمرية تُبين عن المسار جميعه، ثم تخصيصَ «الصور والتمثلات» بالتحليل.

مراحل تحويل الفكر إلى فعل

هذه الأطروحة التي ندافع عنها مفادها أن اتباع هذا المسار المعرفي الحضاري، هو الذي يميز فكر الأستاذ فتح الله كولن في تحوله السلس إلى واقع الخدمة؛ ومراحله كالآتي:

> إذا أردتم الانتماء إلى أحدهم فانظروا أولاً إلى حياته اليومية، فإن كانت تتسم بالتواضع والاستغناء ولا تكذب أعمالُه أقوالَه، فاتبِعوه وانتموا إليه. وأعتقد أن هذا أمر فطريّ، إذ ليس من الصواب الانتماء والاتباع دون الإمرار على المحك؛ فالتاريخ أظهر كثيرًا من أمثال هؤلاء. ولهذا يجب اتباع من كانت أحواله وأطواره محمدية،

١- يبدأ «بنقطة الكمون[١]» (الوعي، الحرية، الإرادة، الطاقة، الزمن ...إلخ).

٢- ثم حين انفجارها يتولَّد «سؤال الأزمة»[٢].

٣- ثم تُضبَط «الرؤيةُ الكونية» (العلاقات الثلاث: بالله، بالإنسان، بالكون).

٤- ثم تصاغ «قواعد كلية»[٣].

٥- ثم يتشكل «صورًا ذهنية وتمثلات».

٦- وينتهي إلى «مخطط الفعل» (نظام الفعل).

٧- منه إلى «الفعل الحضاري» المؤسَّس.

وما من شك، أن أيّ اختبار لهذا المسار في دائرة تعاني من انفصام بين الفكر والفعل، سيكون مختلاً ولا يؤدي إلى نتيجة. ولذلك كانت «الخدمة» هي الشريحة الحية التي تسمح بهذا الاختبار الذي شرع فيه ضمن «نموذج الرشد»، وعبر عدد من البحوث الموجَّهة، وهذه الدراسة عيِّنة من هذا الاختبار، تحاول معالجة مرحلة من المراحل، وهي «الصور الإدراكية والتمثلات»، في السيرة النبوية. وسنحاول بيان كيف أنها تشكِّل قناعة المتلقي، وتفعِّل فكره، فتُنضج مواقفه وحركيته.

تُدافع الأطروحة ضرورةً عن كون الأستاذ فتح الله كان واعيًا مستوعبًا لهذا الانتقال من مرحلة إلى أخرى، بل كان متجاوزًا للطرح التقليدي في هذا الشأن، ولا أدلَّ

ينبغي على المؤمن أن يتحرك دائمًا بالقيم التي يؤمن بها، وأن يحفِل بها ويقرأ ويفكر دائمًا، وعليه أن ينهل ويتغذى من المصادر الأساسية باستمرار دون أن يسمح لأي فراغ أن يحدث في حياته. كما ينبغي عليه أن يعطي إرادته حقها فينأى مبتعدًا عن المشاعر والأفكار التي لا تسمح بها آلية الوجدان.

على ذلك من مقالاته ومواعظه، ومن تمثّل ذلك وتشكله في قلوب وعقول الملايين من الناس، ممن انتشر عبر العالم بإيمان وطاقة نادرة المثال؛ ولقد التقينا بالكثير منهم في مجالات شتى وبمستويات مختلفة، فكانت «التمثلات والصور الإدراكية» شاخصة في فكرهم، راشحة من بين ثنايا كلامهم، واضحة المعالم في أفعالهم.

وما يُطرَح في هذه الدراسة، هو مجرد مقدمة في هذا الفتح المنهجي، يستتبع بحوثًا متخصِّصة من جملة من المداخل والتخصُّصات والمستويات، سائلين الله تعالى أن يفتح بها، وييسر أمرها.

ولا بد من التنبيه إلى أن هذه المراحل لا تتشكل على صيغة رسم خطي تراتبي، لكنه رسم «متشابك حلزوني». فمن المتعذر أن نرسم المراحل -هكذا- بصيغة مجرَّدة، ولقد أوجد الأستاذ حلاًّ لهذا الشكل، باعتماده مفهومين هما «المعنى الإجمالي»، و«المعنى التفصيلي»، ويقول في ذلك: «يُعدّ الفكر والحركة، من أهم المقومات التي تدلّنا على سبيل الوجود الحقيقي، وتحفظ ذاتيتنا من العواصف العاتية، وتمكّننا من تجديد ذاتيتنا. وإن كان الفكر بالمعنى الإجمالي يتقدم على الحركة، فإنه بالمعنى التفصيلي ينمو داخل الحركة؛ بمعنى أنه لو ركز الإنسان في موضوع معين وأعمل فكره وعقله فيه واجتهد في قراءته بشكل صحيح، فإن استيعاب الموضوع وتقبُّلَه لا يتأتى إلا بعد تطبيق هذه الأفكار والشروع في معايشتها؛ لأنه إذا ما شرع الإنسان في تطبيق أفكاره يُضطر إلى انفتاحات جديدة، وهذا يسوقه إلى أفكار أكثر عمقًا، وبهذا تستقر الأفكار -التي كانت أفكارًا إجمالية في البداية- على أرضية رصينة. فإن أهم مبدأ لا بد من الحرص عليه في جميع أفكارنا ونوايانا التي تحتضن الحركة، هو عِفّة الفكر، سواء أكان الفكر إجماليًّا أم تفصيليًّا. ومن ثم علينا أن نعتبر الولاء لعفة الفكر من مقتضيات شخصياتنا، وأن نحافظ عليها حفاظنا على أعيننا مهما كانت الظروف والعوامل».

الصور الإدراكية[٤] والتمثلات، المصطلح والنشأة

«الصور الذهنية» (*Mental İmages*) مصطلح وظِّف في العديد من حقول المعرفة، منها الفلسفة وعلوم الاتصال وعلم نفس المعرفة، ويعني «التمثلات الذهنية المحفوظة في المخِّ أو المتخيلة لشيء مـادي، أو مفهوم، أو فكرة، أو حالة»، ولا يمكن للإنسان أن ينمّي فكره، ولا أن يطوِّر علاقاته مع الآخرين بغير التمثلات والصور الذهنية.

والمصادر عـادة تعرِّف الصور الذهنية بالتمثلات (Representations)، وتعرِّف التمثلات بالصور الذهنية، فتجعلهما مترادفين؛ ويمكننا أن نعتبر الصورة الذهنية أقرب ما تكون إلى "الصورة الفنية المجسدة"، أما التمثل فهو أعم، فهو قد يكون مجسَّمًا وقد يكون غير مجسَّم؛ وقد يكون معلنًا، وقد يكون مضمرًا؛ وقد يكون مدركًا أو غير مدرك.

وهـذه الدراسة تفضل مصطلح "الصور الإدراكية" عوض "الصور الذهنية"، وتعتمد في تعريفها لـ"الصور

الإدراكية"، و"التمثلات" بالخصوص مقاربة معرفية تأخذ بعين الاعتبار هذا النص:

"إن الإسلام إذ يحاور مخاطبيه، يأخذ بنظر الاعتبار كلَّ مشاعرهم الظاهرة والباطنة، وكلَّ أعماقهم من أمثال الفكر والحس والشعور والمنطق والإدراك.. إنه يَعتبر الإنسانَ كلاً جامعًا مع لطائفه وأحاسيسه ويخاطبه في هذا الإطار، فيستجيب لرغباته ويسد احتياجاته الطبيعية والبشرية، ويمهِّد له البيئةَ الصالحة لانفساحه بيسر في كل زمان وفي كل مكان"[٥]. أي أن النصَّ -أيَّ نصٍّ كان- يصل إلى حدِّ «التمثُّل المدرَك» إذا ما أخذ بعين الاعتبار:

١- جميع مشاعر الإنسان الظاهرة والباطنة.

٢- واعتبر الإنسان كلاً جامعًا.

٣- واستجاب لرغبات الإنسان، وسدَّ حاجاته الطبيعية والبشرية.

٤- ومهَّد له البيئة الصالحة للفهم والإدراك.

٥- وخاطب كلاً من الفكر والحس والشعور والمنطق والإدراك.

٦- وجمع بين لطائف الإنسان وأحاسيسه.

٧- وراعى حيثيات الزمان والمكان في المخاطب[٦].

ولقد كان الرسول ﷺ الذي استجمع أسباب الهداية والإقناع من محتدها، وهو سيد البلغاء والخطباء، ذلك أنه «كان يتناول الإنسان من جميع جوانبه العقلية منها والقلبية والروحية والوجدانية، دون أن يهمل أو يطمس أيَّ قوة منها، بل نشَّطها جميعًا وحرَّكها كلَّها، فأخرج مِن أفسد الناس أفضل الناس»[٧].

بهذا يتحوَّل النصُّ عند المتلقي، على يد رسول الله ﷺ «شعلة من المعنى الناضج المكتمل، الباعث على العمل»، دون أن يكون نصًّا «محايدًا» لا يعني هذا المخاطب، ولا يحرك فيه فهمًا عميقًا، ولا حسًّا صادقًا، ولا عملاً دقيقًا.

«النور الخالد» ليس كتابًا في السيرة بالمعنى المألوف، فالحدث والخبر والأثر لا يُعرض لذاته، ولا لمجرد الحفظ والفهم وذلك مقصد لا يستغنى عنه، وإنما يعرض -كذلك- لأهداف وأغراض دعوية وتبليغية مما ينفع المسلم خصوصًا، والإنسان بعامة، في مسيرهما ومسيرتهما.

«والصور الإدراكية والتمثلات» تتشكل عبر حياة الإنسان[٨]، منذ لحظات بداية إعمال العقل عنده، ثم تتراكم وتتكاثف، وتؤسِّس صورًا جديدة مركَّبة، وتغني الصور الموجودة أو تعدِّلها، وبهذا تتشكل «شبكة من الصور» هي التي تعرف بعد ذلك بـ «فكر» فلان أو «تفكيره». وما من شك أنها ليست موضوعية محضة[٩]؛ ذلك أن عقل الإنسان له خاصية التوليد، وهو ليس محايدًا، وكذلك ليس هذا الفكر ذاتيًّا محضًا؛ لأن الحقيقة لها وجود خارجي[١٠]، هو الذي يشكِّل القاسم المشترك بين العقول، وإلا استحالت الحياة ولم يتمكن الناس من بناء أيِّ حقيقة مهما كان حجمها ونوعها.

ويعيد البعض مفهوم «الصور الذهنية» إلى أفلاطون، في كتابه عن «الجمهورية» وهو يعرض ما عُرف «بأمثولة الكهف»، وممن يُذكر اسمه في تطوير هذا المفهوم كلٌّ من «جورج بيركلي»، و«سمويل جونسون»، وقبل ذلك «فرنسيس بيكون»، من خلال «الأوهام الأربعة»[١١] في المنهج، ولا شك أن لـ«فرويد» حضور في هذا المجال[١٢].

لكن، بالتأمُّل في تاريخ الإنسان، مع اعتماد المصدر الموثوق الوحيد الذي هو القرآن الكريم[١٣]، نجد أن «التمثلات والصور الإدراكية» هي مرادفة وملازمة للفكر والتفكير ولا يمكن أن يُفصل بينهما، بل إن الملائكة

لقد تناول الرسول ﷺ الإنسانَ من جميع جوانبه العقلية منها والقلبية والروحية والوجدانية، دون أن يهمل أو يطمس أيَّ قوة منها، بل نشَّطها جميعًا وحرَّكها كلَّها، فأخرج مِن أفسد الناس أفضل الناس.

أنفسهم حين أخبرهم الله تعالى أنه: ﴿جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، كان لمدلول الخليفة تمثُّلاً عندهم، وقد أفصحوا به بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(البقرة:٣٠)، فهذه «صورة إدراكية» مكثَّفة، و«تمثُّل» للمعنى واضحٌ، وتصوُّر لِما لم يقع بعدُ، ولكن بناء على معطيات موضوعية أدركوها، مِن مثل كون هذا الإنسان صاحب «إرادة حرة»، وصاحب «شهوات»، فبنوا تمثلهم حوله[١٤].

ولا يمكن أن نسهب في تحليل قصَّة آدم عليه السلام في القرآن الكريم، وما تحمل من تمثلات لا حصر لها، وكذا قصَّة ابني آدم وهي شحنة من الصور والتمثلات العميقة، ولا ما كان مع أنبياء لاحقين من أمثال سيدنا نوح، إبراهيم، وموسى، ويوسف، وعيسى عليهم السلام وغيرهم، ممن ذكر بالاسم وممن لم يذكر. وفي التقدير أن «التمثلات والصور الإدراكية من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم» ستكون مجالاً خصبًا للبحث والاكتشاف، وبناءِ مسارات جديدة للمعرفة البشرية لو تفرَّغ لها ثلة من الباحثين الجادِّين ضمن «جماعات علمية» جديرة، وهذا ما نأمله بإذن الله تعالى.

والقرآن الكريم نفسه مَعين لا ينضب من «التمثلات والصور الإدراكية»، وكذا حديث المصطفى ﷺ وسيرته الطيبة الزكية. ونؤكد أننا لا نعني بالتمثل فقط «الصور البيانية الفنية المجسَّمة» وذلك ما أبدع في عرضه سيد قطب -رحمه الله تعالى- في كتابه القيم «التصوير الفني في القرآن الكريم»، ولكننا نعني كلَّ بناء وتشكيل مجسَّم أو حتى غير مجسم لأيٍّ «شيء» أو «جملة» أو «فكرة» أو «حقيقة».. حسب المواصفات التي سردناها وأوضحناها من قبلُ. وللتوضيح نورد هذا المثال العميق: نطالع في سورة الجن تلك المعاني التي تتنزل كالغيث، وهي تُخبرنا بما لم ندركه بحواسنا من حقائق الجنِّ، وبخاصَّة أنها تورد تفاصيل وأحداثًا وقعت حقًّا لنفرٍ من الجن، ممن استمعوا القرآن الكريم، وانقسموا قسمين «سفهاء وراشدين»، «صالحين ودون ذلك»، «مسلمين وقاسطين».. وتحكي السورة العلاقةَ بين الإنس والجن، وأنه كان ثمة: ﴿رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(الجن:٦).

لا ريب أن كلَّ قارئ لهذه السورة تتشكل لديه «تمثلات وصور إدراكية» حسب خبرته، ومشاهداته، ومستوى إدراكه، وتجاربه الخاصَّة، ومستوى إيمانه، ونماذجه الكامنة والمعلنة.. وأن الحقيقة والمؤدَّى هو واحد لا يتلوَّن، لكنَّ التفاصلَ وسبلَ فهم هذه الحقيقة وطرقَ إدراكها، هو رهين «بالتمثلات والصور الإدراكية» والقناعات التي تسِم فكر أيِّ إنسان.

ضرب الأمثال[١٥]

ما من شك أن «ضرب الأمثال» يقرِّب الفهوم ويشحذ القرائح، وهو أسلوب ومنهج قرآني، وفي ذلك يقول بديع الزمان النورسي: «لقد أنعم عليّ سبحانه شعلةً من «ضرب الأمثال» التي هي من أسطع معجزات القرآن وأوضحها، رحمةً منه جلَّ وعلا، لِعجزي وضعفي وفقري واضطراري، لأُنير بها كتاباتي التي تخص خدمة القرآن الكريم، فله الحمد والمنة».

والملاحظ أن «ضرب الأمثال» عند النورسي، يكاد يكون مرادفًا «للصور الإدراكية والتمثلات»، ولذا يكون خصائصها ومنافعها مشتركة، وهي -حسب النورسي- أربعٌ، فصَّلها في كتابه «المكتوبات» فقال:

- بمنظار «ضرب الأمثال» قد أُظهِرَتْ الحقائق البعيدة جدًّا أنها قريبة جدًّا.
- وبوحدة الموضوع في «ضرب الأمثال» قد جُمِّعَتْ أكثر المسائل تشتُّتًا وتفرُّقًا.
- وبسلَّم «ضرب الأمثال» قد تُوصِّل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويُسر.
- ومن نافذة «ضرب الأمثال» قد حُصِّل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام، مما يقرب من الشهود، فاضطرَّ الخيال إلى الاستسلام، وأُرغم الوهم والعقل على الرضوخ، بل النفس والهوى، كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح»[١٦].

مصداقًا لهذه الأبعاد، واصطباغًا بهذه المعاني، وسيرًا على منهج القرآن الكريم، ضرب ابن خلدون مثلاً في كون إنسانية الإنسان، متعلقة بمدى معرفته بالأسباب، ومرتبطة بقدر علو كعبه في اتباعها، وجعل الصورة الإدراكية سلمًا له لتبليغ المعنى، وقال: «واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج: فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق لأنَّ لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع، لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً».

من حسُنت فكرته حسنت سيرته

في صحبة من صحبات الأستاذ فتح الله كولن، المنشورة باللغة العربية، شهر مارس ٢٠١٣ ضمن موقع «هيركول»[١٧]، نقرأ معالجة مباشرة للعلاقة بين الفعل والتمثُّل، وفي ذلك يقول: «قول النبي ﷺ «أفلح من كان سكوته تفكرًا، ونظره اعتبارًا»[١٨]. مراعاةً لهذا البيان النوراني يمكننا القول إن الإنسان يُؤْجر على حُسن

ناشدتكم الله، بالله عليكم، ثوروا على المسافات، تجاوزوا المسافات، تجاوزوا وكونوا مع الرسول ﷺ يدًا واحدة.. فالنجاة هناك، النجاة أن تُذكروا في الملأ الأعلى بالمحمديين، فأنتم في الأخلاق محمديون، وأنتم في العشق والشوق محمديون.

الفكرة كما يؤجر على العبادات. وإن كان الانشغال بالأفكار التي لا سبيل إلى تحقيقها يعني إهدار طاقتنا، فإن الإنسان لو تمنى -خيالاً- أن لو كانت لديه المقدرة على تغيير صورة هذا العالم ووضعه في شكل أبهى وأكثر حيوية، فإنني أعتقد أن تصورات هذا الإنسان وخيالاته، تتحلى بلون العبادة وصورتها. إن الوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن هي الانشغال بالأمور الحسنة على الدوام، والسعي في إطار هذه الأفكار الحسنة. يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي -طيّبَ الله ثراه- في كتابه «المكتوبات»: «مَنْ حسُنت رؤيته حَسُنتْ رَوِيّتُه، ومن حسُنت رويّته استمتع بحياته». بمعنى أن تحويل الإنسان حياته إلى نغمة لذة وأن يعيش وكأنه يسير في أروقة الجنة، مرهونٌ بحسن فكرته».

ولقد وظف الأستاذ فتح الله كولن مصطلحات دالة على هذا المعنى، وهي: حسن الفكرة، صورة العالم، التصورات والخيالات، الرؤية الحسنة.. مبيِّنًا أن هذه الصورة الحسنة تولِّد -بالضرورة- فعلاً حسنًا، وحياة طيبة، وسيرة زكية.

ثم يقول: «علاوة على أن الإنسان لديه استعداد فطري للتفكير، إن لم يوجّه استعداده هذا إلى طريق إيجابي، فربما يجرّه هذا الاستعداد إلى سبل سلبية كالأنانية والبوهيمية. دع عنك التفكُّر، حتى إن التصورات والتخيلات التي لا تُستخدم في الخير، ربما تضع الإنسان

قول النبي ﷺ «أفلح من كان سكوته تفكرًا، ونظره اعتبارًا». مراعاةً لهذا البيان النوراني يمكننا القول إن الإنسان يُؤْجر على حُسن الفكرة كما يؤجر على العبادات.

في مواجهة مباشرة مع هذه النوعية من السلبيات. ولذلك فإنه ينبغي على المؤمن أن يتحرك دائمًا بالقيم التي يؤمن بها، وأن يحفِل بها ويقرأ ويفكر دائمًا، وعليه أن ينهل ويتغذى من المصادر الأساسية باستمرار دون أن يسمح لأي فراغ أن يحدث في حياته. كما ينبغي عليه أن يعطي إرادته حقها فينأى مبتعدًا عن المشاعر والأفكار التي لا تسمح بها آلية الوجدان. فإن تعرض للرياح السلبية رغم كل جهوده، فعليه في هذه الحالة -كما أوصى به رسول الله ﷺ- أن يحاول التخلص من هذا المناخ، لأن مَن أبحر في الخيالات التي تخلّ بعفة الفكر، يصل إلى نقطة يبدو فيها كمن أبحر بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، بحيث لا يستطيع أن يعثر من جديد على فرصة الرجوع عن السلبيات التي غاص فيها. أجل، إن الإنسان إن عجز عن قطع السبيل أمام الحقد والكره والغيظ والشهوة البادية في داخله، فمن الممكن أن هذه الأمور تحطّم السدود وتستصدرُ الإنسانَ قرارات منحرفة وتجعله يرتكب أعمالاً سيئة».

وبهذا الأسلوب المباشر البيّن، نقرأ الكثير من النصوص التي تعالج أثر الفكرة في الفعل، وتبين دور «الصور والتصورات والتمثلات والتخيلات والقناعات» في أفعال الإنسان وحركياته.

الصور الإدراكية والتمثلات من خلال السيرة النبوية

يعتمد الأستاذ فتح الله كولن في عرضه للسيرة النبوية، سواء بين ثنايا مصدره المباشر «النور الخالد»، أو من خلال مصادر أخرى غير مباشرة لا تقلُّ أهمية وتركيزًا على السيرة النبوية.. يعتمد نظرية «العرض والتكليف»[١٩]، ليجعل النص باعثًا للمسؤولية، وليمنع نفسه والمتلقِّين من آفة الحياد تجاهه[٢٠]؛ وهو في ذلك يلوذ بالقواعد الكلية لتمنح الأثر والحدث دينامية وحركية، ثم يعتمد التمثلات والصورة الإدراكية لتنزيل النص إلى دائرة إمكان الفعل. وهو في صناعة التمثلات، يتفنن في استخدام الكثير من المناهج والأساليب، ولعل ذكر بعضها يكون عنوانًا ومدخلاً ودافعًا للبحث الشامل المستقصي. ومن ذلك نورد:

١- التصوير الفني

سيد قطب علامة فارقة في العلاقة بكلام الله تعالى فهمًا وتفسيرًا، ولقد أبدع في صياغة نظريته حول «التصوير الفني»[٢١] حين كان ينقب عن «سحر القرآن»[٢٢]، ويكتشف «منبع السحر في القرآن»[٢٣]، ويعالج «كيفية فهم القرآن»[٢٤]، فهداه الله تعالى إلى «الصورة الفنية»[٢٥]، وحينها أعلنها مدوية: «لقد وجدت القرآن»[٢٦].

ولقد عرَّف التصوير الفني بأنه «الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن. فهو يعبِّر بالصورة المحسَّة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية.. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجدِّدة، فإذا بالمعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية»[٢٧].

وبهذا المدلول نطالع المئات من الصور الفنية التي وظفها الأستاذ فتح الله كولن في عرضه للسيرة النبوية، متأثرًا بالمنهج القرآني والمنهج النبوي، وللتمثيل نورد ما يلي:

١- في بيان أخلاق الرسول ﷺ عقد فصلاً لحلمه عليه

إن الأستاذ فتح الله كولن دوقًا يدفع المتلقي إلى تجاوز المسافات، وإلى التحرر من قيود الزمان والمكان، ليعيش الحدث بجميع مداركه العقلية منها والقلبية والشعورية والوهبية، وغيرها.. وهذا ما نطالعه في العديد من مؤلفاته، ونشاهده في مواعظه السخينة الجياشة.

أفضل الصلاة والتسليم، ولم يسرد المعلومات والنصوص سردًا، لكنه اعتمد -في تبليغ المعنى- الصورةَ الفنية المجازية التي تنحت التمثل عند المتلقي نحتًا، وتدفعه إلى الحلم دفعًا، فقال: «الحلم مفتاح ذهبي آخر أُهدي للنبي ﷺ، ففتح به قلوبًا كثيرة وتربع فيها. فلولا حلمه هذا، لصدمت الخشونة الكثير من النفوس التي لا تملك مرونة، وجعلتهم في صفوف أعداء الإسلام ولابتعدوا عن النبي ﷺ، ولكن حلمه ﷺ حال دون هذا، فأقبل الناس أفواجًا إلى الإسلام. أجل، لقد كان الحلم من أهم الصفات التي جهزه الله تعالى بها، والتي تعكس رحمة الله تعالى عليه، والقرآن الكريم يشرح هذا الأمر فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّٰهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران:١٥٩)»[٢٨].

ولقد صاغ الأستاذ من هذا المعنى وأمثاله مفهومًا بات معتمدًا بكثرة في أدبيات الخدمة، ولا تكاد تجد واحدًا من العاملين يغفل عنه، أو ينأى عن جعله محورًا للعلاقة بالناس، وهذا المفهوم هو «تأشيرة الوجدان».

٢- وعند عرض كرم الرسول ﷺ، لاذ بالتصوير الفني كذلك، فقال: «كان مرآة نقية انعكس عليها اسم «الكريم» لله تعالى. كان في ذروة تمثيل خلافة الله تعالى في هذا الموضوع كما في المواضيع الأخرى، ولم يكن هناك على وجه الأرض شخص أكرم منه. كان محمد ﷺ طريقًا للكرم، وكان الكرم طريقًا للجنة. أمَّا البخل الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بـ«الشح» فكان طريقًا إلى جهنم. والذين رأوه -حتى ولو عن بُعد- عرفوه من صفاته أنه هو. فهو المرشد الأوحد للإنسانية إلى طريق الجنة، وهو صاحب الشفاعة العظمى للناس أمام أبواب الجنة، لذا يجب أن يَحسب كل إنسان حسابه. ونحن نصفه بصفة من صفات الله تعالى فنقول عنه إنه «أكرم الأكرمين»، ذلك لأنه بزَّ بكرمه كل المقاييس البشرية، وأصبح في الكرم خليفة ربه.

لقد استطاع بكرمه أن يدخل إلى قلوب استعصى الدخول إليها بصفاته الأخرى، فكأن رحمته تبخرت وصعدت إلى السماء كغيوم، ثم أمطرت على الكون كرمًا، فرقَّت القلوبُ القاسية، وهيأت الجوَّ الملائم لكي تشقّ النباتاتُ الصغيرة طريقها من التربة، أي فتح الأرواح بحلمه، ثم تربع فيها بكرمه، فإن لم تعرف هذين الجانبين معًا لم تدركه ولم تعرفه حق المعرفة»[٢٩].

٢- التصريف

مما يعطي السيرة النبوية تمثلات أكثر، ويجعلها محورًا في فكر الخدمة ومنطلقًا للفعل الحضاري، ما يمكن تسميته بـ «التصريف»[٣٠]؛ وذلك أنّ السيرة ليست «درسًا» أو «محاضرة» أو «سردًا تاريخيًّا يتيمًا».. ثم إنها مبثوثة في كامل مؤلفات الأستاذ فتح الله كولن، يعرضها بين ثناياها بتلونات لا حصر لها.. ومع أن «النور الخالد» هو كتاب خاص بالسيرة، إلا أنه لا ينحصر فيها بالمعنى المنهجي للسيرة، ذلك أنه عالج العديد من المواضيع مباشرة، منها القيم والأخلاق، وفن التبليغ، والمثالية، والتربية وأبعادها، وحل المعضلات وخصائص القيادة، والفطنة والحكمة.. وغيرها من المداخل، مما يسمح لنا بالقول إن «النور الخالد» ليس كتابًا في

السيرة بالمعنى المألوف، فالحدث والخبر والأثر لا يُعرض لذاته، ولا لمجرد الحفظ والفهم وذلك مقصد لا يستغنى عنه، وإنما يعرض -كذلك- لأهداف وأغراض دعوية وتبليغية مما ينفع المسلم خصوصًا، والإنسان بعامة، في مسيرهما ومسيرتهما.

ثم إن هذا التصريف يلاحظ في مجمل مؤلفات الأستاذ، فلا يخلو كتاب من كتبه من السيرة «فقهًا للتنزيل» ومنطلقًا لفهم «الكيف»؛ وذلك ما نقرأه في «طرق الإرشاد» وهو مصدر في الدعوة، وفي «الموازين» وهو كتاب في الحكمة، وفي «نظرية التطور» وهو كتاب في العلوم، وفي «التلال الزمردية» وهو في التصوف، وفي «البيان» وهو في الأدب، وسائر كتبه الأخرى.. وهذا الحكم سارٍ حتى على المصادر التي لم تترجم إلى العربية، بملاحظة الإخوة الباحثين ممن يشتغل فيها.

بل إن «صُحبَات»[٣١] الأستاذ، لا تكاد تخلو الواحدة منها من إشارة وتوجيه وتمثل للسيرة العطرة، في سياق وموضوع الصحبة. وللتمثيل نذكر ما يلي:

تحت عنوان «ورثة روح الاستغناء» يقول الأستاذ: «لا ريب أن رسول الله ﷺ كان شخصًا فريدًا وفائقًا لا مثيل له في صلته بالله تعالى، ومنزلته ومكانته وسعته وعمقه. أجل، لقد كان ﷺ ساميَ الطبيعة ومتميزَها، حتى إنه يشير إلى أنه يشعر بمتعة ولذة من العبادة والطاعة، كالمتعة التي نشعر بها نحن من المأكل والمشرب وغيرهما من الملذات الجسمانية. ولذلك كان يستأذن زوجاته ليلاً كي يروي عَطَشه إلى الحق، فيقوم ليله ويُدني فاه من نبع العبودية ينهل منه. وهو بهذا الاعتبار لا يُقارَن به أحد حتى صحابته الكرام. أجل، لا يمكن مقارنة أحد به ألبتة، بل إنني ربما أذهب إلى أبعد من ذلك وأقول -إن لم يُعتبر هذا نوعًا من التجرؤ- إننا نخطئ حتى لو أننا قارنّا به جبريل عليه السلام؛ لأن جبريل عليه السلام لم يكن يحمل على عاتقه أعباءً جسمانية ولا نفسانية. أمّا سيدنا رسول الله ﷺ فرغم أنه يحمل هذه الأعباء، قد سبق الملائكة الكرام. ولهذا السبب كان (عليه ألف ألف صلاة وسلام) -مثلما عاد من المعراج إلينا- يتنزل من أفقه إلى مستوانا كي يقدّم رسائله لنا ويرشدنا إلى الطريق الصحيح، ويعرض أمامنا قضايا موضوعية تتناسب مع منطقنا وأسلوب معيشتنا»[٣٢].

٣- تجاوز المسافات

من أكثر النظريات إثارة للجدل في حقيقة سيرة المصطفى ﷺ، ما يعرف بـ«تاريخانية النص»[٣٣]، ولقد شنَّ الأستاذ فتح الله كولن حربًا ضروسًا ضدها، لكونها تحيِّد المتلقي، وتجعله سلبيًّا موضوعيًّا مسالمًا تجاه ما يقرأ، سواء في ذلك كلام الله تعالى أم سنته وسيرته العطرة ﷺ، بل إن الأستاذ دومًا يدفع المتلقي إلى تجاوز المسافات، وإلى التحرر من قيود الزمان والمكان، ليعيش الحدث بجميع مداركه العقلية منها والقلبية والشعورية والوهبية، وغيرها، وهذا ما نطالعه في العديد من مؤلفاته، ونشاهده -بخاصة- في مواعظه السخينة الجياشة، ومثال ذلك:

«نستطيع أن نشعر ونعيش حياتنا وحياة الآخرين في اللحظة نفسها، ونجد في أعماقنا لذَّة آلاف الذكريات وكأننا نرتشف ماء الكوثر. وكما يحدث في الأحلام نقوم بطيّ المسافات، والتجول في عوالم فوق الزمن.. ونتذوق طعم جميع الأمور الخارقة وغير الاعتيادية.. وننتقل من فكر إلى فكر، ومن شعور إلى آخر.. ونقضي كلَّ لحظة في جو من عرفان وفي جو من محبة وفي طوفان من شعور باللذة.. وينطبق هذا على من استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق من العرفان». ولا شك أن قراء الآية الكريمة والحديث الشريف والسيرة العطرة من هذا الأفق المتجاوز، يغرس تمثلات جياشة، ويغمر القلوب المؤمنة بالشوق والعشق، إلى حدٍّ إحساس أنَّ

الحدث والأثر يقعان الآن واللحظة، وأننا جزء منهما، وأنه بإمكاننا أن نسهم ولو بقلوبنا ودعائنا وارتباطنا بخالقنا، نستطيع أن نسهم ونكون جـزءًا فاعلاً في الحدث.

والأستاذ يقول في إحدى مواعظه التي ألقاها في إزمير بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٩٠م:

«إن كانت قلوبكم مع الحبيب المصطفى، وإن كنتم تنقشون نقوشه الجميلة في مشاعركم وعلى قلوبكم، فما أهمية الـ ١٤ قرنًا من الزمان، وما الفرق بين أن تكونوا في مكة أو المدينة أو تركيا؟

إذا كنتم قد نقشتم أروع النقوش، وأدق الحقائق المتعلقة به، فالزمان لن يكون حائلاً؛ لأنكم حينئذ أقرب الأقربين إليه، حتى إنكم إن أغمضتم عيونكم -مثلي- وقدمتم ركبكم إلى الأمام قليلاً. فكأنها ستلامس ركبتيه ﷺ. أنتم قريبون منه جدًّا، وهو أيضًا قريب منكم. فقد رضي بأقربيتكم له واستشعر بقربكم، وها قد أصبحتم بعد ١٤ قرنًا تتحدَّون المسافات.

ناشدتكم الله، بالله عليكم، ثوروا على المسافات، تجاوزوا المسافات، تجاوزوا وكونوا مع الرسول ﷺ يدًا واحدة.. فالنجاة هناك، النجاة أن تُذكروا في الملأ الأعلى بالمحمديين، فأنتم في الأخلاق محمديون، وأنتم في العشق والشوق محمديون.

تجاوزوا المسافات وعندها لن تجدوا اختلافًا في الأسماء.. فروقًا في الأسماء فقط، سأقول:

إنَّ هذا ليس أبا بكر، ولكن كأنه هو.

إنَّ هذا ليس عمرًا ، ولكن ما أشبهه به.

وإنَّ هذا ليس عليًّا ، لكنه الحيدر الكرار.

وهذا ليس عثمان، إلاَّ أنه ذو النورين.

تفوقوا على المسافات، تجاوزوا الزمان، اسحبوا القرون ١٤ واذهبوا بها إلى عصره ﷺ. وإذا بكم قد تنورتم من حيث لا تشعرون، تنورتم بالأنوار المحمدية.

لقد استطاع الرسول ﷺ بكرمه، أن يدخل إلى قلوب استعصى الدخول إليها بصفاته الأخرى، فكأن رحمته تبخرت وصعدت إلى السماء كغيوم، ثم أمطرت على الكون كرمًا، فرقَّت القلوب القاسية، وهيأت الجو الملائم لكي تشق النباتات الصغيرة طريقها من التربة، أي فتح ﷺ الأرواح بحلمه، ثم تربع فيها بكرمه.

تنورتم شيبًا وشبابًا، صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً، وتحفزتم بتوتر روحي، لا تسيئوا الفهم، التوتر الروحي أن تعيش الدين بمنتهى الوعي، التوتر الروحي هو منتهى اليقظة إزاء أوامر الدين ونواهيه. المطلوب منكم هو هذا الوعي واليقظة. وإلا فنحن أغلقنا أبوابنا أمام إثارة الصخب في الشوارع قبل أربعة عشر قرنًا. وانطلقنا نطرق أبواب القلوب.. تفتّحي يا أبواب القلوب، تفتحي على مصراعيك، تفتحي فأمة محمد قادمة. هذا هو شعارنا وكلمة سِرِّنا.. لقد كبّلنا أقدامنا وربطنا على أيدينا ولن نسير في اتجاه آخر.. عزمنا على تحرير قلوبنا وألسنة قلوبنا وكسر سلاسله.. واتخذنا فتح القلوب غاية لنا. هذا ما قصدته بالتوتر الروحي.

عندما تَصِلون إلـى هـذا الوعي والتفكير الرفيع، فستتجاوزون الزمان والمكان، وتجدون أنفسكم وكأنكم بين أصحاب بدر، وتندهشون قائلين: كيف حصل هذا وقد أتينا بعد ١٤ قرنًا؟! سوف تندهشون لاندهاشكم.

فلا ترتابوا في أن هذا الأمر سيكون كذلك، لأنني بفضلكم قد حظيت بالتعرف على أصحاب قلوب عظيمة. كل واحد منهم -في نظري- كأنه أنس بن النضر أو عبد الله بن جحش أو قباث بن أشيم رضي الله عنهم».

ولقد نقشت هذه القطعة من الروح تلونات الملايين من

الناس، ممن هو في إطار مشاريع الخدمة ومؤسساتها، وممن زارها من مختلف بلاد العالم، وتأثر، وعبَّر عن ذلك في محاضرات وجلسات لا حصر لها. مما يدل أن تجاوز المسافات يغرس التمثل، ويبعث على العمل، ويزيل الغشاوة من القلوب.

٤- اعتماد أسس منهج النورسي في الحضرة النبوية

من أبلغ المناهج التي تجعل المتلقي يتمثل الحدث والخبر تمثلاً عميقًا -بجميعه وبكلياته- ما يمكن تسميته «بطريق العجز»، وهو منهج صاغه الأستاذ بديع الزمان النورسي ضمن ستة أسس هي «الفقر المطلق، والعجز المطلق، والشكر المطلق، والشوق المطلق، والتفكر المطلق، والشفقة المطلقة»؛ وما من شك أن فتح الله كولن اعتمد جميع هذه الأسس، وهو بهذا يعالج الحدث في كل مرَّة بمدخل أو أكثر من هذه المداخل، وهو يصف المهاجرين المحترقين من أصحاب الخدمة والهمة بقوله:

«أجل، إنّ سعي هؤلاء الناس في تبليغ الحق والحقيقة في كلِّ أنحاء العالم متكاتفين، هو ميناء آخر للسير إلى الحقِّ، ووسيلة أخرى للسرور؛ هؤلاء الذين ساحوا في الطرق في سبيل فكرة مثالية سامية بتواضع وخجل ونكران للذات، استنادًا إلى أسس العجز، والفقر، والشكر، والشوق، والتفكر، والشفقة»[٣٤]. ويمكن أن نمثل لكل أساس بأمثلة كثيرة، لكن يكفي أن نورد ما يلي:

١- يعترف الأستاذ بمقام العجز الذي تبوأه، وهو يعرض نفسه ومنهجه على الرسول الكريم ﷺ ويقول: «علمًا بأن إخراج جماعة من حياة الفساد والبدائية والتوحش، وجعلها مرشدة للإنسانية إلى طريق المدنية والفضيلة، ليس إلا إخراج هذه الجماعة من الظلمات إلى النور. وقد استطاع الرسول ﷺ تحقيق هذه المعجزة فبرهن على أنه رجل الإعجاز. ونحن الذين نعجز عن تبديل خصلة واحدة من الخصال التي تشربت بها نفوس من نعيش معهم عمرًا، نقف باحترام وخشوع أمام محمد ﷺ ونشهد أنه رسول الله بحق وبصدق. ولقد حاولت بنفسي ولم أستطع إقناع أقرب الناس إلي بنظام التربية المثلى التي وضعتها والتي استلهمتها طبعًا من رسولنا ﷺ تمام الإقناع. دعوت إلى الفضيلة حتى تعبت، ولكني لم أستطع حمل الناس عليها. إذن، فما أعظم تلك المقدرة وما أكبر تلك القوة التي كان يملكها الرسول ﷺ بحيث استطاع تحويل الناس من الحياة البدائية والمتوحشة إلى المدنية، ومن الدناءة إلى السمو، بل جعل من رجال الجاهلية معلمين ومرشدين للأمم المتمدنة. وأنا أرى أن أناسًا -مثلي- يعجزون عن إسماع كلامهم إلى ثلاثة أو أربعة أشخاص في أسرتهم هم الذين يقدّرون تمام التقدير ما قام به الرسول ﷺ حيث نقل أمة بكاملها من وهدتها وسما بها وصب في روحها إلهام قلبه.. بشرط واحد وهو أن لا يتعثر هؤلاء بموانع العناد والتعصب».

والجدير بالملاحظة أن الأستاذ «يوسف باكمزجي» وهو من أوائل المهاجرين والمرابطين في الخدمة في إزمير أوائل السبعينات، وهو كما يقول الأستاذ فتح الله «بمثابة أبي بكر مني»؛ سألته عن هذه المحاولات للإقناع، والتي يذكر فيها الأستاذ أنه لم يفلح، فأجاب بأنه كان شاهدًا عليها، وشاهدًا على ما قاله الأستاذ، وليست مجرد فكرة نظرية.

٢- ومرّة أخرى يؤكد الأستاذ على عجزه، ويقارن ذلك بالرسول الأكرم، حتى يجعل المتلقي يستوعب المعنى، فيقول: «استطاع رسول الله ﷺ التعبير عن كلِّ هذه المعاني بجملة واحدة مؤلفة من بضعة كلمات. وعندما قمت بشرح معانيه، لم أقل شيئًا، كل ما قمت به هو أنني حاولت أن أهوي بمعول التعبير على البنية الرصينة

في تناول السيرة النبوية العطرة يوظف الأستاذ كولن قضايا العصر، ويقارنها بما كان في عهد المعجزة النبوية، وكذلك يعتمد مفاهيم ومصطلحات معاصرة في وصف الحدث والخبر، وهذا يكسب المتلقي فهمًا أعمق وتمثلاً أدق، وملكة على تحويل الأثر إلى عمل وفعل وحركية.

الصلبة لذلك الحديث، فكان كل ما وصلكم عبارة عن بعض القطع المتناثرة منها. وقد لا أكون موفقًا في شرح تلك المعاني كما يجب، غير أن عجزي وعجز أمثالي، ليس إلا برهانًا لمدى قوة التعبير عند رسول الله ﷺ وقوة بيانه وفصاحته، ذلك لأننا لا نحيط علمًا بكل معاني أقواله ﷺ التي كان يرسلها ارتجالاً دون تحضير سابق. فالمعاني التي يضيق عنها عالمنا الفكري كانت المعاني الاعتيادية التي يتحدث بها كل يوم. فهل يمكن تفسير هذا إلا بالفطنة؟ إن كلمة العبقرية تبقى هزيلة وعاجزة في شرح هذه الخصلة».

٥- محاورة الذات

من أبرز مناهج الحركية التي تروض الملقي والمتلقي على تمثل وعيش الأحداث بكل الملكات، ما يمكن تسميته بمحاورة الذات، وهو أن يحيا الواعظ القائد ما يلقاه في خلواته وفي لحظات صفائه، فيحاور ذاته مـرارًا، ويسائلها، ويستنطقها، ويعجزها، ويمتحنها، ويصفِّرها، ويسلس قيادها مثل جندي صغير أو عبد آبـق؛ حتى تعلو بعلو المتعلق، وتسمو إلى مقام الموضوع.. ومثال ذلك في السيرة النبوية، قول الأستاذ فتح الله كولن اقتباسًا من الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: «لقد خطر على قلبي ذات يوم سؤال وهو: لِمَ لا يبلغ أشخاص أمثال محيي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظتُ في أثناء قولي في سجودٍ في صلاة: «سبحان ربي الأعلى» أنّ شيئًا من الحقائق الجليلة لمعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا أقول كلها، بل انكشف شيء منها. فقلت في قلبي، ليتني أحظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف من معاني هذه الكلمة المباركة، فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم أدركت عقب الصلاة أن تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جوابًا على سؤالي، وإرشـادًا إلى استحالة إدراك أحد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة، ذلك أن التغيير الاجتماعي العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة، قد ميّز الأضداد بعضها عن البعض الآخر، فالشرور بجميع توابعها وظلماتها أصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع أنوارها ونتائجها. ففي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تنبهت لدى أهل الخير نوازعه، فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة، ويعبر عنها تعبيرًا نديًّا نضرًا. فارتشفتْ مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة، بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار، ارتشافًا صافيًا يقظًا حسب أذواقها الرقيقة. وبناء على هذه الحكم، فإن الصحابة الكرام الذين كانوا يملكون مشاعر حساسة مرهفة، وحواس منتبهة ولطائف يقظة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لأنوار الإيمان والتسبيح والتحميد، يشعرون بجميع معانيها ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية»[٣٥].

٦- عرض قضايا العصر

في تناول السيرة النبوية العطرة، يوظف الأستاذ قضايا العصر، ويقارنها بما كان في عهد المعجزة النبوية، وكذلك يعتمد مفاهيم ومصطلحات معاصرة في وصف الحدث والخبر، وهذا يكسب المتلقي فهمًا أعمق، وتمثلاً أدق، وملكة على تحويل الأثر إلى عمل وفعل

وحركية. ومثال ذلك:

تحت عنوان «تربية الرسول ﷺ للناس وأسلوب تربيته»، يورد الأستاذ فتح الله كولن معجزة التربية عند نبينا الكريم، ومن ذلك اعتماده كلام الله تعالى في تغيير النفوس بالتلاوة والتزكية وبيان الحكمة، ويقول: «وكما استطاع القرآن أن يحتضن جماعة وأمة ويرفعها إلى مستوى إنساني رفيع، فإنه يستطيع إنجاز الشيء نفسه للأجيال القادمة. أما الأفكار الموجودة حاليًا والتي يقدمونها كأفكار جديدة وجذابة، فمصيرها إلى الانطفاء واحدة بعد أخرى مثل شموع تعرضت للريح، إذ سيكون الكتاب الوحيد الذي يقول للشموس في بلد النور «أنا الشمس التي لا تغرب». وستكون رايته هي الراية الوحيدة الخفاقة، وستحطم جميعُ الأجيال قيود الأسر عن أعناقها لتسرع إليه وحده، وقد بدت الدلائل على هذا منذ الآن.. فهذه هي روسيا.. وهذه هي الصين.. فلو سمعت ما يجري فيهما الآن وقبل عشر سنوات، لما صدقت ما تسمعه الآن وحسبته خيالاً وأوهامًا. ولكن انظر الآن كيف تتحطم الدكتاتوريات المرعبة، وكيف تتهدم الإمبراطوريات السابقة وتهوي إلى الأرض جذاذًا واحدة إثر أخرى، وكيف يظهر القرآن وكأنه جذوة متقدة من تحت الرماد، وكيف ينبعث عالم التوحيد انبعاثًا جديدًا. وبالرغم من كل هذا الظلم والاستبداد والتسلط، يسري الروح الإسلامي إلى أرجاء المعمورة روحًا يانعًا نضرًا يتسلل إلى القلوب وتنبهر به الأنظار»[٣٦].

٧- صياغة المعايير وتحكيم السيرة إليها

من أبلغ أساليب التمثيل وتشكيل التصور عند الأستاذ فتح الله كولن، أنه في كل موضوع يتناوله، يصوغ معايير حدّية له، ومعايير عُليا، ثم يعرض عليها سيرة المصطفى ﷺ، وسيرة غيره من المجدِّدين، ثم يستخلص الثمرة التي تدلُّه بما لا يدع مجالاً للشك على تفوق النبي الكريم وصحابته الأطهار بأشواط حدًّا يبلغ مستوى الإعجاز؛ ولقد صاغ في «النور الخالد» جملة من المعايير، من مثل: معيار المربي، ومعيار القائد، ومعيار الفطنة، ومعيار الشفقة ...إلخ.

وللتمثيل نذكر عناوين فصول الجزء الرابع من «النور الخالد» وهي:

- رسالة القائد والحياة.
- القائد والعنصر الإنساني.
- القائد واستخدام الكفاءات في المكان المناسب.
- صاحب الفراسة المتنورة بالوحي.
- وحدة النظر والقدم.

وهو يقول في مستهل الجزء الرابع: «هناك أمور مهمة يجب توفرها في كلِّ إداري ناجح وفي كلِّ قائد وزعيم نسطر بعضها فيما يأتي، مع تلخيصها طبعًا:

١- يجب ألاَّ تكون الرسالة التي يحملها، تتناقض مع الحياة أو تتصادم معها.

٢- على القائد أن يكثِّف جهوده لتربية الأفراد وإعدادهم، وأن ينشغل على الدوام مع العنصر الإنساني.

٣- على القائد أن يعرف عناصر مجموعته معرفة جيدة، ويعرف لمن يعهد بمسؤولية معينة.

٤- يجب أن يكون القائد منفتح الصدر لحل مشاكل أتباعه.

٥- يجب أن تكون تعليمات القائد وأوامره وتوجيهاته، من النوع القابل للتطبيق»[٣٧].

ثم بعد ذلك يعرض سيرة النبي ﷺ على هذه المعايير، ويوضح تفوقه في جميعها؛ وإن كان من غير الممكن تتبع كلِّ معيار وعرض مثال عنه، فإننا نورد هذا النص لا للحصر، لكن لتقريب المعنى:

فضمن معيار معرفة أصحابه، ووضعه كل واحد منهم في مكانه اللائق به، يقول فتح الله كولن: «كان سيد المرسلين يعلم أنَّ هذا النفر المحيط به هو بالمستوى الذي يستطيع أن يحكم العالم وأن يجري انقلابًا كبيرًا

فيه، لذا كان يتصرف حسب علمه هذا، لذا لم يكن يشك لحظة واحدة أن الدنيا كلها من شرقها إلى غربها، ستدين بالمبادئ وبالحقائق التي جاء بها، إذ كان واثقًا من إنجاز الله تعالى وعده له، ومطمئنًا لذلك. ومن ثم رد طلب المشركين ولم يلق لهم بالاً، بل أحاط هؤلاء الفقراء بحبه واحتضنهم برعايته».

٨- تتبع آثار النبوة عبر تاريخ الأمة

من المعتاد في عرض السيرة أن تقتصر على عصر النبوة والخلافة الراشدة، أمَّا ما يلي ذلك من حقبات تاريخية ومن أحداث، فتكون في مصادر أخرى وتعرض بمناهج التاريخ المعهودة، غير أنَّ فتح الله كولن تفطَّن إلى وجوب الربط بين السبب الأول والنتيجة البعيدة، وهو يردُّ كلَّ خير وكلَّ انتصار للأمة -أفرادًا وجماعات عبر تاريخها- إلى أفضال النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا المنهج واسع الاستعمال عند فتح الله.

ففي مرجعية النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، يقول الأستاذ فتح الله كولن:

«وهـو الـذي شـرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبيَّن الحكمة المكنونة في لب الأشياء والأحداث، وذكَّرَنا مرارًا بأننا لسنا وحيدين هنا، فشرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشة من نفوسنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أُنسه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نَشعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نُطلِق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكِّرين متأمِّلين.. فهذا كله بفضل النور الذي أوقده في عقولنا. وكلُّ ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمَل ما أودعه في نفوسنا، ونمو لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا»[٣٨]. أمّا عن بعض الآثار التي ذكرها، وعن بعض من تخرج في مدرسة المصطفى ﷺ ولو بعد قرون، فيذكر الأستاذ أمثلة كثيرة منها:

عن عقبة بن نافع يقول: «ومن الذين نشأوا في ظلال تربيته عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها. وعندما بلغ المحيط الأطلسي، خاض بجواده البحر حتى الركبة قائلاً: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك».

وعن طارق بن زياد يقول: «وبفضل التربية نفسها استطاع عبد بربري، أن يعبر برج هرقل وأن يغير اسمه لكي يقول لأهالي بلاد ما وراء البحار ما لم يسمعوه من قبل، ويعرض أمامهم ما عجزت عقولهم عن إدراكه».

وفي سياق آخر، وهو يعالج منهج الاتباع، ويجعل «المحمدية» معيارًا، يحث المتلقي على اقتفاء آثار النبي الكريم، وتتبع سلسلة من الذين فعلوا ذلك فكانوا خير سلف لخير خلف، يقول الأستاذ عنهم:

«ولأوضح المسألة أكثر فأقول: إنكم لا تثقون بالذين لا يعيشون من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم حياة مشابهة لحياتكم، حياة السواد الأعظم، ولا تعتمدون عليهم، فلا تتفق وفراسةَ المؤمن الاعتمادُ والوثوق بكل خَدّاع ماكر. وإذا أردتم الانتماء إلى أحدهم فانظروا أولاً إلى حياته اليومية، فإن كانت تتسم بالتواضع والاستغناء

إن سيرة النبي المصطفى ﷺ لا يتلقاها العقل معلومات وتفاصيل، وإنما يتلقاها القلب والعقل على السواء، باعتبارها نورًا أبديًا خالدًا، ومنهجًا ربانيًّا سرمديًّا؛ ومن ثم وجب على من رمى الاستفادة منها، أن يطهر ذاته ويصفي داخله، ويعدَّ الجو للتلقي الإيماني الروحاني الصافي، وبذلك تتنزل عليه التمثلات بديعة وكأنه يشهد الأحداث عيانًا.

يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر؛ حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة فكرية، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة. وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية.

ولا تكذب أعمالُه أقوالَه، فاتبِعوه وانتموا إليه. وأعتقد أن هذا أمر فطريّ، إذ ليس من الصواب الانتماء والاتباع دون الإمرار على المحك؛ فالتاريخ أظهر كثيرًا من أمثال هؤلاء. ولهذا يجب اتباع من كانت أحواله وأطواره محمدية، وليست كثرةَ الكلام. فالذين يعدّون الخب مهارة وصنعة، ليس لهم إلا الضرر للعمل الإسلامي، فهم بعيدون عنّا روحيًّا، وسنبقى بعيدين عنهم. ثم إن من انتمى إلى جهة وانضوى تحت منّتهم، لا يستطيع أن يفهّم أولياء نعمته شيئًا، ولهذا فإن أبا حنيفة، والليث بن سعد، والإمام الثوري، والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأمثالهم من الأفذاذ، تعاملوا معاملة حذرة جدًّا في هذا الأمر، أي عدم الدخول تحت منّة أحد. ولهذا تجاوزت أعمالهم وأقوالهم العصور حتى بلغت عصرنا فعاصرونا. ألا ما أزهر ذلك العصر حتى نوّر العصور التي تلته واحتضن هذه الكثرة الكاثرة من الناس دفعة واحدة!»[٣٩].

٩- ربط العلاقة بين الصفاء الروحي وتلقي السيرة

ما من شك أن سيرة المصطفى ﷺ لا يتلقاها العقل معلومات وتفاصيل، وإنما يتلقاها القلب والعقل على السواء، باعتبارها نورًا أبديًا خالدًا، ومنهجًا ربانيًّا سرمديًّا؛ ومن ثم وجب على من رام الاستفادة منها، أن يطهر ذاته ويصفي داخله، ويعدَّ الجو للتلقي الإيماني الروحاني الصافي، وبذلك تتنزل عليه التمثلات بديعة وكأنه يشهد الأحداث عيانًا، وفي ذلك يقول:

«إن الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم، ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والـروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معًا وفي الوقت نفسه. إذن، فلِمَ لا يوجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟ أجل، إنه يوجد وسيوجد، وسأجعل من كل ما ذكرتُه أساسًا وقاعدة لِما سأذكره، لأن تعيين زاوية النظر إلى الأنبياء وإلى نبينا مهم جدًّا. فإن كان فهم الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين وحدسهم -دع عنك الأنبياء العظام- يحتاج إلى صفاء روحي وإلى نقاء قلبي خاص، فكيف يمكن فهم الأنبياء في هذا العالم المادي الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم فإن علينا التوجه إليهم بكل استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكل دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله ﷺ، فإن هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافًا مضاعفة، هذا علمًا بأن درجة معرفة كلٍّ منا وفهمه يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككل أو يحيط به إحاطة تامة»[٤٠].

وبهذا يؤسس الأستاذ منهجًا لقراءة واتباع الرسول ﷺ، ويشغله في العديد من المحاضرات والمؤلفات. والحاجة ماسة لدراسة السيرة النبوية بهذا الأفق الدعوي الفكري الحضاري، من خلال «الصور الإدراكية والتمثلات»، ومن خلال المراحل الأخرى في مسار «تحول الفكر والعلم إلى فعل وحركية»؛ وبذلك يلخص الأستاذ فتح الله كولن خط مسير الخدمة، ومن خلالها المسلم المعاصر في هذا التحول، ويقول: «يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر؛ حركية وفكر يغيران

الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة فكرية، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة. وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية»[٤١]. ■

---

(١) في الفيزياء يعرَّف الكمون في المجال الكهربائي بأنه «مقدار الطاقة الكهربائية الكامنة لدى كل كولوم. ولا بد للحصول على الكمون، من توفر «فرق الكمون» وهو ما يعرف بالتوتر.. وقد نقل المصطلح إلى المجال الإنساني في الإدارة وغيرها؛ فمثلاً، تستعمل عبارة «الطاقة الكامنة» للتعبير عن تلك الطاقة في أصل الشيء، إلاَّ أنها لا تزال معطَّلة أو لم تكتشف بعد، أو أنها تحسب رغم أنها لم توظف بعد. وفي السياسة نشأت «مركز الطاقات الإنسانية الكامنة» للدفاع عن الطاقات الروحية والنفسية، في مقابل الطاقة المادية المختزلة.

(٢) انظر: محمد باباعمي: من سؤال الأزمة إلى الفعل الحضاري؛ محاضرة صوتية، موقع فيبكوس. وطه كوزي: ملَك السؤال الحضاري وسؤال الأزمة؛ مقال موقع فيبكوس.

(٣) انظر: محمد باباعمي: القواعد الكلية لفقه الحضارة من خلال السيرة النبوية؛ محاضرة سيدني ومالبورن، أستراليا؛ فيفري ٢٠١٣؛ نشر في بوابة فيبكوس.

(٤) مصطلح الصورة الذهنية هو المستعمل في المصادر، غير أننا صغنا بديلاً عنه «الصورة الإدراكية»، وهي أدلُّ على المقصد الذي نعالج من خلاله هذا الموضوع.

(٥) ونحن نبني حضارتنا، محمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠١١م، ص:١٠٩-١١٠.

(٦) انظر: باباعمي: مراعاة الأحوال النفسية والظروف الزمنية والمكانية في فهم الآية القرآنية؛ مذكرة تخرج، دبلوم دراسات عليا، جامعة الجزائر؛ ١٩٩٣م.

(٧) النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ٢٠١٠م، ص:٣١٥.

(٨) Jean Piaget, Bärbel Inhelder: L'Image mentale chez l'enfant: étude sur le développement des représentations imagées-Presses universitaires de France, ١٩٦٦.

(٩) الموضوعية غالبًا توضع في مقابل الذاتية، وتعرَّف بأنها «إدراك الأشياء على ما هي عليه، دون أن تدخل الأهواء أو المصالح أو التحيزات»، وبالتالي تعرَّف الذاتية بأنها «تقويم الأمور أو الظواهر أو الأحداث أو الأشخاص، تقويمًا متأثرًا بذات الباحث، وبما تنطوي عليه من ميول وعواطف وتعصُّب مما يحول دون اكتشاف الحقائق المجردة أو رؤيتها بوضوح». وإذا استثنينا التعصب والأهواء مما يشين البحث عن الحقيقة، فإن الظاهرة الإنسانية لا يمكن أن تكون موضوعية محايدة، ولكنها تنطلق من نماذج وسياقات ومفاهيم، تتأثر بها وتؤثر فيها؛ ولذا كان مصطلح «التفسيرية» الذي صاغه المسيري أكثر نضجًا، وبالتالي يكون الحديث عن الأكثر تفسيرية والأقل تفسيرية. ينظر: المسيري: موسوعة اليهود واليهودية، الجزء التنظيري.

(١٠) انظر: نظرية المعرفة، رودرك م. تشيزهولم، ترجمة: نجيب الحصادي، فصل «ما الحقيقة؟»، الدار الدولية للنشر والتوزيع، مصر، ص:١٤١.

(١١) هذه الأوهام هي: أوهام الجنس Race؛ أوهام الكهف Cave؛ أوهام السوق Market – Place؛ أوهام المسرح Theatre. والقضاء على هذه الأوهام في حقول العلم والحياة، هو لبُّ منهج بيكون.

(١٢) http://en.wikipedia.org. ويحيل إلى العديد من المصادر، منها:

L'image mentale: (Evolution et dissolution)-Jean Philippe-Publié par F Alcan, ١٩٠٣.. Berkeley et le voile des mots-Geneviève Brykman-Publié par Vrin, ١٩٩٣.. Les principes de la connaissance humaine-George Berkeley-Publié par A. Colin, ١٩٢٠.

(١٣) ثمة تاريخ سابق لمساحة إدراك الإنسان واستنتاجه، وكلُّ قول من غير مصدره الموثوق هو نوع من التخمين، وهو ضربة لازب؛ ومن هذا التاريخ: تاريخه قبل الخلق، وساعة الخلق، وفي الجنة، والإنسان الأول. وهذا مدلول قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(سورة الكهف: ٥١).

(١٤) انظر طبيعة هذا الحوار، وأسباب هذا التمثل في: الشعراوي: خواطر إيمانية، تفسير؛ موقع الشعراوي. وانظر: جيفري لانغ: حتى الملائكة تسأل؛ دار الفكر، ٢٠١١، ص:٤٦-٤٧. ومما قاله في

ذلك: «وأمَّا جواب الملائكة فهو رائع ومقلق في نفس الوقت.. ومن الواضح أن الملائكة تشير هنا إلى ذات طبيعة الإنسان، ما دام أن آدم عليه السلام في القرآن يبدو على أنه واحد من أحباب الله ومنزّه عن أيِّ كبيرة». والطريف أن لانغ، عنون كتابه استيحاءً من هذا السؤال نفسه.

(١٥) يعتبر نموذج الرشد «الصور الإدراكية والتمثلات»، مرحلة مفرقية أساسية في تحول الفكر إلى فعل، وهو في الترتيب بعد «الرؤية الكونية»، قبل صياغة القواعد الكلية. والبحث جار في هذا الاتجاه والحمد لله.

(١٦) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم صالحي، ص:٤٨٦-٤٨٧.

(١٧) www.herkul.org.

(١٨) المسند، الديلمي، ج١، ص:٤٢١.

(١٩) انظر: باباعمي: القواعد الكلية لفقه الحضارة، من خلال السيرة النبوية، محاضرة أستراليا، نشر موقع فيكوس.

(٢٠) يتألم الأستاذ من هذه الحال الباردة التي تعصف بقلوب الناس، ويقول: «إن الذنوب الناجمة من النظر من منافذ أجواء شتى، وما تترك من انطباعات في أذهاننا قد اقتحمت حتى أغوار قلوبنا، بل جعلتنا مشلولي القوى، فباتت لياليا خالية من الأشواق ومحاريبنا محرومة من الدموع» (طرق الإرشاد في الفكر والحياة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ص:٢٢).

(٢١) التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ط١٧، دار الشروق، مصر؛ ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢٢) نفس المصدر، ص:١١.

(٢٣) نفس المصدر، ص:١٧.

(٢٤) نفس المصدر، ص:٢٥.

(٢٥) نفس المصدر، ص:٣٦.

(٢٦) نفس المصدر، ص:٧.

(٢٧) نفس المصدر، ص:٣٦.

(٢٨) النور الخالد، ص:٢٥٩.

(٢٩) نفس المصدر، ص:٢٧١.

(٣٠) التصريف: مفهوم نبهني إليه الأستاذ جمال تُرْك، وقد جمع حوله ملفًا كاملاً، ويذكر أنَّ من أبرز صفات الأستاذ فتح الله كولن في أقواله وأفعاله، وفي برامجه ومخططاته، ما يعرف بـ «التصريف»؛ وهو -أساسًا- منهج قرآنيٌّ مستنبط من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، وعن الله تعالى يقول الأستاذ: «إنه سبحانه يجلب نظرنا إلى تدبيره وتصريفه للأمور».

(٣١) الصُّحْبَة: لقاء توجيهي أسبوعي غالبًا، داوم عليه الأستاذ إلى اليوم، وصار ديدنًا لكلِّ المشتغلين بهمّ الخدمة علمًا وعملاً. وقد نشرت العديد من الصُّحْبات في سلسلة «الجرّة المشروخة»، في ١١ جزءًا. وقد شرع في ترجمة الصُّحْبات إلى العربية في موقع «herkul.org».

(٣٢) موقع هيركول، الجرة المشروخة.

(٣٣) التاريخية أو التاريخانية: مفهوم تبلور في الفلسفة الغربية الحديثة، وهو يفضي إلى أنَّ كلَّ شيء مموقع في التاريخ بما في ذلك الحقيقة. يعرفها توران (Alaine Tourine) بأنها: «مقدرة كلِّ مجتمع على إنتاج مجاله الاجتماعي والثقافي الخاص به، ومحيطه التاريخي الذاتي». ونجد هذا التعريف في معجم روبير (Le petit robert) أيضًا، لكنه يضيف تعريفًا آخر، وهو أن كلمة «التاريخية» تعني: «دراسة المواضيع والأحداث في بيئتها وضمن شروطها التاريخية». كما نجد ما يقترب من هذا التعريف في معجم لاروس (Larousse)، فقد ورد تعريف التاريخية بأنها: «مذهب يقضي بأن التاريخ جدير بإثباث الحقائق الأخلاقية أو الدينية». ولقد تقمص العديد من الكتاب الحداثيين هذا المفهوم، وأشغلوه على القرآن الكريم باعتباره نصًّا تاريخيًّا، منهم محمد أركون، وهشام جعيط.

(٣٤) الجرَّة المشروخة، موقع هيركول، بتاريخ ٢٠١٣/٠٢/٢٧.

(٣٥) النور الخالد، ص:٢٦٦، (وهو اقتباس من «الكلمات»، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص:٥٧٥-٥٧٦).

(٣٦) النور الخالد، ص:٣٠٨.

(٣٧) نفس المصدر، ص:٣٤٥ وما بعدها.

(٣٨) ونحن نبني حضارتنا، ص:١٤٧.

(٣٩) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص:١٠٧-١٠٨.

(٤٠) النور الخالد، ص:٤٩.

(٤١) ونحن نقيم صرح الروح، محمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٦، ص:٥٥.

إحياء لغة الروح عند فتح الله كولن

ميمون قرمون

ولد عام ١٩٨١م في المغرب. حصل على ليسانس كلية الآداب من جامعة محمد الأول. حصل على الماجستير حول النقد الأدبي العربي: المناهج والمصطلحات. وهو باحث دكتوراه بوحدة فكر الإصلاح والتغيير بالمغرب والعالم الإسلامي، الموضوع: «المفاهيم والاستشراف في فكر محمد فتح الله كولن». يعمل أستاذًا لمادة اللغة العربية بالتعليم الثانوي التأهيلي.

عملتْ هذه الدراسة على استحضار الجانب الروحي عند الأستاذ فتح الله كولن، ولغة الروح التي سعى إلى إحيائها، مؤكدة على أن إحياء لغة الروح عند كولن شرط ضروري لكي تتحقق النهضة الإصلاحية التي تعيد الأمة إلى جذورها الروحية. فالعلل التي تنخر جسد الأمة، هي علل سلوكية أخلاقية فردية وجماعية، نَتجتْ عن فقدان الإحساس بالأمانة الربانية، وبالرسالة المحمدية في التوجيه والتخطيط والبناء. ومن هنا يأتي تركيز كولن على بعث الروح وتجديدها بنفس العناية الدينية؛ قصد بلوغ فجر الانبعاث بعد الموت الذي يمكّن الأمة من استرجاع ماضيها العريق لربطه بعلوم العصر الحديث؛ قصد الالتحاق بالركب فيما يتعلق بالتطور والتحديث والرقي والازدهار، مع الحفاظ على الخصوصية الثقافية.

يقتضي هذا الموضوع -في البداية- تعرف دلالـة الـروح لغة واصطلاحًا، قصد معرفة أوجه الاختلاف أو التشابه بين اللفظ في مصدرَيه السابقَين، وبين توظيفه عند محمد فتح الله كولن. لذا يمكن القول: إن الروح من الألفاظ التي خاض الناس في تعريفها وبيان طبيعتها، وتخبّط الفلاسفة في تحديد ماهيتها والوقوف على حقيقتها، وهي -في النهاية- من المعاني التي استأثر الله بعلمها، ولم يجعل للإنسان سبيلاً إلى معرفتها، يقول ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٨٥).

وتخبرنا معاجم اللغة العربية عن مادة «روح» بأنها «أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد..»، أما اصطلاحًا فهناك تعدد في التعريف وأهمها: «الروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم». وبالرجوع إلى القرآن الكريم، نجده قد ذكر لفظ الروح في أكثر من سياق، ليفيد بها معاني مختلفة منها الحياة، ملك من الملائكة، الوحي، القرآن، جبريل، النصر، الرحمة، الراحة من الدنيا، القدرة الإلهية على الخلق.

فالمهم في هذا السياق أن ندرك أن معرفة حقيقة «الروح» ليس لأحد من سبيل إليها، بل هي مما اختص الله سبحانه بعلمها. ولعل الحكمة من إخفاء علمها عن المخلوقات، هي أن يتأمل الإنسان ويتحقق من أن الروح التي جعل الله بها الحياة والراحة والقوة والقدرة والحس والحركة والفهم والفكر والسمع والبصر.. هي من أمر الله، والإنسان يباشرها ويعايشها مدة حياته وطول عمره. فمن خلال المعاني القرآنية والدلالات اللغوية والاصطلاحية، يستمد فتح الله كولن مادته الروحية، خاصة وهو يتحدث عن الانبعاث المرتبط بالحياة، والمقيد بالتأمل والتبصر في آيات الكون بقلب مرهف، وحس لطيف، وحركة من الماضي إلى الحاضر في اتجاه بناء المستقبل الحضاري للأمة.

انبعاث الأمة من جديد

إن القارئ لمؤلفات الشيخ والواعظ والمفكر محمد فتح الله كولن، يستشعر غاية أسمى يسعى إلى بلوغها هذا الرجل، ألا وهي بعث الأمة من جديد عن طريق إحياء جانبها الروحي؛ بمعنى إحياء طاقة مغمورة عتيقة كان لها وجود سابق لكن سرعان ما انطفأ وميضها. ففي هذا السياق يقول: «عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروح عذابًا، والذهن همًّا، فلا تتكلم، وإلا فلن تجد أحدًا يصغي إليك». فهنا تجل واضح في ارتباط التغيير والإصلاح والوعظ والتنبيه والتواصل الكوني عامة، بباطن الروح من حيث الإرادة والصبر والإحساس.

إن بعث لغة الروح من جديد، يعني استنهاض مواتها من تحت التراب، لكونها كادت تغيب في هذا العصر القاتم، عصرِ الرقمنة والإنسان الآلي، عصرِ التكنولوجيا ومخلفات الثورة الإلكترونية على إرادة الإنسان؛ من حيث اغترابه، وسلب إرادته، واستهدافه بغزو فكري ثقافي يأتي على الهوية بما فيها الدين، واللغة، والعادات، ونمط العيش والحضارة.

فالملاحظ أن الساحة الفكرية المعاصرة تعيش زخمًا فكريًّا، بل تراكمًا معرفيًّا أساسه العرض والتسويق قصد التكسب وبلوغ الشهرة الجوفاء، مما انعكس سلبًا على القضايا الفكرية، لكونها تفتقد إلى العمق الروحي والوجداني الذي يربط الصلة، ويشد الوثاق بين القارئ العاشق المتلهف والجائع الظمآن، وبين القضية الفكرية المدروسة التي ينبغي أن تحمل رسالة تغذي الروح لا سهمًا جارحًا يثخن الروح بضربات العقم والجفاء.. يقول كولن في هذا الموضوع: «إن رقيّ أيّ أمة وتقدمَها، مرتبط بمدى التربية التي يتلقاها أفرادها

من الناحية العاطفية والفكرية. فلا يُنتظر تقدم أمة لم تتوسع آفاق أفرادها الفكريةُ والوجدانية». فتركيز كولن على لغة الروح، دفعت إليه المتلقي المعاصر الذي يعيش صراعًا داخليًّا وشرخًا نفسيًّا بين ثوابت الهوية وجديد العالمية.. فهو يهتم بشؤون الإنسان الفكرية والروحية، واضعًا الأصبع على مكامن مرض القلوب البشرية، ليعطي انطلاقة فتوحات عميقة في مجاهل القلب والروح والفكر. لذا فهو يربط لغة الروح بالإيمان الموصل للبقاء، الإيمان بأن الذات الإنسانية كتاب مفتوح، بل بحر واسع وعالم كامل وكون عظيم، يجب قراءته، والتأمل فيه، وفك رموزه، من خلال النظر، وعمق الفهم والإدراك، ومن ثم فهي وسيلة القراءة الدقيقة في الإنسان والكون والحياة.

إحياء الروح عند الأستاذ كولن

إن استحضار الجانب الروحي عند كولن، هو ما يمليه عليه الفكر الناضج الذي يعبر عنه في المتون والمقالات والمؤلفات، والذي يؤدي إلى تناسل نصوص جديدة نظرًا لتعدد قراءات وتأويلات القراء ضمن ما يعرف بنظرية التلقي، لأنه يفتح في هذه النصوص أبوابًا على العقل والقلب والضمير، تاركًا الحرية للقارئ في استنطاق الدلالات وكشف الرسالات.

فالحديث عن لغة الـروح عند كولن، يعني تجديد الإيمان، وطلب المعرفة، ونشر المحبة قصد بناء الجيل الحاضر لتحقيق مفهوم الانبعاث من جديد -بعد الوقوف على الأزمات والمعضلات المعرقلة لبناء الفكر الإسلامي- هذا الهدف السامي يعده لبنة أساسية في الفكر الإصلاحي الحديث، لذا نجده يركز قبل كل شيء على إصلاح الإنسان، أو الفرد الشخص، وهو بهذا يختلف عن الحركات الإصلاحية التي دعت إلى إصلاح المؤسسة قبل إصلاح الفرد، لكونه يرى أن إصلاح الفرد وتربيته وتزكيته وبناءه على مستوى القيم والأخلاق، سيؤدي مباشرة إلى إصلاح المؤسسة التي يوجد بها سواء كانت أسرة أو مدرسة أو مجتمعًا.

فالباحث في مؤلفاته التي تتجاوز الستين كتابًا، يستشف نفَسًا مفهوميًّا إصلاحيًّا، من ألفاظه بعث الروح، الانبعاث الحضاري، بعث الجيل، بناء الإنسان، التواصل، المحبة، التصفية، الإيمان والمعرفة، العودة إلى الروح، التأمل والتفكر في الكون والوجود، بناء الجيل الحاضر، البعث والنهوض والارتقاء، تجديد الذات، حرية الفكر، بلوغ ذروة العشق، وراثة الأرض، الأخذ بالعلم الحديث، كمالية الإيمان، الحوار، التسامح.. وبالرجوع إلى كتابه «ونحن نقيم صرح الروح»، نكتشف رصيدًا معرفيًّا وتوجيهًا نيرًا وصريحًا في موضوع لغة الروح الفردية والجماعية، من خلال تركيزه على العالم الإسلامي التواق إلى الانبعاث بعد الموت، وإلى الولادة من جديد، لكي يحقق تجددًا وانبعاثًا وإحياء يشمل الحياة كلها. فـ «كولن» هنا، يلتقي مع شعراء الحداثة العرب (أدونيس، خليل حاوي، بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي وغيرهم) فيما يخص ثنائية الغربة والضياع، وثنائية الحياة والموت التي تعيشها الأمة العربية. هذه المضامين النفسية التي ترتبت عن نكبة فلسطين ١٩٤٨م ونكستها ١٩٦٧م، أي لحظات الخيبة واليأس والموت الذي عاشه المجتمع العربي، مما دفع الشعراء إلى تأكيد إمكانية الحياة بعد الموت، من خلال مفهومي التجدد والانبعاث القائم على توظيف الأسطورة والرمز والانزياح، بهدف رفع الهمم وبناء وعي قومي ثوري، أي السعي إلى التحول والتغيير عن طريق الفن والإبـداع الذي هو الشعر. وغيرُ الشعر هناك محاولات إصلاحية سبقت أو عايشت تجربة كولن في الإصلاح، إلا أن المقارنة بين حركة كولن الإصلاحية والحركات الأخرى، تكسب حركة كولن طابع التميز والاختلاف، لكونها زاوجت بين الرؤيا التنظيرية

والممارسة التطبيقية عندما ترجمت تجربتها على أرض الواقع، من خلال حركة الخدمة والمؤسسات التعليمية (بناء مئات المدن الجامعية، وآلاف المدارس، وعشرات الجامعات)، والإعلامية (صحف، ومجلات، ومحطات إذاعية)، إلى جانب المؤسسات الصحية، وعدد كبير من دور النشر في تركيا وخارجها التي شملت القارات الخمس.. وهذا يؤكد الرؤيا الشمولية الكونية العالمية في الإصلاح عند محمد فتح الله كولن، مقارنة بالأخرى القطرية عند غيره من الحركات الإصلاحية. إنه يحمل مشروعًا كونيًّا يلتقي فيه العلم والعرفان والعقل والوجدان والفكر والحياة العملية، قصد تشييد فكر حضاري إيماني التوجه، علمي النزوع، إنساني الجوهر، تدفع إليه روح تواقة إلى التحرر والانعتاق، والسمو والرفعة، والبكاء والأنين قصد تحقيق المستحيل لذوي الأنفس الميتة والعقول الغائبة.. فمفكر العصر الحديث يضع الأصبع على مكامن الضعف، كي يجدد الدين، ويعالج جراح الأمة الثخينة، ويحارب اليأس والقنوط، ويوجه الجيل إلى ظلال الاسترواح من روح الله.. مركزًا في ذلك على تجديد الثقة بالله ونشر الكلمة الطيبة المحملة بالعلم النافع والأخلاق الرفيعة والسلوك الروحي، باعتماد المنهاج القرآني السليم القائم على الوسطية والاعتدال.. إنه يدعو إلى التوجه نحو الإنسان والحياة والكائنات، أي الكون عامة، وذلك من خلال «رعاية مفهوم الإيمان والنظر الإسلامي، وشعور الإحسان، والعشق والـشـوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب التعبير عن الـذات، ورعاية المؤسسات والأركان، وإرشادها إلى التجدد»، من خلال تقديم «أنموذج إنسان جديد» يتحمل عبء المسؤولية وثقل الأمانة يسميه بـ «ورثة الأرض»، يكون باعثًا للروح المحمدية والأخلاق القرآنية.

إحياء لغة الروح عند كولن شرط ضروري لكي تتحقق النهضة الإصلاحية التي تعيد الأمة إلى جذورها الروحية، للتغلب على «النفعية الذاتية، والكسل، وحب الشهرة، وطلب الدنيا، واكتساب فضائل مثل الاستغناء، محو الـذات، الاهتمام بالغير، العلم». فالعلل التي تنخر جسد الأمة، هي علل سلوكية أخلاقية فردية وجماعية نتجت عن فقدان الإحساس بالأمانة الربانية، وبالرسالة المحمدية في التوجيه والتخطيط والبناء. ومن هنا يأتي تركيز كولن على بعث الروح وتجديدها بنفس العناية الدينية، قصد بلوغ فجر الانبعاث بعد الموت الذي يمكّن الأمة من استرجاع ماضيها العريق لربطه بعلوم العصر الحديث، قصد الالتحاق بالركب في ما يتعلق بالتطور والتحديث والرقي والازدهار، مع الحفاظ على الخصوصية الثقافية. إن هذا المفكر يستلهم المنهاج النبوي في الإقناع، منهاج الدعوة (الوعظ والإرشاد على المنابر)، ليؤثر على القلوب حتى يتسنى له زرعها آمالاً وطموحًا، ثم إصلاحًا وبناء، ليحقق مرحلة تنزيل أفكاره على أرض الواقع من خلال دفع الناس إلى المشاركة في تدبير أموالهم في أعمال البر والإحسان، ومن ثم يؤسس بهذه المعاملة، معاني الثقة والشورى والتعاون والتضامن والتواصل مع الجميع.. لذا فتركيزه على بعث روح الفرد بخصائصه الإيمانية الأخلاقية، هو مفتاح لنهضة إصلاحية تتحول فيها الأفراد إلى جماعات ثم مجتمعات، وهي التي تعطي مباشرة مفهوم العالم الإسلامي.. أي تحقيق هدف المشروع الإصلاحي، وهو الانبعاث الكوني والتغيير الشمولي. فتركيزه على إحياء لغة الروح جاء بعد تشخيص شامل لروح العالم الاسلامي الجماعي، والذي أفضى إلى وقوع الفرد أسيرًا في قيود الجهل والانحلال الأخلاقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية.. مما انعكس على المجتمع عامة من حيث الظلام والخسران، لوجود تآكل روحي ومعنوي داخل

ذات المجتمع سببه فراغ الحياة القلبية والروحية. وهنا يظهر مدى حرص كولن في جعل الإنسان محور النهضة والانبعاث والتغيير والإصلاح.. فبإحياء روحه الإيجابية يتحقق النصر والإقلاع، خلاف روحه السلبية التي تفيد الخراب واليأس والتأخر والهزيمة.

شروط وراثة الأرض

في حديث كولن عن إقامة صرح الروح، يذكر بعض ملامح ورثة الأرض وأهمها:

١- الإيمان الكامل: الذي هو غاية لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة وبعد العشق والشوق وتلون الخطوط الروحانية.

٢- صفة العشق: الذي يعد أساس الانبعاث من جديد، وهو نتيجة الإيمان بالله الذي يفضي إلى محبة وعشق كلي للوجود، ومصدره انجذابات وأذواق روحانية تساهم في تحقيق انبعاث عظيم.

٣- الانفتاح على العلم بميزان العقل والمنطق والشعور: وهو هنا ينفتح على ما أشار إليه بديع الزمان سعيد النورسي في «توجه البشرية في آخر الزمان إلى العلم والفن».

٤- إعادة الوارث ملاحظاته حول الكائنات والإنسان والحياة: من خلال التأمل والتدبر في سر المخلوقات للوصول إلى المعاني الإلهية، ثم اعتماد عمق الشخصية والخصال السامية في تقييم الإنسان وشرعية الوسائل في الوصول إلى الهدف.

٥- احترام حرية التفكير: لأن التحرر من صفات الإنسان، وهذا يخرجه من قيود الأسر الغربية التي فرضت عليه داخليًّا وخارجيًّا.

٦- الحرص على امتلاك الفكر الرياضي: والغرض منه هو تحقيق نهضة فكرية مثلما فعل الغربيون، واعتماده كقانون لفهم أعماق الوجود خاصة المتضادات، لأن إقلاع الروح يقتضي الجمع بين ثنائية الفكر والإيمان.

صفوة القول

الروح التي سعى ويسعى محمد فتح الله كولن إلى بعثها، هي الروح الفياضة المعطاء، الوارفة الظلال، والدانية الثمار.. هي الروح التي تعني سمو القيم الأخلاقية وصفاء الأعماق الباطنية للإنسان، ورغبة القلب والروح في بلوغ مدارك الإنسانية الحقيقية، لتجاوز الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.. هي الروح التي تعلن الهجرة لخالقها فتترك حياة الراحة والرفاهية، والخمول والكسل، لتسبح في فلك الوجود متأملة آيات الخالق ومتأثرة بمعاناة المستضعفين.. وهذا منطلق تكوين التجربة الروحية التي لغتها التواضع وشراعها البحث وغايتها الهجرة والأنين؛ هجرة ما تذل له القلوب وهو متاع الحياة الدنيا وزينتها، للإقبال على ما يسمو بالأنفس إلى مراتب العفة ودرجات التعبد ومراتب الجزاء.

فلنكن جميعًا محمد فتح الله كولن؛ بكّاء الصالحين في العصر الحديث.. الرجل الذي ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، والمصباح الذي يحترق لكي ينير دروب التائهين، والأمل الذي ينمو وينمو لكي يعيد مجد الأمة الثمين.. وذلك من خلال السعي وراء إحياء لغة أرواحنا المريضة قصد معالجتها بنسمات الإيمان الذي يحقق مفهوم الانبعاث الحضاري من جديد. ■

---

(١) ونحن نقيم صرح الروح، محمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، ط٦، القاهرة، ٢٠١٠.

(٢) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٩.

كيف ينظر علماء وأكاديميّو الغرب إلى فكر الأستاذ كولن؟

هشام الراس

من مواليد المغرب. حصل على درجة الماجستير من مدرسة الملك فهد للترجمة، جامعة عبد المالك السعدي بـ «طنجة»، وكان موضوع تخرجه تحت عنوان: «الخطاب الإسلامي بين مقتضيات العصر ومشروع الحداثة والتواصل: نموذج تجربة الأستاذ فتح الله كولن». حصل كذلك على الإجازة في الأدب الإنجليزي من جامعة المولى إسماعيل بمكناس. له عدة أبحاث وترجمات منشورة في كتب ومواقع مختلفة.

«إنني لا أعتبر الأستاذ فتح الله كولن بطلاً فقط لِما أسداه للمجتمعات المسلمة، بل إنه يقدّم نموذجًا لجميع الديانات الأخرى»، هذا ما أشاد به «ديرك فيكا» المدير التنفيذي لمجلس برلمان أديان العالم بـ «شيكاغو»، وهو بهذه الإشادة يسلط الضوء على مسيس الحاجة إلى الحوار في عالم اليوم، وينوه -كذلك- بتوجيهات فتح الله كولن في التسامح والمحبة والحوار.. استوعبتْ هذه الدراسة جوانب عديدة حول فكر الأستاذ فتح الله كولن، ونظرته الكونية التي تبني جسورًا قوية تسمح بمرور قيم التواصل الكوني، وتجمع بين مختلف الأزمنة. كما أكدت على أن كولن يهدف إلى إحياء الحب في البشرية جمعاء، ويعتبر الإنسانية أغلى شيء في الوجود؛ لأنها -كما يرى- مرآة لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

يتفق عدد غير قليل من علماء وأكاديميّي الغرب، على أن الأستاذ فتح الله كولن يمثل تجسيدًا مختلفًا وجديدًا لفكر بانورامي تعددي. فالباحث في فكر الأستاذ كولن ونظرته الكونية، يكتشف -أثناء بحثه- أفكارًا عِمادها النظريُّ جسورٌ متينة ومبدئية تسمح بمرور قيم التواصل الكوني، وتجمع بين مختلف الأزمنة.

هناك من ينظر إلى هذا الفكر من الناحية المعرفية فيصنفه في خانة العلوم الإنسانية، ويستنتج من خلال هذا التصنيف أن فكر الأستاذ فتح الله كولن يسعى إلى تأسيس نموذج مجتمعي قوامه التعددية والانفتاح. وهناك من يرى في هذا الفكر مسحة دينية إسلامية لكن بمفهومها الصوفي الرقائقي، ويستنتج من خلال هذه النظرة أن الأستاذ فتح الله كولن يحاول بعث جيل نهضة جديد بواسطة أفكاره القيميّة ونظرته التسامحية. وهناك من يدفعه شغف البحث في هذا الفكر إلى البحث في مجالات معرفية أخرى يكتشف أن وراءها تاريخًا مُركّبًا استطاع الأستاذ كولن أن يعيشه ويعيش به. فيمكّنه هذا الكشف من التعرف على شخصية الأستاذ كولن المتشكلة من الديني والمعرفي، والصوفي والعلمي. في هذا المقال يتحدث بعض العلماء، والأكاديميون الذين تعرفوا على فكر الأستاذ فتح الله كولن عن جوانبه المتنوعة، كلٌّ من خلال تخصصه.

قيم التسامح والحوار في فكر فتح الله كولن

«إنني أعتبر الأستاذ فتح الله كولن واحدًا من ممثلي الحب والتسامح والحوار الأكثر تأثيرًا في عالمنا اليوم. لقد اكتشف العديد من العلماء في الغرب، وخصوصًا في الولايات المتحدة، أن الأستاذ فتح الله كولن رجل حب وتسامح، وأن توجيهاته تمثل نموذجًا في الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات».

لقد أثار اهتمامي أن أرى كيف يتعامل هؤلاء المسلمون الأتراك، مع أناس من مِلَل أخرى. وقد بدا واضحًا لي أن هؤلاء مسلمون متدينون ومتيقظون. كان سؤالي هو عن «كيف يتفاعل هؤلاء مع أناس من مِلَل أخرى؟» ولذلك كنت أتتبعهم وألاحظ مدى تطابق نشاطهم وأفعالهم مع أقوالهم، وقد حققوا ذلك بالفعل.

هذا ما جاء على لسان الدكتور هيون ج. كيم (Heon C. Kim) متخصص في الإسلام المعاصر. وهو بهذا التنويه يسلط الضوء على الحاجة الماسة إلى الحوار في عالم اليوم، كما أنه يشيد بتوجيهات فتح الله كولن في التسامح والمحبة والحوار، توجيهات يعمل محبّو الأستاذ كولن على تفعيلها ممارسة واقعية وحيّة، كما يعملون على نشرها في جميع أنحاء العالم. ويعلق الدكتور "كيم" على الدراسة التي نشرتها مؤخرًا جامعة جورج تاون تحت عنوان "الخمسمائة مسلم الأكثر تأثيرًا في العالم"، بأنه من اللائق والمعقول أن تضع هذه الدراسة الأستاذَ كولن من ضمن الخمسين شخصية مسلمة الأكثر تأثيرًا في العالم، وأن تقدمه كشخصية تؤثر في مجموعات بشرية كبيرة، وتنحو إلى أن تصبح اسمًا عالميًّا.

وأوضح الدكتور "كيم" أن الروحانية الإسلامية المتمثلة في الحب والتسامح والحوار، والتي كان يجسدها الرسول محمد ﷺ، ثم عمل بها أولياء صوفيّون بعده، توجد في صميم فكر الأستاذ فتح الله كولن وأنشطة حركته. وبناء على هذا، يضم الدكتور «كيم» رأيه إلى آراء بعض علماء الغرب الذين يـرون في فتح الله كولن «روميًّا معاصرًا» (نسبة إلى جلال الدين الرومي،

إن الإنسانية عند فتح الله كولن ترفض قطعيًّا اعتبار الآخرين نقيضًا جدليًّا، وبدلاً من ذلك فإنه يؤكد أن التمييز بين الذات والآخر، لا يمكنه إلا أن يكون هدفًا للحوار بطريقة تحمي وتُقوّي روحانية الواحد ضد نفسه الأنانية، والتبعية الأهوائية التي تخلق صراعًا مستمرًّا مع الآخرين.

واحدٍ من أبرز وأشهر الأولياء الصوفيين في التاريخ الإسلامي). ويرى في توجيهاته في الحوار، بديلاً عن الحركات الجهادية والأصولية، وتلك التي تتبنى نموذج (Paradigm) "صراع الحضارات".

إن الحوار يظهر في فكر فتح الله كولن كنتيجة طبيعية لإنسانيته؛ فالأستاذ فتح الله كولن يعرّف الإنسانية بمذهب الحب والرحمة، وهو بذلك يحذر من فهم غير متوازن للإنسانية، كمثل الذي يسيء فهم الجهاد ويرى في غير المسلمين أعداء. إنسانية فتح الله كولن تتعارض مع الفهم الحرفي المتعصب، فهو يهدف إلى إحياء "الحب في البشرية جمعاء"، ويعتبر الإنسانية أغلى شيء في الكون. فهي -كما يرى- مرآة لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا. لقد وُهب الناس بالتساوي، القدرة على عكس صفات الله، وعلى تطوير تميّز عظيم، وبالتالي فهذا التساوي واقع بغض النظر عن الدين أو العرق أو الثراء أو المكانة الاجتماعية. وبما أننا خلقنا بفضل حب الله، فالحب يمثل أهم العناصر المكونة للإنسانية.. هذه المفاهيم السامية كالمساواة والحب والرحمة، تمثل جوهر إنسانية فتح الله كولن، وتعمل كميكانِيزْمات أساسية لحركته.

إن أول ما يظهر كشيء عملي في إنسانية فتح الله كولن المعتمدة على الحب، هو الحوار. بالنسبة له يشكل الحوار نشاطًا ترابطيًّا بين شخصين أو أكثر، ولا يمكن لهذا الترابط أن يتم إلا بوضع الإنسان في محور هذا الحوار. وبالتالي يصبح الحوار -في معناه الحقيقي- امتدادًا روحيًّا وواقعيًّا للإنسانية، على أنه لن يتحقق إلا عن طريق الاحترام المتبادل والتسامح والحب. لقد أدرك كثير من الناس -في عالمنا المعاصر- الحاجة الماسة للحوار من أجل تعايش سلمي. وقد كان الأستاذ فتح الله كولن يدعو إلى حوار مبني على الحب والتسامح منذ ما يناهز ثلاثة عقود، وكان يؤكد على ذلك بقوله: "يجب علينا أن ننخرط في الحوار مع أيٍّ كان ودون أي تمييز". وبما أن العديد من الناس لا زال يؤمن بـ"صراع الحضارات"، فإنني أرى أن تعاليمه في الحوار هي في غاية الأهمية اليوم.

إن هذه الرؤية تمثل بديلاً وحلاً لمشاكل البشرية المعاصرة. في السنوات الأخيرة تبنّى عدد كبير من علماء الاجتماع السياسي نظرية "صدام الحضارات" لصمويل هنتنغتون. هذه النظرية تفترض وجود علاقة جوهرية لا توافقية بين الحضارة الغربية والحضارات غير الغربية، وتتوقع صراعات وحروبًا حضارية حتمية. أثارت هذه الرؤية مناقشات علمية هائلة، وخلّفت أعمالاً نقدية كثيرة. وقد سبق وشاركتُ في هذا النقاش من خلال كتابة عدةِ ورقاتٍ وتقديم بعضها في مؤتمرات أكاديمية في الولايات المتحدة، وقد تتبعتُ في هذه الورقات الأصول الفكرية لنظرية هنتنغتون، تفترض قناعته باللاتوافق الحضاري وخصوصًا بالصراعات الحضارية، توتّرًا جدليًّا أو معارضة لعلاقة عكسية بين "الذات والآخرين"، والتي تتمخض من عند فريدريك هيجل وبعده المفهوم الهيجيلي: "الآخرين الأدنى فكريًّا"، ومن عند كارْلُ ماركس وبعده الفكرة الماركسية: "الآخرين الغرباء سياسيًّا واقتصاديًّا"، يضيف هنتنغتون إلى هؤلاء مفهوم اللاتوافق الديني بين

الإسلام والمسيحية. وبالرغم من أنها تنطوي على محاور مختلفة، فوجهات نظر هيجل، وماركس، وهنتنغتون، متفقة في تعريفها للإنسانية كعلاقة تضاد ونزاع بين الذات والآخرين، والتي قد يطلق عليها "النهج الجدلي للإنسانية".

وعلى عكس النهج الجدلي للإنسانية، فاستيعاب فتح الله كولن لمفهومي البشرية والإنسانية، يفترض مساواة وتوافقًا بين الذات والآخرين تقود إلى المحبة والتسامح والحوار. إن الإنسانية عند فتح الله كولن ترفض قطعيًّا اعتبار الآخرين نقيضًا جدليًّا، وبدلاً من ذلك فإنه يؤكد أن التمييز بين الذات والآخر، لا يمكنه إلا أن يكون هدفًا للحوار بطريقة تحمي وتُقوّي روحانية الواحد ضد نفسه الأنانية والتبعية الأهوائية، التي تخلق صراعًا مستمرًّا مع الآخرين. إنني أصطلح على هذه الإنسانية بـ «الإنسانية التحاورية»، وأعرّفها كأنظمة تفكير وطريقة حياة تنظر إلى البشرية كوحدة مكوّنة من «الذات والآخرين» وكموضوع للمحبة والحوار. وبالتالي فإنني أضعها بديلاً للنهج الجدلي للإنسانية، ولذلك أرى أنه ينبغي علينا اعتبار وتقدير تعاليم فتح الله كولن حول الإنسانية.

ميزان القيم في فكر الأستاذ كولن: التوفيق بين الماضي والحداثة

«لم يسبق للأستاذ فتح الله كولن أن أقصى الماضي، ولم يفعل ذلك مع الحداثة. وخلافًا لتَسْيِيس الإسلام أو للإسلام السياسي تتبنى حركة كولن وجهة نظر لا تتخذ موقفًا سلبيًّا من المجتمع الغربي أو الحداثة. كما أن حركة كولن، لم تكن يومًا على خلاف مع مختلف الحكومات المنتخَبة في تركيا، بل إنها ساهمت في إيجاد حلول لمشاكل وطنية معقدة بواسطة بسط شبكات اجتماعية واسعة النطاق، واستخدام وسائل سلمية لتوليد إجابات». هذا ما اجتمع عليه المشاركون

> إن الحوار الذي نجده في تجربة فتح الله كولن أقرب إلى ما فعله أرسطو منه إلى ما فعله سقراط أو أفلاطون. فأرسطو في مدرسته، كان يشجع تلامذته على الحوار مع العالم والانخراط ضمنه، للخروج من ثقافة الرخاء وبالتالي معرفة الآخر وتثقيف أنفسهم تبعًا لذلك.

في مؤتمر دولي نظمته أكاديمية الحوار بـ «هولندا». وأضاف بعضهم أن «هذا المنهج -والذي يبدأ أولاً بالتغيير في داخل الفرد ثم يهدف إلى نشر التغيير في المجتمع، هو على عكس النظام المسيطر الذي يطمح نوعًا ما إلى ثورة «من أعلى إلى أسفل»- منهجُ حركةٍ بدأت تتطور من داخل المجتمع نفسه، وتشارك في بعض الأعمال الهامة جدًّا في تناغم مع الأخلاقيات الاجتماعية، والقانون، والعقود الاجتماعية، والقانون الدولي».

وتطرّق البروفسور «توماس ميتشل» من جامعة جورج تاون، إلى الجوانب الدينية لحركة كولن، مشيرًا إلى ميل كولن المرجعي والخاص إلى مولانا جلال الدين الرومي وإلى تأثير التصوف عليه، مع تركيزه على الخدمة الإلهية وعلى الصدق. كما أوضح «ميتشل» أنه لا يهمّ مدى كبُر أو صغُر عمل ما بقدر ما يهمّ مدى الصدق المحيط بالقليل من ذلك العمل، وأضاف أنه: «إذا اعتبرنا العمل الصالح جسدًا، فقوام روحه الصدقُ». وبهذا ربط «ميتشل» نجاح الحركة، بالصدق الذي يظاهرها من أبنائها. وأكد على الجانب الحيوي الذي يمثله الصدق في جميع الأفعال بغضّ النظر عن حجمها، وبيّن أنه متى وُجِد الصدق حظيَ الفعل بقيمته وأهميته. وفي إشارة إلى أهمية فعل الخدمة داخل حركة المتطوعين

"أعتبر الأستاذ فتح الله كولن واحدًا من ممثلي الحب والتسامح والحوار الأكثر تأثيرًا في عالمنا اليوم. لقد اكتشف العديد من العلماء في الغرب -وخصوصًا في الولايات المتحدة- أن الأستاذ فتح الله كولن رجل حب وتسامح، وأن توجيهاته تمثل نموذجًا في الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات". (د. هيون ج. كيم)

الواسعة هذه، قال ميتشل: «إن مدرس الفيزياء في قرغيزستان، والتاجر المنخرط في أعمال الخير في إزمير، كِلاهما في عبادة. ففتح الله كولن يبقي مفهوم العبادة واسعًا، ويؤكد أن خدمة الناس من خدمة الصالح العام، ويربط إنقاذ الذات بإنقاذ الآخرين».

الأستاذ فتح الله كولن يقدم نموذجًا لجميع الديانات الأخرى

صرّح قسّ أمريكي بارز، بأن جميع الديانات في حاجة إلى مثل التزام فتح الله كولن الباحثِ الإسلامي التركي، والذي يركّز في تعاليمه على حوار الأديان، تعاليم يُثني عليها عدد كبير من المختصين على نطاق دولي واسع. وقال «ديرك فيكا» المدير التنفيذي لمجلس برلمان أديان العالم الواقع بـ «شيكاغو» -واحدة من المنظمات غير الحكومية الدولية التي تهدف إلى غرس بذور تفاهم أفضل بين المجتمعات الدينية والروحية عبر العالم، من خلال تسليط الضوء على أوجه التشابه مع تثمين الاختلافات بينهم- قال: «إنني لا أعتبر الأستاذ فتح الله كولن بطلاً فقط لِما أسداه للمجتمعات المسلمة، بل إنه «يقدّم» نموذجًا لجميع الديانات الأخرى».

وأضاف مشيدًا بلامركزية الحركة وبلا هرمية بنيتها وبطبيعتها التطوعية في قوله: «إن حركة كولن مختلفة كونها جزء من الناس، في حين تعمل مؤسساتها على تحقيق أهداف وظيفية وعملية بدلاً من تكوين بنية سلطوية أو حاكمية»، وأوضح قائلاً: «أعتقد أن الناس يجب أن يشعروا بأنهم في خدمة شيء أكبر بكثير (من المؤسسات)». وبالنسبة للقسّ «فيكا» فحركة فتح الله كولن بخصائصها المذكورة آنفًا، هي أيضًا نموذج لمجلس برلمان أديان العالم.

حوار الأديان أو مفهوم البعث الحضاري الجديد في فكر الأستاذ كولن

جاء في كتاب الدكتورة جيل كارول «محاورات حضارية: حـوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني»؛ إنك «لن تجدَ في فكر كولن فقط حوارًا بين كولن وأفلاطون أو كولن وكونفوشيوس، ذلك أن فتح الله كولن مثقّف استطاع أن يعزو هذا الحوار إلى السياق الإسلامي. فهناك بُعد مختلف عند كولن يجذب، كلمات كولن تتحول إلى فعل في العالم». وترى الدكتورة «كارول» كتابَها كاستمرار للحوار الذي بدأه كولن نفسه، وفي حين توضح أنها تؤسس لحوار بين ملحد مثل «سارتر» ومعتقد مثل كولن على أساس من الإحساس بالمسؤولية، تقول كارول: «إن هذا يبقى جهدًا يستند إلى نص يهدف إلى إقامة حوار سيأخذ صيرورته في هذا العالم.

إن نقطة البداية هي حوار الأديـان، وهذا ما شكل المنظار -إذا صح التعبير- أو الإطار الذي من خلاله نظرت إلى الحركة. لقد كانت مسألة حوار الأديان أول ما جذبني نحو الحركة، ولا زالت هذه المسألة تشكل السياق الذي أُقَيِّم من خلاله الحركة وأختبرها. لقد أثار اهتمامي أن أرى كيف يتعامل هؤلاء المسلمون الأتراك، مع أناس من مِلَل أخرى. وقد بدا واضحًا لي أن هؤلاء

مسلمون متدينون ومتيقظون. كان سؤالي هو عن «كيف يتفاعل هؤلاء مع أناس من مِلَل أخرى؟» ولذلك كنت أتتبعهم وألاحظ مدى تطابق نشاطهم وأفعالهم مع أقوالهم، وقد حققوا ذلك بالفعل.

لقد درّستُ في الجامعة لمدة عشرين عامًا دروسًا كانت في عمومها تاريخية، فدرّست مثلاً تاريخ الفكر العقلاني. ونحن نسمي هذه الأقسام في أمريكا بـ «من أفلاطون إلى حلف الناتو». إنك بهذا تنمي قدرات لكي ترى مواضيع عامة عبر القرون وعبر الثقافات من الصين إلى إفريقيا. عندما بدأتُ في قراءة أفكار السيد كولن، بحثتُ في الحال عن روابط، بحثت عن نقاط الترابط بين أفكاره المنطلقة من سياق إسلامي تركي، وبين أفكار كونفوشيوس وسارتر حول بعض القضايا. إنه بسبب دُرْبتي وخبرتي في التدريس فإنني أبحث الأشياء بهذه الكيفية، إنني أرى الأشياء في عمومها، ولذلك أرى الغابة بسهولة، على عكس متخصصين آخرين يختارون رؤية الأشجار والأوراق والتفاصيل الدقيقة.

إنه لشيء مثير للغاية! إنك لا تجد كولن يفكر في أفكار أفلاطون فقط، بل يضعها في سياقه الإسلامي، كما أنك لا تجده يكتفي فقط بترديد أقوال كنفوشيوس، بل يرددها كما لو كانت أقواله هو. هناك هذا الجانب، لكن هناك كذلك هذه الجماعة النشيطة التي تبث الحياة والفعل في هذه الأفكار والأقوال. أن تكون فيلسوفًا، فهذا شيء، وأن تكون ناشطًا، فهذا شيء آخر، لكن الأغرب من هذا كله، هو أن يجتمع الشيئان في رجل واحد.

إن الحوار الـذي نجده في تجربة فتح الله كولن أقرب إلى ما فعله أرسطو منه إلى ما فعله سقراط أو أفلاطون. فأرسطو في مدرسته، كان يشجع تلامذته على الحوار مع العالم والانخراط ضمنه، للخروج من ثقافة الرخاء وبالتالي معرفة الآخر وتثقيف أنفسهم تبعًا لذلك. وأنا أرى أن هذا أقرب في جوهره إلى ما يتحدث عنه الأستاذ كولن في تجربته. وأظن أن مصطلح الحوار مصطلح غني جدًّا وولاّد بالكيفية التي يتحدث بها كولن عنه. كما أن التركيز على التربية والتعليم هو -في حد ذاته- جزء من هذا الحوار. والتعليم -في تعريفه- يعني أنك تتحاور مع أفكار لم يسبق لك أن سمعتها قبلُ. إنك تلتزم بتصورات ومفاهيم ونظريات ومنظورات غريبة عنك وتنفتح عليها، إنك توسع نفسك لتلقيها والتعلم منها، وبالتالي تُعرّف التربية والتعليم بالحوار. إن التركيز على المدارس ومزج القيم الروحية بالعلم والمعرفة، هو نوع من الحوار يتجاوز ما يعتقده عادة كثير من الناس». ■

---

(١) فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، أنس أركنه، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ٢٠١٠.

(٢) فتح الله كولن.. تحاوَر مع الآخر تفهمه، محمود خليل (مقالة على موقع إسلام أون لاين بتاريخ ٢٤ مارس ٢٠٠٢).

(٣) حوارات حضارية.. حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، جيل كارول، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(٤) ونحن نقيم صرح الروح، محمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ٢٠٠٤.

(٥) فتح الله كولن.. أشواق أمة واستنهاض حضارة، ملحق مجلة حراء.

(٦) Muhammed Cetin, The Gulen Movement: Civic Service Without Borders, Blue Dome Press, New York-USA, ٢٠١٠.

(٧) تقرير مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩.

(٨) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، محمد فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ٢٠١٠.:

الرحلة الثرية إلى بنسلفانيا للحاق بالمقامات السنية [1]
الصعود إلى مقام الاعتكاف

محمد جكيب

أستاذ بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. حصل على دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٩٣م. حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي. مؤلف كتاب «أشواق النهضة والانبعاث قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي».

اختار كثير من العارفين أماكن للخلوة والاعتكاف والتعبد والتدبر، لكيونوا أقرب إلى عالم المعنى، أبعدَ عمّا يشغل أرواحهم عن التواصل بربهم وخالقهم؛ اختاروا قمم الجبال، وعمق الصحراء، والمناطق الموحية بعسر الحياة. ولكن نرى الأستاذ فتح الله كولن -على العكس- اختار معتكفه في مركز العالم المعاصر وهو الولايات المتحدة الأمريكية، رغم مظاهر الحياة المادية فيها التي تنادي باستحالة الخلوة والاعتكاف.. ركّزت هذه الرحلة إلى أفق معنوي لا يعرف الحدود لرجلٍ أمضى قرابة عقدين في بنسلفانيا في معتكفه الحركي الإيماني، ثم عرجت إلى حلقة درس تقام هناك، تحفّها الأنوار وتؤطرها الشريعة، ولسان حالها يقول نور الله أكبر من الفضاءات وأوسع من الجغرافيا.. وفي ذات السياق يذكر الكاتب أن الأستاذ ورجاله في هذه الحلقات أكثر حرصًا على إبداع السبل لفتح القلوب وإنقاذ الإنسان والعالم من مشاكله بالحكمة والموعظة الحسنة.

في أمريكا كل شيء بالحجم الكبير

الأستاذ فتح الله كولن في الولايات المتحدة الأمريكية.. فتح الله كولن في مدرسته ومعتكفه في الولايات المتحدة الأمريكية.

قد تبدو كلمة «معتكف» على غير توافق مع طبيعة الظرف المكاني الذي أضيف إليه الاعتكاف، لعدم انسجام الحقلين الدلاليين وتطابقهما. فالمعتكف فضاء معنوي تنبعث منه إشراقات روحية وصوفية، لكنه يحتل حيزًا فيزيائيًّا في الزمان والمكان، ينقطع فيه العبد العابد للتواصل مع ربه، والارتقاء في المقامات، وقد ينزوي بعيدًا في فضاء ناء بعيدًا عن الناس قريبًا منهم، بعيدًا عنهم بالمعنى الفيزيائي للبعد، لكنه قريب منهم بمقاييس عالم المعنى. وما سمّي كذلك إلا لوجوده في مكان خال من كل المؤثرات المشوشة على لحظات الارتقاء في المقامات، ووصل القلب بكل «مُغار الفتل» بالملك العزيز. لكن ما بالك بخلوة ومعتكف في مركز العالم المعاصر، وفي مركز العالم المادي، في عمق القوة الأول في العالم؟! من يستطيع تصور رجل فاضل عالم بلغ من العمر عتيًّا، يتخذ له ولإخوانه -كما يُطلِق عليهم- معتكفًا وخلوة في عمق الولايات المتحدة الأمريكية، على بعد ساعتين من نيويورك ومانهاتن، والمكان الذي عرف تلك الأحداث الأليمة.

في بنسلفانيا أقام الأستاذ فتح الله كولن مخيمه، بل معتكفه وخلوته. يحكي أحد الأحبة أن الأستاذ أسرّ في يوم من الأيام لإخوانه، أنه عندما كان شابًّا كان يحلم بإقامة خيمته وسط هذا العالم العجيب. يبدو أنه لم يكن يحلم، بل كأني به كان يستعرض مشهدًا حيًّا يمر أمامه. فهو اليوم يقيم خيمته، بل معتكفه في عمق هذا العالم العجيب.

أمريكا بلد قوي بكل المقاييس، كل شيء في هذا البلد بالحجم الكبير، إنه بلد الأحجام الكبير XXXL؛ شوارعه

> في درس الحديث النبوي يسترعي الملاحِظ اهتمام الأستاذ بعلم الرجال، فالحلقة تولي الرجال عناية خاصة، وأهم ما في ذلك هو الحرص على ذكر ما يميز هؤلاء الرجال من جهة الضبط والسلوك والهمة العالية.. فالأستاذ حريص على النظر إليهم باعتبارهم هممًا يجب الاقتداء بهم لمساهمتهم في بناء صرح الحضارة..

جدّ واسعة، طرقه أوسع، عماراته عالية، بل شاهقة العلو. يشعرك الفضاء بأن الأفق أمامك مفتوح إلى ما لا نهاية. ينتابني شعور غريب بأن لا حواجز تحول بين الإنسان والتطلع إلى الأفق، وبأن الحجب الفاصلة في هذه الرقعة من العالم -بين هذا العالم وعالم المعنى- شفافة يسهل اختراقها.

اختار كثير من العارفين أماكن غريبة للخلوة والاعتكاف والتعبد والتدبر -أماكن بعيدة عن الناس- ليكونوا أقرب إلى عالم المعنى؛ في قمم الجبال وفي عمق الصحراء وفي الأماكن الجافة، والمناطق المعروفة بالتضاريس الوعرة، الموحية بعسر الحياة وصعوبة العيش، لتكون روح العابد بعيدة عما يشغل اهتمامها بالتواصل مع الخالق. مظاهر الحياة المادية في الولايات المتحدة الأمريكية تنشر بأعلى صوتها باستحالة الاعتكاف، لكن الأستاذ فتح الله كولن اتخذ معتكفًا هنا.

هذا الفضاء الواسع يجعلك تشعر فعلاً بما تمثله أمريكا من قوة، ويجعلك تلمس عن قرب حقيقة الرتبة المتقدمة جدًّا التي تحتلها في ميزان القوة.. لكنها مع ذلك كله مجرد قوة مادية مسكينة حزينة، بل هي قوة مزيفة. سلطة المادة وقوة الاقتصاد والمال هي الحَكَمُ، العجلة هي السمة الأبرز في هذا البلد العجيب، إذ الكل على عجلة من أمره، لكن الاطمئنان والمعنى

إن الأستاذ فتح الله كولن حريص على "تصفير" الذات بل "تسفير"ـها، يذكر دائمًا بأن من قال: "أنا فعلت" تعثر وسقط في بداية الطريق، ومن قال: "نحن فعلنا" تعثر في وسط المسير وسقط، ومن قال: "هو فعل، الله فعل" فقد أطال المسير وكان النجاح حليفه.

والروح عُملات لا وجود لها.

إن في أعماقي هاتفًا يقول: إن هذا الفضاء بهذه الأوصاف التي تغري كل من ولدوا في عصر السرعة والصواريخ، وفي عصر ازدهار العلم الطبيعي والحداثة المادية، هو الفضاء المناسب لمعتكف يقيمه رجل هذا العصر ومجدده، ليس من أجل إغراءاته -وهي كثيرة- بل من أجل بث المعنى فيه، وزرع الروح في الجسد المنخور الذي فتّتتْ كيانه المادة وشروط السوق والاستهلاك.

الأمريكيّون يحبون القهوة، دكاكين بيعها منتشرة في كل مكان، يصطفون بسياراتهم الفارهة ليشتروا كؤوس القهوة الكبيرة الحجم هي الأخرى.. لا وقت للجلوس إلى كأس قهوة، ولا للحظة تأمل في الحياة والمصير.. الوقت يساوي المال، وقيمة الإنسان يحددها مكسبه المادي في السنة.. يطل عليهم نادل من نافذة صغيرة، يتناولون القهوة ويسرعون، الطرق الواسعة مهيأة لذلك.

مضى على وجود الأستاذ فتح الله كولن في أمريكا حتى الآن قرابة العقدين، أمضى جلّها في معتكفه ومدرسته في بنسلفانيا لا يخرج إلا لضرورة، بل لا يخرج إلا للحظات قليلة داخل المخيم. ولماذا يخرج؟ وما الذي يربطه بهذا العالم المادي المسكين المسكون بالسرعة والعجلة والقوة وسلطة المادة؟ إن عالم هذا الرجل يوجد في أفق آخر، عالم آفاقه معنوية، تتربع على عرش رمزي في مملكة المعنى، إنه عالم ألغى الحدود وصار فوق الحدود. هذا أفق معنوي لا يعرف بالحدود.

الفضاء الذي يقيم فيه الأستاذ فتح الله كولن، أقيم وسط مشاهد طبيعية تكاد تكون عذراء، وسط غابة شجر الكستانة، تذكرتُ أن البدايات الأولى للأستاذ فتح الله كولن مربيًا كانت في «كستانة بزاري» (سوق الكستانة). يتخلل المخيم جدول متدفق المياه، كأن الفضاء هيّئ في عالم المعنى ليكون معتكفًا وليكون خلوة. لقد اتخذ الأستاذ هذا المكان للإقامة وممارسة حياته العادية كأنه في تركيا، لا يهم المكان، فكل الأماكن تتشابه لأنها أفق واحد بمقاييس عالم المعنى.

الاعتكاف وظيفة الأستاذ في أمريكا

كل الدلائل تشير إلى أن هذا الرجل يعيش في هذا العالم بحمولات روحية مشدودة إلى السماء، غير آبه بما يجري في الواقع إلا في حدود كونه مجالاً للإصلاح والتربية. ففتح الله كولن في هذا البعد يمارس هوايته

المفضلة، ووظيفته التي نذر لها حياته بكاملها؛ وهي التأمل في الملكوت والتفكر فيه، وتربية الرجال وبناؤهم، والبحث عن حلول لمشاكل العالم، والتفكير في أحواله، واستلهام الحلول له، وتوفير أسباب سعادة الإنسان بالتأمل في الملكوت.

الأستاذ فتح الله كولن حريص دائمًا على تأكيد أن القيم والأخلاق لغة عالمية وسبيل للنجاح في كل مكان، يقول لأبطال المعنى: احرصوا على تمثيل قيمكم وثقافتكم تنجحوا في الوصول إلى القلوب، وإذا قال هذا الجيل: المسلمون طيبون، فسيسلم أبناؤهم في المستقبل.

فتح الله كولن في بنسلفانيا يمارس وظيفته التي دأب على القيام بها منذ أكثر من خمسين سنة، وهي التدريس وتأليف الرجال الذين يرشدون الإنسان، وتأليف الأفكار التي تبني الإنسان. لم يتخلف الأستاذ فتح الله كولن عن حلقة من حلقات الدرس إلا لضرورة قصوى، ولم يتوقف كذلك عن توجيه هذه الحلقة وعن مدها بما تحتاج إليه من توجيه وهمة، وما تحتاج إليه من طاقة، لترتفع إلى مقام عال من الروحانية لا يجادلها حتى عتاة الجاحدين.

يتحمل الأستاذ -من أجل استمرار جامعته- الكثير من المشقة، فالمرض والإجهاد ومتابعة مجريات الأحداث، لا يثنيه عن الحضور مع طلبته ومحبّيه. التدريس بالنسبة له مسألة حيوية تمده بالنشاط، وتعطي لحياته ولوجوده في أمريكا معنى رمزيًّا ومغزى.. فالأستاذ لم يأت من أجل المتعة، بل هو في مهمة، إنه سفير فوق العادة، ويؤدي مهمة فوق العادة تهم الإنسانية. إن وجود الأستاذ في أمريكا ليس ترفًا، إنه تدبير إلهي. فقدر هذا الرجل، ربما هو إعادة توجيه دفة التاريخ في الاتجاه الصحيح الذي يخدم الإنسانية، من داخل مركز العالم المعاصر.

جامعة الجامعات

من حق كل واحد أن يرى في حلقة الأستاذ ما يشاء، أما أنا فأطلق عليها ما يعن لي أنه يشخص حقيقة هذا العالم الذي يملأ المرء بالسعادة والاطمئنان. «جامعة الجامعات»، هذا هو لقب حلقة الأستاذ فتح الله كولن في أمريكا وفي كل مكان آخر -الجغرافيا عنصر ثانوي- فهي قبلة الهمم العالية من كل حدب وصوب، يقصدونها يريدون الاغتراف من بركاتها، وشحن القلوب والأرواح، بالمعنى والعلم والمعرفة. طلبة الأستاذ الذين تخرجوا قبل سنوات من حلقته، يجلسون الآن القرفصاء أمام أستاذهم للدرس، أقرأ النشوة على محياهم؛ لأنهم يسترجعون السنين الخوالي عندما كانوا قد لازموا أستاذهم سنين عديدة.. كلهم خريجو الجامعات، لهذا تستحق حلقة الأستاذ عندي وصف «جامعة الجامعات». حلقة الأستاذ فتح الله كولن في أمريكا، تجمع بين العلم والمعنى.. لكل واحد من الحضور وجهته، منهم من حضر للتلقي والتزود من بركات المجلس، ومنهم من يبحث عن جواب سؤال ثقيل مؤرق، ومنهم من سافر طالبًا لدعم معنوي يدفع بـ «الخدمة» خطوات إلى الأمام، ومنهم من يأتي مستشيرًا طالبًا الحلّ من الأستاذ. في المجالس الخاصة يسأل الأستاذ فتح الله كولن عن كل شيء، يتابع كل شيء، تجده أكثر حرصًا على أمور «الخدمة»، هو من يبادر بالسؤال، لعلمه بأن حجاب الحياء قد يمنع المستشير من الكلام، فيكسر ذلك بالاستفسار عن هذه الخدمة أو تلك؛ كيف تسير والمراحل التي قطعتها، وأين وصلت.

التوفيق الإلهي

فتح الله كولن رجل ثاقب النظر حكيم، وفوق ذلك كله فهو رجل مجرّب، صقلته الأيام والأحداث والحوادث، لكنه ما زال واقفًا كالجبل الشامخ.. ومعرفته بحقيقة

يغازل الأستاذ فتح الله كولن الأمل الذي يتطلع إليه من خلال براءة الأطفال، ومن خلال إيقاع الهم الثقيل الذي يسكنه، حاملاً إياها بين جوانحه عمرًا بكامله؛ حيث تلمس في هذه النصوص أنه متطلع إلى سبيل لإنقاذ البعد الإنساني في هذه البراعم حتى لا تقع لقمة سائغة في براثن وحش الانحراف الفكري والثقافي.

الخدمة وسبيل تصريفها وأسباب نجاحها، يفوق التصور كما يقول أحد الإخوة. ولذلك يأتيه أهل «الخدمة» من مربّين ومعلمين وأصناف وغيرهم، يأتونه للاستشارة، ومنهم من يحمل معه بشائر النجاح والتوفيق وأخبار الفتوحات من المناطق التي هاجروا إليها بتوجيه من أستاذهم؛ ينشرون أمامه بشائر المدارس التي تفتح في مناطق بعيدة نائية وصعبة، يأتون حاملين الفرحة إلى قلب الأستاذ وإلى قلوب كل من حج.. فأخبار هذه الفتوحات تمد بالقوة وترفع المعنويات، يحملونها معهم بدورهم إلى كل فرد من أبناء «الخدمة» في مناطقهم.

يفرح الأستاذ كثيرًا لخبر فتح مدرسة هنا أو هناك، ويفرح لخبر قيامها بمهمتها ودورها في تشبيك خيوط المحبة ونشر المعرفة وشرح القلوب وطمأنتها، فهي حاملة القوة المحفزة للآخرين للاجتهاد أكثر. النجاح عند هؤلاء وعند الأستاذ على وجه الخصوص، موصول بالله تعالى، كل البشائر كرم رباني يتيح فرصة التذكير بأن سر النجاح والتوفيق يرجع إلى الله ﷻ.

يردد الأحبة أن الأستاذ حريص على «تصفير» الذات بل «تسفير»ـها، يذكر دائمًا بأن من قال: «أنا فعلت» تعثر وسقط في بداية الطريق، ومن قال: «نحن فعلنا» تعثر في وسط المسير وسقط، ومن قال: «هو فعل، الله فعل» فقد أطال المسير، وكان النجاح حليفه. ولقد حفظنا عن ظهر قلب «ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل»، وجامعة الجامعات تجسد هذه الحقيقة.

وأنا في هذا المجلس المبارك حرصت على التقاط شيء من كلام الأستاذ يُشعِر بأنه معتز بما حققه من نجاح في «الخدمة»، لكني كمن ينتظر المستحيل، قال له صاحبي: «كوّنتَ الرجال وبنيت الأجيال، وكنت تقتحم المقاهي والمنتديات العامة من أجل زرع هذا الخير، واستخراج المعدن النفيس.. لكن الأستاذ أجابه بهدوء الواثق مما يقول: «أستغفر الله.. أنا لم أفعل شيئًا، إخواني هؤلاء هم من فعل»، ونظر إلى من حوله ومن عن يمينه، بعض من الرعيل الأول الذين احمرت وجناتهم خجلاً، وكأني بهم يرجون انخساف الأرض بهم على أن يسمعوا مثل هذا الكلام من شيخهم، لكن لسان حال الأستاذ في حقيقة الأمر يقول: إن التوفيق من الله تبارك وتعالى، والمحظوظ هو من يجد لنفسه موقع قدم في هذا الفضل الرباني.

حلقة للعلم ولا أي حلقة

حلقة الأستاذ فتح الله كولن -بل المخيم كله- نموذج مجتمع مصغر، يحج إليه كل أطياف المجتمع المتعلمون، وبسطاء الناس، التجار والأصناف، ورجال الأعمال، والشباب والشيوخ والكهول.. وللنساء كذلك حظ في الإنصات إلى دروس الأستاذ ومواعظه وخطبه من وراء حجاب.

الفضاء نظيف ومنظم، يرحل بمرتاديه إلى عصور سالفة عندما كان المسجد جامعة بكل ما تتصف به الجامعات المتقدمة في أيامنا، وعندما كانت المدارس والزوايا والتكايا تؤدي واجبها ومهمتها على أكمل وجه. جامعة الأستاذ جامعة مفتوحة على كل الآفاق، وهي مفتوحة الآن في بنسلفانيا، والله وحده يعلم أين تفتح غدًا.

تجليات إشراق هذه الجامعة كأنها إشراق واحد ممتد من الأناضول إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وممتد من الماضي إلى الحاضر، لكنها مع فتح الله كولن مفتوحة بإشراقه على العصر وتقنياته.

المجلس تجسيد صادق أمين لبعض نصوص فتح الله كولن حين الحديث عن «جيل الأمل» المُحدِث التغيير والكاسر التبلد الذي أصاب العقول ردحًا من الزمن، جيل يأخذ بناصية العلم وقابليته لتوظيف العلوم والتكنولوجيا في إحداث التغيير.. إنه تجسيد لنبوءة النورسي بأن الإنسانية كلها ستتجه إلى العلم وإلى التكنولوجيا، وهي في حلقة الأستاذ للرفع من شأن العلم والمعرفة، دون المساس بعمق وظيفة المجلس.

نكران الذات كلمة سحرية ومفتاحية، تفتح للنجاح والتوفيق مسارات عديدة. الأستاذ فتح الله كولن نموذج مثالي لهذه القيمة الأخلاقية النادرة، تجده أمام طلبته مبديًا ملاحظاته بتواضع جم، قد لا تجد من يماثله عند أهل العلم في هذا العصر.. علّق أحد الطلبة النجباء، ممن يعرفون الأستاذ معرفة قريبة واطلع على بعض تفاصيل عالمه العرفاني ولازمه ردحًا مهمًّا من الزمن، فردّ الأستاذ على ما يقوله طالبُه: جزاك الله خيرًا صحِّحْ لي أخطائي، فأنا كثير الأخطاء.

سبحان الله هذا السارية وهذا الرجل المهيب وفي مجلسٍ حج إليه الناس من كل حدب وصوب من أجل الظفر بمجرد التفاتة بطرف عين منه، والاستفادة من علمه وعرفانه، والتلذذ بحضور مجلسه.. يتواضع أمام طلبته، معتذرًا بتواضع جم لا نظير له! ما أعظمه من رجل.

وجب التذكير بأن الحلقة محورَ الحديث، توجد في الولايات المتحدة الأمريكية، حلقة درس تحفّها الأنوار وتؤطرها الشريعة، وتقام على هدى من الله ولسان حالها يقول «نور الله أكبر من الفضاءات وأوسع من الجغرافيا الضيقة»، مجلس يوجد فوق الزمن والمكان

والأحداث، لا تستباح فيه حرمات الله ولا مخلوقاته، بل تجد الأستاذ ورجاله أكثر حرصًا على إبداع السبل لفتح القلوب وإنقاذ الإنسان والعالم من مشاكله بالحكمة والموعظة الحسنة.. مجلس لسان حاله يقول «اللب والعمق هو الأصل، وأما التفاصيل فثانوية لكن دون إهمالها»، فهي ذات حظ في رؤية الأستاذ، وهي الوجه الذي تطل به على العصر، ولولا بعض التفاصيل لما خرجت حلقة الأستاذ عن مجرد تكية.

النظام والترتيب وروح العصر والتكنولوجيا، هذه كلها تفاصيل يعتني بها الأستاذ وينبه إليها، لكنها ليست كل شيء، وكأني به يقول اعتنوا بالقاع ولا تركزوا على الأمواج المتلاطمة على السطح، ولكن ركزوا على الأمواج الصاعدة من القاع.

دخول الأستاذ، انطلاق المجلس

يدخل الأستاذ المجلس كسارية، يسير بهدوء الواثق من نفسه، فهو الأسد في عرينه، يقف بعض الحضور وبعض طلبة الأستاذ، يطلب منهم الجلوس، متمتما ببضع كلمات ترجمها الذي كان عن يميني: «لا تقفوا لي فهذا يزعجني».. مسلك يرغم «التسفير» الذي يريد المكوث

فيه رغم كل شيء، بل هو مقام «المحاسبة» الذي يصر على ضرورة البقاء فيه رغم كل شيء. تذكرت في هذه اللحظات بعض علمائنا الذين تأخذهم العزة بالمقام والمنصب، وينسون التواضع الذي هو نافلة العلم.

يبدأ المجلس؛ هالة من الوقار والاحترام تحف جنباته، الكل منصت ومنفتح الجوارح والعقل والقلب في انتظار الواردات. الطلبة أكثر يقظة، متوجهون ينتظرون إشارة البدء كأن على رؤوسهم الطير. بدأ الدرس بجولة بين رقائق رسائل النور، فهي الإطار الفكري والمعنوي المقوي للإيمان، والاستشعار بالوجود وما فيه من كائنات كبر شأنها أم صغر في دائرة المعرفة اليقينية بالله ﷻ. النص معروض على شاشة كبيرة يقرأه أحد الطلبة من شاشة أمامه. هو يعرف مهمته قبل انطلاق الدرس، ولا شك أن الأستاذ قد أرسى قواعد نظام تدبير الدروس.. أما الأستاذ فكان يتابع في شاشة أمامه، يقف بين الفينة والأخرى ليعلق ويشرح ويضيف.. لقد قُرئت الرسائل مرات كثيرة في مثل هذه الحلقات، كما تقرأ بانتظام في مختلف الحلقات التربوية التي تقام في مختلف مناطق العالم. رغم مرور عقود كثيرة على قراءة هذه الرسائل، ما تزال مصدر إلهام عند الأستاذ فتح الله كولن. يغمرني شعور بأن لا أحد فهم الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي واستوعب عالمه كما الأستاذ فتح الله كولن. «ما أجمل تعاليق الأستاذ» قال الذي كان إلى جانبي.

قراءة «رسائل النور» مكون مهم في منهج الأستاذ فتح الله كولن، لقد استوعب النورسي اللحظة التاريخية التي عاش فيها وكان خير شاهد عليها. لقد عاش الرجّة العنيفة، وأدرك أسباب الأزمة الحضارية التي عرفها العالم الإسلامي، ووعى أسباب الزلزال كما لم يعها أحد آخر من رجال العلم والسياسية في عصره. وأما فتح الله فأهم من أدرك إشارات الأستاذ النورسي وحلولَه وعمل على تطويرها، والأهم من ذلك هو أنه صبغها بروح العصر، الأمر الذي سهّل تنزيلها. تعليقات الأستاذ فتح الله على الرسائل في هذا المجلس تتسم بالجدة، ولماذا تتسم بالتكرار وهو يقرأها في ضوء مستجدات العصر.

راودني إحساس والحضور يتابعون النص على الشاشة أنهم يعرفون النص وقرأوه مرات عديدة وبأن جوارحهم وآذانهم تترقب مع ذلك -ودائمًا- رؤية جديدة للأستاذ وتعليقة تنطلق من هذه الرسائل، ومنهم من جاء فعلاً لهذا. كنت أتابع النص بالعربية، هيّئ لي بأنه اختير بعناية فائقة، قلت مع نفسي ليس هناك أفضل من رسائل النور تهيئ الأفئدة لاستقبال الواردات المعرفية من الأستاذ، فهذه الرسائل نوع من المقبلات لتهيئة الأفئدة وخاصة أفئدة الطلبة.

الأستاذ فتح الله كولن مع الأستاذ سعيد النورسي

لقد تحدث الكثيرون عن النورسي وعن رسائله، ومنهم من نذر حياته كلها لخدمة رسائل النور والتعريف بها، لكن لا أعرف رجلاً تحدث عن الأستاذ النورسي وعن رسائله كما تحدث الأستاذ فتح الله كولن؛ لقد أكسب النورسي ورسائله وكذلك خدمة هذه الرسائل، قيمة عظيمة وانتشارًا واسعًا في العالم كله، فلقد عُرف الأستاذ النورسي في العالم وخاصة في العالم العربي من خلال الأستاذ فتح الله كولن بوساطة «الخدمة».

في كلام الأستاذ فتح الله كولن عن النورسي حبّ لا يوصف وتقدير لا يضاهى ولا يوزن.. العلاقة أكبر من التتلمذ، إذ لكل واحد منهما مهمة ودور أدّاه على الوجه الأكمل الواجب له؛ الرجلان معًا يشربان من معين واحد، شرب الأول من مشكاة النبوة الصافي، وأدى وظيفة ومهمة، وبلّغ على الوجه الذي بلغ بمهمته إلى الحد المأذون له، وعلى الوجه الذي يرضي الله ﷻ، لتبدأ مهمة الآخر للدفع بهذه المشكاة إلى ما شاء

فتح الله كولن في بنسلفانيا يمارس وظيفته التي دأب على القيام بها منذ أكثر من خمسين سنة، وهي التدريس وتأليف الرجال الذين يرشدون الإنسان، وتأليف الأفكار التي تبني الإنسان.

الله ﷻ. وكأني بمهمة فتح الله كولن مفتوحة على المستقبل أكثر من انفتاحها على الحاضر بعد إضافة العمق والمعنى.

الكتب التقارير والعلم والمعنى

وما يقف عليه ضيف جامعة الجامعات، وتجسده «الخدمة» بنشاطها الفعّال وعملها المستمر المتواصل، تنزيل لما يتحدث عنه الأستاذ في كتبه، ولعل هذا الذي حرك سؤالاً طالما تساءلته: هل كتب الأستاذ وخاصة «ونحن نقيم صرح الروح» و«ونحن نبني حضارتنا» تقارير عن الخدمة، كما يعنّ لي؟

المتنعم الذي يقارن بين النظر المتضمن في الكتابين، وما ينجزه أهل الهمة، والجيل الذهبي الذي بشر فتح الله كولن ببزوغ أوانه، قد يجزم بأن الأستاذ قد حرر تقارير تصف حالاً يراه بأم عينيه، ويلمسه بيديه ويداعبه بأنامله.. وأما الذي أجده في أعماقي، وبمنطق القلب والوجدان، فالتفسير الأقرب هو أن فتح الله ينظر إلى أحوال عالم آخر مواز لعالم الحوادث هو عالم المعنى، وهو عالم قريب منه، وكأن الأستاذ يعيش بجسده في عالم الشهود، ويعيش بقلبه وروحه حياة أخرى موازية في عالم الأرواح والمعاني كما قال أحدهم.

مجلس الأستاذ فتح الله كولن مجلس تربوي عرفاني في المقام الأول، وبكل ما يتضمنه ذلك من دلالة، مجلس يرتقي الحاضرون فيه المقامات، كل حسب استعداده الروحي وصفاء طويته.. لم أشك لحظة واحدة وأنا في تلك الحضرة العرفانية أن بين الحضور من يتحكم في ناصية ما حصله من معارف وعلوم وتجربة دنيوية، كل واحد حسب تخصصه، وكل واحد يدرك حاجته، ومدى افتقاره إلى الروح والمعنى، ويعرف أن العلم بلا روح، كالهياكل الفارغة من المضمون والأشكال الخالية من المحتوى.. العلم أحوج ما يكون إلى المعنى الذي يربطه بنظام الوجود في دائرة المعادلة والتوازن الذي فطر عليه هذا الوجود.

المجلس وأفق عصر السعادة

يشعرك مجلس فتح الله كولن أن الأفق الذي يوجد فيه أفقٌ مختلف، والإيقاع الذي يتحرك به ليس إيقاع اللحظة، بل هو إيقاع مفتوح على زمن آخر وعصر آخر -طالما ذكره الأستاذ في أدبياته- هو عصر السعادة.. وكأن المجلس نسخة مقتبسة من مجلس الرسول ﷺ وقد تحلق حوله الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، يربيهم ويعلمهم ويشاورهم في أمـور الإنسانية ومستقبلها في ذلك الحاضر.. يهيأ لي أن ذلك المجلس لم ينفضّ منذ ذلك الوقت وهو مستمر إلى ما شاء الله ﷻ.. مجلس واحد تملؤه وجوه نيرة من كل عصر بأبعاد متعددة ومقامات متنوعة، مجلس فوق الزمان والمكان، والمعنى الذي يحفه من تلك الروح وتلك الشحنة التي وجدها الصحابة وهم يتحلقون حول أستاذهم.

الوفاء لروح المكان

قبل حوالي عشر سنوات، كنت على موعد مع فرصة ذهبية أدركت أهميتها بعد مضي سنوات؛ فقد حضرت مؤتمرًا في إسطنبول، وبعد المؤتمر وجدت نفسي ضيفًا في «أَلْتُونِي زادَه» حيث كان يقيم الأستاذ فتح الله كولن ويؤدي المهمة التي يؤديها اليوم بكل اقتدار في عمق الولايات المتحدة الأمريكية.

اليوم ازداد يقيني بأني كنت على موعد قدري في هذا الفضاء مع ثلة من العلماء الأفاضل، لست من العلماء

النظام والترتيب وروح العصر والتكنولوجيا، هذه كلها تفاصيل يعتني بها الأستاذ فتح الله كولن وينبّه إليها، لكنها ليست كل شيء، وكأني به يقول اعتنوا بالقاع ولا تركزوا على الأمواج المتلاطمة على السطح، ولكن ركزوا على الأمواج الصاعدة من القاع.

بالطبع، لكني بقدرة القادر وجدت نفسي معهم، أذكر منهم فريد الأنصاري رحمه الله تعالى، والشاهد البوشيخي، ومصطفى بن حمزة، وحسن الأمراني. لم أكن قد عرفت الأستاذ فتح الله بعد، ربما ذكر اسمه أمامي، لكن لم يكن ليثير عندي أي شعور، لأني لم أكن قد تجاوزت عتبة رسائل النور بعد، كانت الرسائل بالنسبة لي حينها كنزًا وقعت عليه، وأقصى وعي للمرحلة، لم أكن أدرك أني على موعد مع أفق آخر بعد عتبة رسائل النور.

صعدت إلى الطابق الخامس، جلست في حجرة الدرس في مواجهة مجلس من مجالس الأستاذ، التي كان الأستاذ يجلس عليها لأداء وظيفته، علمت فيما بعد أن لكل كرسي وقتًا، وهذا ما وقفت عليه في بنسلفانيا. كنت أحاول رسم صورة لهذا الرجل وأحاول مطابقة هذا المشهد في دائرة ما وجدت في رسائل النور، لا شك أن الذي انتابني وقتها هو أن الأستاذ أحد تلاميذ الأستاذ النورسي.

كنت ألحظ علامات الإعجاب والتقدير في عيون الأساتذة الذين كنت ضيفًا معهم. كان المكان خاليًا من المحبّين والطلبة، لأن الأستاذ كان في أمريكا، كانت رهبة المكان وسكونه تشعر بالسكينة، غياب الأبدان والأجسام لا يغيب الأرواح، كنت أشعر بأن روح هذا الرجل موجودة رغم أني لم أكن قد عرفته بعد. كان بعض تلامذته والرجل الطيب «مهمت أبي» (محمد) الذي كان لسنوات في خدمة الأستاذ، يتحدثون عن الأستاذ بكل حب حتى العشق، وربما اعتبرت ذلك نوعًا من المبالغة. كان هؤلاء جميعًا يعيشون على أمل رجوع الأستاذ في يوم من الأيام حتى يعود للفضاء نشاطه وحيويته. الفضاء لم يعرف أي تغيير، نظافته وترتيبه ونظامه يوحي بأن الأستاذ موجود، وهو فعلا موجود، ربما يغيب ببدنه لكنه موجود بروحه، طيفه يملأ المكان، عبير أنفاسه ما يزال موجودًا.

يربط الأستاذ وشائج علاقة حميمة مع الفضاء والأماكن التي يقيم فيها، ويعسر عليه تركها من كثرة وفائه لها، لأنه يعتقد بأن للفضاء روحًا تشهد استحضار عظمة الخالق، وعندما يترك مكانًا يتركه على مضض، وتحت ضغط الإصرار. لقد ربط الأستاذ علاقة خاصة مع هذا النوع من الأماكن، في بنسلفانيا استغرق انتقال الأستاذ من المكان القديم إلى المكان الجديد وقتًا. المكان الأول قريب من الحالي في المخيم نفسه، وهو أوسع ومهيأ بصورة كاملة لاستقبال ضيوف أكثر.

شهد المقر القديم تدعيم حضور الخدمات في أمريكا، كل الذين كانوا مع الأستاذ في مرحلة التسعينيات، يؤكدون أن «الخدمة» عرفت دفعة نوعية عند قدومه إلى أمريكا. طيف الأستاذ لا يغادر الأماكن التي أقام بها وخاصة تلك التي تشكل جزءًا من حياته الحركية.

زرت المكان القديم، بُعْدُ القدم هنا صوري فحسب، فهو قديم بحكم الترتيب الزمني، لم يفقد رونقه رغم بساطته، مظاهره تدل على أن الأستاذ ما يزال موجودًا في المكان رغم ضيقه مقارنة بالفضاء الجديد.. يشعر الزائر أنه واسع سعة العالم كله، بما شهده من جلسات للدعاء والذكر، وبما شهده من جلسات للعلم والمعرفة، وبما شهده من جلسات إعداد مشاريع جديدة في أمريكا على الخصوص.

تناولنا طعام الغداء في غرفة خصصت للضيوف، وهي غرفة كان الأستاذ يستقبل فيها ضيوفه.. انتابني شعور بأني لا أستحق كل هذا الاهتمام، فمَن أكون حتى تفتح في وجهي هذه الفضاءات التي شهدت لقاءات مع شخصيات اجتماعية وثقافية ومدنية وفكرية وسياسية وازنة، لكن..

أثناء الحملة المسعورة التي شنها بعضهم على فتح الله كولن وعلى «الخدمة» بعد الاتهام بالوقوف وراء فضح أعمال الفساد التي تورط فيها شخصيات وازنة في هرم السلطة.. أثناء هذه الأحداث طالبت هذه الأطراف الولايات المتحدة الأمريكية بتسليم فتح الله كولن، باعتباره مسؤولاً عما أسموه العقلَ المدبّر لانقلاب مزعوم، وبثت بعض القنوات التلفزية الرسمية صورًا عما أسموه القصر الذي يقيم فيه، وكانت الصور المعروضة والملتقطة بطائرة من الأعلى، صور المخيم حيث يوجد المقر الذي يقيم فيه الأستاذ. وعلى الرغم من كون هذا المخيم يوجد في وسط غابة ممتدة وفضاء طبيعي يساعد على التأمل وعلى التدبر وعلى الاسترخاء الروحي، إلا أنه أبعد ما يكون عن القصور وعن الإقامات الفخمة. هناك نظام وجمالية، لكنها بالمرة ليست قصرًا.

غرفة بسيطة تطل على الجنة

حُزت زيارة غرفة الأستاذ حيث يمضي أغلب وقته خارج أوقات الدرس والصحبة والذكر والصلاة.. غرفة بسيطة أبسط من أبسط غرفة قد يتوفر عليها أحدنا.. غرفة متواضعة تليق برجل عابد زاهد في الدنيا وما فيها متعلق قلبه بالآخرة.. غرفة تؤكد محتوياتها أن محور حياة من يقيم فيها هو التبليغ.. رجل جعل السعي إلى ربط حياة الناس بالله غاية وجوده.. غرفة بسيطة لكنها منظمة تختزل حياة الأستاذ ونظامه اليومي الذي تدور عقاربه حول أوقات الصلاة، لأن فتح الله لا يمكن أن يعيش حياة غير منظمة، لأنه حدد هدفه ووعى غايته..

الفراش الذي يستلقي عليه الرجل الذي بلغ من السن عتيًّا بسيط إلى درجة الخشونة، لا أظن أن رجلاً مثله ينام، وكيف ينام من يحمل همّ الدنيا كليًّا ويعيش بتلك الأهـداف والغايات.. من يرى فتح الله ويقترب من عالمه، يدرك أنه ليس بالرجل النوام، وحتى إذا غفت عينه فقلبه دائمًا متيقظ.. هذا ما نبض به قلبي وأنا في هذه الغرفة.. خجلت من نفسي حين شعرت بخشونة تحت القدمين في غرفة الأستاذ؛ لأني أسير على حصير خشن وبسيط.. كنت أنتظر سجادًا ناعمًا، لكن خاب ظني.. فالأستاذ يتحرك في غرفته على مجرد حصير، هذا هو سر توفيق الله له.

مكتب عليه حاسوب، ومكتبة تضم بعض أمهات الكتب، وكتب أخرى ربما بعض ما كتب عن «الخدمة» وعن الأستاذ. تمنيت لو وقعت عيني على الكتاب المتواضع الذي ضمنته بضع ملاحظات عن الأستاذ وعن الخدمة، إذ سأكون أسعد إنسان إذا علمت أن الأستاذ اطلع على هذا العمل المتواضع.

غرفة مليئة بالرمز والإيحاء، كل الأثاث على بساطته يحمل رمزية ويوحي بشيء.. وقفت من بعيد أتأمل هل أستطيع فك لغز هذه الغرفة؟ مر بخلدي في

تلك اللحظة أن صاحب الغرفة حريص على التأسي بالرسول ﷺ وبصحابته رضوان الله عليهم أجمعين.

انتابني شعور بأن هذه الأحوال هي السر الكامن وراء قبول الرجل عند الناس ومحبتهم له، وانتشار أفكاره ومنجزاته.. تذكرت قول أحد الأحبة: «رجل ينطق كلمات فتتحول إلى منجزات ومؤسسات ومدارس ومعاهد وجامعات.. إنه الصدق والإخلاص والإيمان، والزهد في الدنيا». من داخل هذه الغرفة التي اتخذ منها الأستاذ مكتبًا ومنامًا يفكر في حلول للإنسانية كلها، لا أعرف رجلاً يحمل همّ العالم كله مثلما يحمل فتح الله كولن.

في ركن من هذه الغرفة احتلت بعض الرفوف مكانًا من الغرفة يوجد عليها زجاجات وقوارير تحتوي أتربة؛ علمت أن المكتوب عليها هي أسماء مناطق مختلفة من بلاد الأناضول، الموطن الذي يكنّ له الأستاذ تقديرًا خاصًّا في قلبه، ويعيش على أمل العودة إليه في يوم من الأيام. أظنه غادر وطنه بالبدن لكن روحه ما تزال هناك، لكن ليس هناك تفسير آخر لهذه الصورة الشاعرية سوى الحب والإخلاص للأوطان.. ألم يقل الرسول ﷺ بأن حب الأوطان من الإيمان.. وهو كذلك الحس الشاعري المرهف، والوجدان المفعم بالمعاني السامية. وإذا كان الأستاذ شاعرًا نذر شعره لإبراز همومه وآماله بخصوص الإنسانية، فإن مشهد زجاجات تراب تركيا، صورة شعرية بامتياز تلخص إلى حد بعيد شخصية الأستاذ ونفسيته، وتلخص وفاءه لروح المكان.

رهافة إحساس هذا الرجل لا مثيل لها، يجهش بالبكاء لبكاء الآخرين.. أجهش الذي كان معي بالبكاء وهو يتحدث إلى الرجل عن الرجل، فأجابه الرجل بدموع منهمرة في اللحظة والحين، وكأنه تلقف من بعيد إيقاع دواخل صاحبي، وتلقف أمارات الدموع، فأسرعت دموعه كأنها تريد غسل همومه بدموعه.

إيقاع حياة مختلف

الأستاذ لم يعش حياته كما الآخرين، فهو لم يتزوج، ولم يجد الوقت لذلك، بالنظر إلى أن إيقاع حياته كان دائمًا مطبوعًا بعدم الاستقرار، وربما هذا هو السر في محبة الأستاذ للأطفال محبة عجيبة، يحنو عليهم كما يحنو الآباء على أولادهم أو أكثر، خصهم بكتاب خاص ترجم إلى العربية قبل فترة قصيرة.. لم يرزق الأستاذ أولادًا، لكنه يعتبر جميع الأطفال أولاده، ولذلك في معاملته لهم لا ينسى مهمته الأصلية وهي التربية والتعليم.. قبل جلسة من الجلسات، يسمح لبعض الأطفال -بالأحرى

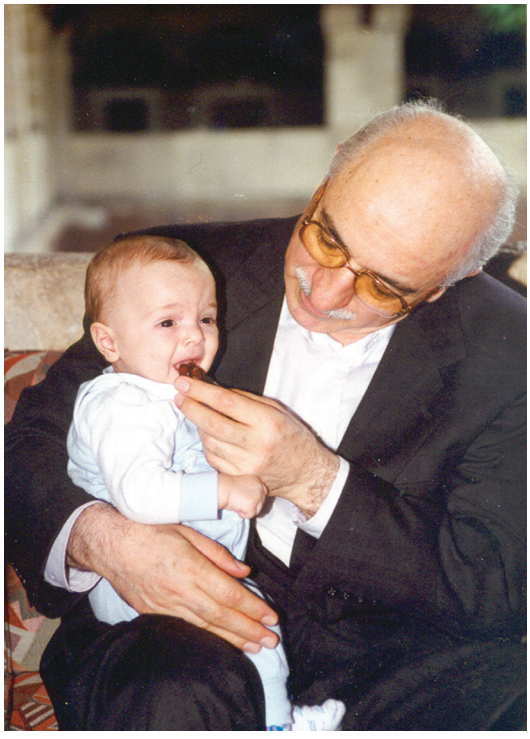

لكل الأطفال الحاضرين في المخيم- بالدخول إلى قاعة الدرس والصلاة، يدخل الأطفال ببراءتهم وابتسامتهم فيقابلهم بنفس البراءة وبابتسامة عريضة، يمسح على رؤوسهم، يقبّلون يده يحاول سحبها برفق دون المس بمشاعر هؤلاء الأطفال، ثم يسلم كل واحد منهم قطعة حلوى، يتناولها من صندوق عن يمينه.. ما أرقه من موقف! حتى في مثل هذه المواقف الممتلئة بالمشاعر الصادقة والممتلئة بالحب والأشواق النبيلة، يخيل لي بأن الأستاذ لا يترك مهمته الأصلية التربية والتعليم؛ إذ بتصرفاته هذه مع الأطفال، يعمل على توجيه رسائل سلوكية وتربوية عن الأسلوب الذي يجب التعامل به مع البراعم الصغيرة، التي تحتاج من خلال تصرفات الأستاذ معهم إلى عناية واهتمام خاصين.. فهو يرى فيهم ثمارًا للمستقبل، ولذلك وجب العناية بهم.

أيقظتْ تصرفات الأستاذ مع البراعم الصغيرة جملة من الملاحظات وقفت عليها في نصوص شعرية في «ألوان وظلال»؛ حيث يغازل الأستاذ الأمل الذي يتطلع إليه من خلال براءة الأطفال، ومن خلال إيقاع الهم الثقيل الذي يسكنه، حاملاً إياها بين جوانحه عمرًا بكامله.. حيث تلمس في هذه النصوص أن الأستاذ متطلع إلى سبيل لإنقاذ البعد الإنساني في هذه البراعم، حتى لا تقع لقمة سائغة في براثن وحش الانحراف الفكري والثقافي.

مجلس الأستاذ كله رسائل مرموزة يتلقفها أصحاب الهمة العالية لترجمتها إلى حركية.. فاعتناء الأستاذ بالأطفال وتخصيص حيز لهم في جلسته، إشارة إلى أهمية خفض الجناح لهذه البراعم الصغيرة.

مخيم لبناء الرجال

إذا قال أحدهم بأن المخيم أكاديمية لبناء الرجال فقد صدق. الأستاذ فتح الله كولن في معتكفه، منقطع

> الأستاذ فتح الله كولن حريص دائمًا على تأكيد أن القيم والأخلاق لغة عالمية وسبيل للنجاح في كل مكان، يقول لأبطال المعنى: احرصوا على تمثيل قيمكم وثقافتكم تنجحون في الوصول إلى القلوب، وإذا قال هذا الجيل "المسلمون طيبون"، فإن أبناءهم سيحبون الإسلام والمسلمين بالتأكيد.

للعبادة بمفهومها الواسع العريض، العبادة هي المحور الذي تتمحور حوله الحياة في المخيم.. لكن العبادة هنا ينبغي النظر إليها ببعد أوسع؛ فتكوين الرجال وبناء الهمم العالية بُعد من أبعاد هذه العبادة. لا شك أن الأستاذ يباشر بصورة مباشرة أمور «الخدمة»، وهو يعتبر نفسه -فيما لمستُ ولاحظتُ- ملزمًا بذلك ما دام قد أخذ على عاتقه تقديم الأمل للإنسانية كلها بالقيم والأخلاق والمحبة والتسامح وخفض الجناح والتجاوز عن كل من بادر بالإساءة.. هكذا رأيت الأستاذ، وهذا هو ما شعرت به. ولذلك فإن الرجال الذين يأتون إلى هذا الركن الحي من العالم، تغمرهم رغبة البقاء إلى جانب الأستاذ، لأنه رجل لا تمل معاشرته، ولا يمل الجلوس إليه ومعه، والتلذذ بكلامه والاستمتاع بالجو الروحاني والمعنوي والتربوي الذي يعمه كأن نوافذه مفتوحة على نسائم الجنة.. لكن كل الذين حضروا يعلمون علم اليقين أن هذا الأمر بعيد المنال، خاصة مع رجل يرفع من شأن الحركية ويفضل العامل على القاعد، حتى أولئك الطلبة الذين يختارون بعناية خاصة للتتلمذ على يديه والاستفادة من الشحن الروحي الذي يبثه الأستاذ فيهم، يعلمون علم اليقين أنهم في يوم من الأيام سيحملون المسؤولية الكبرى خارج الأكاديمية أو

جامعة الجامعات. تذكرت قصة أحد الأحبة أقام عند الأستاذ أكثر من عقد من الزمن وحفظ القرآن عنده، لكنه ما لبث أن حمل مسؤولية القيام بالواجب فهاجر إلى مكان قصي من العالم لا يفكر بالعودة مرة أخرى مثل الصحابة رضوان الله عليهم أجميعن.

رجال أمريكا وإجازة الأستاذ

تعرفت خلال هذه الزيارة المباركة على همة من حظي بشرف التلقي من الأستاذ في مجلسه، أحدهم يشرف على قناة للتلفزيون، شاب لا تكاد الابتسامة تغادر محياه، وتترك البشاشة سحنة وجهه -كأنه خُلِق مبتسمًا- مع تواضع جم، عندما يتكلم تلمس في عباراته أنه صاحب معرفة واسعة وعلم وفير، لكنه فوق ذلك يبدو مجربًا صقلت التجارب علمه، لكن تواضعه الجم يشعر من ينصت إليه بالخجل، لأنه وهو يتحدث يحاول عبثًا إبراز أنه مجرد مبتدئ وفي حاجة إلى ملاحظات الآخرين وخاصة من ينصت إليه، لكن فاقد الشيء لا يعطيه.. ما ألطف تلامذة الأستاذ ومحبّيه، ينكرون ذواتهم.. لقد أصر على أن تكون نظرته لمن كان معي من العالم العربي أنهم علماء.

همة أخرى تشرفت باللقاء بها، إنه عميد «جامعة الاحترام» (Respect) القريبة من المخيم في بنسلفانيا، شاب بشوش متحمس، شعلة من الحركية والذكاء والتواضع، تخرّج من حلقة الأستاذ وعُيِّن للإشراف على شؤون الجامعة، هو خريج الإلهيات، لكنه تمكن من الحصول على الدكتوراه في أمريكا وحصل في الوقت نفسه على إجازة الأستاذ. تركز الجامعة على مكون التسامح والحوار صرحًا للدراسة والتكوين. شاء القدر أن نلتقي ونحن نزور الجامعة بحلقة تكوينية، طلبتها يحضرون الدكتوراه.. اللافت للنظر هو أن الطلبة من الجنسين، وأغلبهم من تخصصات تقنية وهندسية دقيقة، ولم يمنعهم ذلك من التفكير في توسيع تكوينهم في مجال العلوم الإسلامية.

مفهوم الإجازة مصطلح تقليدي يختزل عملية طلب العلم وإتمام ذلك في المدرسة التقليدية، وهو مؤشر على اكتمال شخصية طالب العلم لدى شيخ من المشايخ، والوصول إلى مرتبة الأهلية المعرفية لرواية العلم وتدريسه، وتدل في بعض الحالات على أهلية طالب العلم العرفانية، وهذه يمنحها شيخ الطريقة في الغالب في بعض المدارس الصوفية.

مدرسة الأستاذ فتح الله كولن تشتغل على هذا المنوال، وهو المنوال نفسه الذي حصّل الأستاذ به معارفه وخاصة في المراحل الأولى لحياته، أهّله في وقت من الأوقات ليتصدر للإمامة وللخطابة في مساجد "أدرنة" ثم في "إزمير". لقد حافظ الأستاذ على عمق المدرسة التقليدية، وحافظ على كنهها، لكنه في الوقت نفسه جدد في الشكل وفي المنهج والأسلوب، وربط الإجازة بعنصر ثالث -إلى جانب المعرفة والعرفان- وهو الحركية؛ أي مقدرة المريد على المبادرة وعلى الحركية. فالقضية هنا تتعلق بالعقل والقلب والروح والحركية، منهجه يقوم على ربط المريد بالعصر، وتحويل العلم الشرعي المحصن بالعرفان إلى ممارسة. وتجربة "الخدمة" في أمريكا تجسيد عميق لهذه الرؤية، كما سنعمل على إبرازه في مكان لاحق من وصف هذه الرحلة.

لم يخرج الأستاذ عن منهج رسول الله ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن، إذ إن كل من يجيزه الأستاذ صار مؤهلاً لتحمّل مسؤولية تدبير شؤون الخدمة، من خلال مدخل الهجرة الذي عرف مع الأستاذ بُعدًا أوسع

وأعمق. فكل طالب علم في حلقة الأستاذ هو معاذ بن جبل، وسيتحمّل المسؤولية الحركية في الواقع، وتنزيل ما شحنه به الأستاذ من قيم وفهم وتجربة ووعي.

تضم حلقة الأستاذ في أمريكا جنسيات مختلفة، فطلبة الأستاذ ليسوا جميعًا أتراكًا، بعضهم من بعض دول البلقان الذي يحظى بعناية خاصة من فتح الله كولن، وهناك خدمات خاصة تقدم للجالية البلقانية في أمريكا يشرف عليها رجال تلقوا تكوينهم في مدارس «الخدمة» في البلقان، وضمنهم كذلك بعض الطلبة من دول العالم التركي، الذي أولاه الأستاذ عناية خاصة منذ ثمانينيات القرن الماضي. ضمن طلبة الأستاذ تعرفتُ على شاب وسيم من العالم العربي من بلد الكنانة مصر، حظي بشرف الالتحاق بمدرسة الأستاذ، بعد أن درس في مدارس «الخدمة» وبعد تخرجه من الجامعة ومن الأكاديمية في إسطنبول، التحق بحلقة الأستاذ في أمريكا في انتظار شرف التكليف بخدمة بعد حصوله على الطاقة اللازمة لذلك.

علم الرجال

في درس الحديث النبوي يسترعي الملاحِظ اهتمام الأستاذ بعلم الرجال، فالحلقة تولي الرجال عناية خاصة، وأهم ما في ذلك هو الحرص على ذكر ما يميز هؤلاء الرجال من جهة الضبط والسلوك والهمة العالية.. فالأستاذ حريص على النظر إليهم باعتبارهم هممًا يجب الاقتداء بهم لمساهمتهم في بناء صرح الحضارة.. تعرض أسماء الرجال على الشاشة الكبرى، وعلى الشاشة أمام الأستاذ، لا يفوت الأستاذ فرصة التعليق والشرح والإضافة على كل ما يأتي به السارد، ولا يفوت المتحلق تسجيل ما يعلق عليه الأستاذ من جواهر. رغم أني لا أعرف التركية، إلا أني أستطيع إدراك أن تعليقات الأستاذ بمثابة جواهر فكرية يسرع المتحلق بتسجيلها، فإضافات الأستاذ دائمًا جديدة ونكت فكرية ومعرفية قلما تتكرر.

المتنعم في منهج الأستاذ يستشف بأن الماضي بالنسبة للرجل قيمة يتوجب أن تعاش من أجل تقديم الدعم للحاضر والمستقبل. هذا ما دار في خلدي وأنا في حلقة الأستاذ كالمذهول، لأن الحلقة ترحل بك بعيدًا كآلة لاختزال الزمن، تخترق الحواجز والحدود والموانع وتعود بمن فيها إلى عصر السعادة دون أن تغادر مكانك. لقد قرأت عن مثل هذه الحلقة من خلال بعض الوثائق، ومن خلال ما تفضل بعضهم بوصفه، لكن أنا الآن أعيش الحدث، لكن في أمريكا حيث أقام الأستاذ تلك الخيمة التي طالما حلم بها.

قال أحدهم، الأستاذ يقول: «التربية لغة عالمية»، لكن واقع الحال يؤكد ذلك ويدعمه، لأن الأصل عند الأستاذ هو العمل. فهو لم يتوقف طيلة حياته عن مهمة التعليم وعن مهمة التربية، وهو في أمريكا يبدو أكثر التزامًا بهذه الوظيفة السامية؛ لأن أمريكا تحتاج إلى ذلك وتساعد عليه، لأن نظام القوة الأولى في العالم يقوم على المبادرة وعلى التنوع، وهي تمد يدها لكل من يريد تقديم الجديد.. كن كما أنت بثقافتك، لأن هذا البلد يعتبر التنوع الثقافي عنصر قوة.. وكون التربية لغة عالمية يدعمه إلحاح الأستاذ على أن يكون شعار أبناء «الخدمة» هو تمثيل القيم الأخلاقية التي حملها محمد ﷺ.

يقول: إذا قال الأمريكيون اليوم: «المسلمون طيبون، فإن أبناءهم سيحبون الإسلام والمسلمين بالتأكيد». لا شك في أن لغة القيم لغة عالمية، وهذا هو عمق ما يحمله الأستاذ فتح الله كولن إلى مركز العالم المعاصر. ■

حـركـة كـولـن
تحليل سوسيولوجي لحركة مدنية جذورها الإسلام المعتدل

عبد العزيز الإدريسي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي تخصص التربية الإسلامية. رئيس مؤسسة القاضي عياض لخدمة الحديث الشريف والسيرة العطرة، بمدينة أسفي بالمغرب. مقرر الفرع المحلي للجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية. أعد أطروحة الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة الجديدة في موضوع «المنظور السنني في مشاريع الإصلاح المعاصرة: الأستاذ محمد فتح الله كولن نموذجًا». شارك العديد من ندوات محلية ووطنية ودولية.

يؤكد هذا العرض على أن حركة الخدمة المستوحاة من أفكار الأستاذ فتح الله كولن، لم تنظم رسميًّا أو تهيكل هرميًّا، وإنما هي شبكة دعم منسقة متراخية من الدوائر المحلية، ولكل منها حكمها الذاتي من حيث المحتوى وتواتر الاجتماعات وتنوع الأعضاء والمشاريع.. وتلك البنية موجودة على مستوى القاعدة لتعزيز الالتزام والمشاركة، حيث لا يتم إنجاز شيء إلا بمشاركة المحبّين، وبشعور بالمسؤولية من قِبل ملايين من المشاركين الذين لديهم رؤية وطموح والتزام. ويستنتج العرض أن حركة الخدمة مبادرة مدنية عالمية جذورها الإسلام الوسطي المعتدل، تهدف إلى تحقيق التعايش والسلم العالمي.

الكتاب الذي بين أيدينا من إصدار «مركز نماء للبحوث والدراسات» في طبعته الأولى، سنة ٢٠١٥م والذي يقع في ٣٠٤ صفحة، من تأليف الكاتبة الأمريكية «هيلين روز ايب» (Helen Rose Ebaugh)، وترجمة الأكاديمية المصرية "مروة يوسف"، ومراجعة الباحث "أحمد العزبي". تكمن أهمية الدراسة التي يتضمنها هذا الكتاب، في مقاربتها المنهجية للإطار السوسيولوجي والمعنوي لـ"حركة الخدمة"، وملهمها الأستاذ محمد فتح الله كولن، ودور هذه الحركة في إعادة الاعتبار للتعليم والإعلام وحوار الأديان في تعزيز قيم التعارف والتعايش والتسامح وإبراز حقائق الإسلام المعتدل، بالإضافة إلى بيان مدى تأثر الملايين في تركيا وعبر العالم بأفكار ومشاريع الأستاذ كولن.

وفي هذا العمل الرائد حاولت المؤلفة دراسة وتتبع وتفسير أسباب نجاح «حركة الخدمة» و»فكر كولن» في تركيا والعالم، من خلال إعمال الأطر النظرية السوسيولوجية، والمتمثلة في:

أ- نظرية تعبئة الموارد.

ب- نظرية الالتزام التنظيمي.

جاءت الدراسة في مقدمة، وستة فصول، وملخص، وملحق للنقاد، بالإضافة إلى لائحة المصادر والمراجع المعتمدة. وقد اعتمدت الكاتبة المنهج الوصفي والمنهج التحليلي والمقارن لصياغة المادة العلمية والمعرفية. وقد ركزت الباحثة كثيرًا على الزيارات الميدانية والمقابلات المباشرة سواء لمؤسسات الخدمة أو رجالاتها.

المقدمة

في بداية الكتاب تحكي هيلين روز قصة تعرّفها على حركة الخدمة، وذلك أثناء مشاركتها في مؤتمر «حران» الدولي الثالث في غوتنبورغ بالسويد في ماي سنة ٢٠٠٥م، في موضوع حوار الأديان بين القادة الدينيين الإبراهيميين، لتكتشف أن الأستاذ فتح الله كولن أحد المؤسسين العالميين للحوار بين الأديان والحضارات والثقافات والأعراق، وذلك بشهادة زميلها في الجامعة «لن ميتشل»، لتتعرف بعد ذلك على طلبة الخدمة بالجامعة (هيوستن) التي تشتغل بها.

ثم قامت بزيارة ميدانية أولى سنة ٢٠٠٦م لمشاريع ومؤسسات «الخدمة» بتركيا؛ مـدارس، جامعات، مستشفيات، صحف، مراكز، ومنتديات.. ولقد سجلت جملة من الملاحظات دفعتها إلى الاهتمام بهذه الحركة الدينية المزدهرة العابرة للحدود القومية، على حد تعبير الباحثة.

رجعت الباحثة لموقف فتح الله كولن الحاسم والواضح اتجاه أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، حيث عبر عن إدانته لهذه الأعمال الإرهابية، وأن هؤلاء الجناة لا يمثلون الإسلام، لتؤكد بأن حركة كولن تعد مثالاً قويًّا للإسلام المعتدل المعاصر. وقد لاحظت الباحثة وقتئذ الاهتمام الواسع والمستمر لوسائل الإعلام الكبرى والصحف العالمية بفكر فتح الله كولن ومشاريعه الناجحة في كل البلدان.

توصلت الباحثة في دراستها لتفسير أسباب نجاح الحركة بنظريتين في علم اجتماع التنظيمات والحركات الاجتماعية:

الأولى: نظرية تعبئة الموارد، والتي تلقي الضوء على شبكات الموارد البشرية والمالية اللازمة لنمو واستمرار التنظيمات وضمان تحقيق الأهداف.

الثانية: نظرية الالتزام التنظيمي، والتي تركز على الإستراتيجيات الحركية لحث الأعضاء على الالتزام والولاء للمشروع.

وذلك من خلال طرح ثلاثة أسئلة بحثية موجهة للبحث:

١- ما هي الآليات التنظيمية للالتزام التي تجذب الأعضاء إلى الحركة وتبقي عليهم، سواء داخل تركيا أو خارجها؟

٢- ما هي الكيفيات التي تروج بها الديناميكيات المالية في تمويل المشاريع الخدمية للمشاركة والحماس والالتزام عند أعضاء الحركة؟ وكيف يتم تحفيز الأنصار للتبرع؟

٣- ما هي الترتيبات المالية المرتبطة بالمؤسسات المتصلة بحركة كولن؟ وما هي الطرق التي تربط أنصار الحركة بمشاريعها؟

الفصل الأول: الإسلام والدولة عبر التاريخ التركي

تبدأ المؤلفة هذا الفصل بالتأكيد على أهمية وضع حركة كولن في سياقها التاريخي، وتنطلق في تحديد هذا السياق أولاً بالحديث عن بنية الدولة العثمانية (١٢٩٩م-١٩٢٣م)، والعلاقة الوثيقة والتكافلية بين السلاطين (الحكام السياسيين) والخلفاء (القواد الإسلاميين)، مع ذكر بعض الإصلاحات التي عرفتها الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر.

ثم عرجت إلى مكانة الإسلام في الدولة التركية الحديثة ابتداء من ١٩١٣م، وذكرت بعض الإشكالات الناجمة عن علاقة الدين بالدولة، حيث نهجت جمعية الاتحاد والترقي نهج تحييد الإسلام عن الحياة العامة، وإخضاع المؤسسات الدينية للسلطة الحكومية؛ ففي سنة ١٩١٥م وضعت المحاكم الدينية تحت سلطة المحاكم العلمانية، وفي سنة ١٩٢٤م ألغيت الخلافة، وفي سنة ١٩٢٨م أزيل الإسلام من الدستور باعتباره الدين الرسمي لدولة تركيا، وكل ما له علاقة بالهوية العثمانية. وقد نتج عن هذا الوضع إشكالات واختلافات وصراعات داخل النسيج التركي.

في ذات السياق ذكّرت الكاتبة بتحول تركيا إلى نظام التعدد الحزبي ابتداء من عام ١٩٤٦م، وأثره في إعادة تموقع الإسلام في الدولة التركية؛ فمثلاً بوصول الحزب الديمقراطي للسلطة سنة ١٩٥٠م سمح برفع الآذان باللغة العربية، وأزال الموانع التي تحظر ممارسة الدين وتدريسه وبناء المساجد، ولكنه عارض الإسلام السياسي لأنه يهدد علمانية الدولة في نظره.. بعد الإطاحة بهذا الحزب عبر انقلاب عسكري عام ١٩٦٠م، دخل نجم الدين أربكان المعترك السياسي بخلفية إسلامية، حيث هدف أربكان إلى توحيد الجماعات الإسلامية تحت قيادته السياسية، وتغيير في النظام السياسي عن طريق العملية الانتخابية، مما عرضه للمنع لمدة خمس سنوات تحت طائلة المادة ١٣٦. وحصل انقلاب عسكري سنة ١٩٨٠م.. وهكذا ظلت الحياة السياسية التركية بين انتخاب وانقلاب.

كل هذه الأحداث المتعاقبة والقضايا المعقدة، كان يتابعها فتح الله كولن ويدرسها ويحللها، ويطور إمكاناته لاستيعابها وتجاوزها.

الفصل الثاني: فتح الله كولن حياته ومعتقداته والحركة التي ألهمها

قسمت الباحثة هذا الفصل إلى ثلاث فقرات كبرى، الأولى جوانب من بدايات حياة كولن، أما الفقرة الثانية فخصصتها لقناعاته وأولوياته، أما الفقرة الثالثة فتتبعت فيها نشأة الحركة وانتشارها في أنحاء المعمور.

أوردت الباحثة سنة ولادة فتح الله كولن ١٩٤١م دون تحقيق أو تدقيق، بمحافظة «أَرْزُو رُوم» (أَرْضُروم)، من أسرة علم وشرف وكرم وإمامة، ما جعله يتأثر بهذا المناخ العلمي والروحاني؛ حيث تعلم مبادئ الإسلام، وحفظ القرآن، وتعلم اللغة العربية والفارسية، بالإضافة إلى تأثره ببعض المشايخ في طفولته من قبيل الشيخ لطفي أفندي، والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. وقد كان تعليمه في مجالات الأدب والتاريخ والفلسفة

وغيرها من المعارف تعليمًا عصاميًّا وتكوينًا ذاتيًّا.

ونظرًا لتأثره الشديد بالأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، فقد انخرط في سلك الوعظ والإرشاد منذ شبابه الباكر، متنقلاً من «أرضروم» شرقًا إلى أدرنة غربًا، فأصبح له نفوذ وتأثير عجيب على الشباب، ليستثمر ذلك في إطلاق أول مشاريعه التعليمية بتنظيم معسكرات صيفية لطلاب المدارس بدعم من رجال الأعمال المحليين.

غير أن الانقلاب العسكري سنة ١٩٧٠م، زج بالعديد من الدعاة البارزين والفاعلين المجتمعيين في السجون، حيث ظل فتح الله كولن رهن الاعتقال لستة أشهر دون اتهام، وأخلي سبيله بشرط عدم إلقاء المحاضرات العامة.

وقد كان للبُيُوتات التي أنشأها خصيصًا للطلاب؛ لخدمتهم المعرفية، ورعاية مصالحهم المادية، وتوفير بعض المنح لهم، الأثر البالغ في نشر أفكاره وقناعاته بين الناس. ومع الانفتاح الذي عرفته تركيا سنة ١٩٨٢م، أسس كولن أول ثانويتين الأولى في إزمير والثانية في إسطنبول، لتنتشر مدارس الخدمة بعد ذلك في كل تركيا. ومع سقوط الاتحاد السوفياتي تم تأسيس مدارس بالجمهوريات المستقلة، ونظرًا لتميز هذه المدارس وريادتها، فإن الطلب ازداد عليها في كل أصقاع العالم.

ثم كان الاهتمام بالنوافذ الإعلامية الملهمة بفكر كولن، فكان تأسيس مجلة «سِيزِينْتي» سنة ١٩٧٩م، وهي المجلة الأكثر انتشارًا ومبيعًا بتركيا، وكانت مهمتها ربط العلم بالإيمان، والوحي بالعقل، بالإضافة إلى جريدة «زمان»، وتلفزيون «سَمانْيُولو» (STV)، ووكالة جهان للأنباء، ومواقع إلكترونية بكل لغات العالم الحية.. وحيث إن النجاح يدفع إلى مزيد من العطاء والإبداع وفتح فرص جديدة لتنزيل أفكار فتح الله كولن على أرض الواقع، فقد جلب له انتقادات كثيرة. تؤكد الباحثة أن خلاصة القول في هذا الفصل، هو أن محمد فتح الله كولن شخصية ملهَمة وملهِمة.

الفصل الثالث: الأفكار الأساسية التي روج لها كولن

من عالم الأشخاص والأحداث تنتقل الكاتبة إلى عالم الأفكار، الذي يعدّ فتح الله كولن فارسه ورائده بامتياز. وفي مقاربة تكاملية تؤكد «هيلين» أن حركة كولن تقدم مثالاً للعالم الإسلامي، بل وللعالم في الجمع بين التليد والجديد، بين الأصالة والمعاصرة، بين العلم والإيمان، بين الوحي والعقل.. كل ذلك لبناء وتعزيز مجتمع أخلاقي وعادل، وفتح فرص لشباب الجيل الجديد في إطار شبكات خدماتية ذاتية منفتحة، وليس من خلال منظمة مركزية منغلقة. وفيما يلي أهم الأفكار التي أثارت الكاتبة:

١- **بناء الجسور بين الإسلام والغرب:** وهذه المهمة الصعبة والإستراتيجية، لن يقوم بها إلا «الجيل الذهبي».

٢- **جودة التعليم:** لأن أكبر مشاكل العالم اليوم هو نقص المعرفة، ولا معالجة لهذه المعضلة، إلا بجودة التعليم بأشكاله الثلاثة: العلمي، الإنساني، الديني.

٣- **تمويل المشروعات الخدمية بروح العطاء:** هنا تتفتق عبقرية كولن في قدرته على تعبئة الموارد البشرية والمالية لتزيل الأفكار على أرض الواقع، وتحقيق المقاصد الكبرى، حيث شجع باستمرار النخبة الاجتماعية والقادة والأثرياء ورجال الأعمال الكبار والصغار، كل من موقعه ومسؤوليته.

٤- **الحوار بين الأديان والثقافات:** حيث يركز كولن على المشترك الإنساني وتناغم الأديان لإسعاد الإنسان، فوظف مفاهيم الشفقة والحب والتلطف والتسامح والعفو والتواضع في حوار منفتح مع جميع الطوائف، توج ذلك الحوار بلقاء بابا الفاتيكان في فبراير ١٩٩٨م.

٥- الإسلام لا يروج للإرهاب ولا يتسامح معه: وهذه قناعة راسخة لا تتزعزع عند كولن، وقد عبر عن هذه القناعة في مناسبات كثيرة أهمها أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بقوله: «لا يمكن أن يكون الإرهابي مسلمًا، ولا يمكن أن يكون المسلم الحقيقي إرهابيًّا».

٦- العلاقة بين الدولة والدين: هذه القضية من أعقد القضايا بتركيا المعاصرة بل وفي العالم الإسلامي، وقد أسالت الكثير من المداد بل والدماء في بعض الأحيان.. لذا نجد الكاتبة تؤكد على أن كولن لا يدعو إلى تأسيس كيان أو نظام سياسي إسلامي، بل يدعو إلى فصل الدين عن السياسة وليس عن الحياة، وينص على أن سلطة الدولة على الشؤون الدينية تضر بالإسلام، لذا وجب تحرير الإسلام من سيطرة الدولة، وهذه القضية تحتاج إلى تدقيق.

هذه الأفكار وغيرها، ألهمت العديد من فئات الشعب وطبقاته ما جعل حركة كولن تتطور وتنتشر بشكل كبير في كل أنحاء العالم، مركزة على أربعة أنشطة كبرى: المؤسسات التعليمية، المشاريع الاقتصادية، المطبوعات والإذاعة، التجمعات الدينية.

الفصل الرابع: التنظيم الاجتماعي في الحركة (شبكة من الحلقات المحلية)

استقت الكاتبة معلومات هذا الفصل من مقابلات شخصية للمنخرطين في تجربة «الخدمة» أو الداعمين لها سواء فردية أو جماعية، في تركيا أو هيوستن بتكساس.. وتنوعت هذه اللقاءات من رجال أعمال، إلى أطباء، إلى إداريين وعمال من ذوي الياقات الزرقاء، وصحفين ومهندسين.. خلاصة هذه اللقاءات أن فتح الله كولن ملهم، وأن هذه الحلقات (الصُحْبات) تحقق المعنى.

وتنتظم هذه الحلقات المحلية بشكل أسبوعي تبعًا للمكان أو الوظيفة، لمدارسة القرآن والسنة ومناقشة أمور حياتهم أو متابعة مشاريع الخدمة ودورهم في إنجاحها.. ومن القصص التي تحكيها الكاتبة، هو سَفَر مجموعة من رجال الأعمال من مدينة «بورصا» إلى «دارفور»؛ حيث اشتروا ثلاثة ثيران وذبحوا وأطعموا الفقراء، وأقنعوا رجال أعمال آخرين لبناء مدرسة هناك وهو ما كان.

تؤكد الباحثة على مناخ الثقة المتبادلة الذي يسود هذه الحلقات، فقد علق أحد رجال الأعمال في هيوستن ممن يمولون مشاريع الخدمة: «حتى وإن لم أعرف تفاصيل تلك الأنشطة، فأنا أعرف هؤلاء الناس معرفة جيدة وأثق بهم، لذلك فأنا أقدم التبرعات وأنا على ثقة أنه سيحسنون استخدامها». هذه الثقة جعلت المساهمات المالية صفة متأصلة في المشاركين في حركة كولن، وهذه المساهمات لا حدود لها.. حتى إن الباحثة بخلفيتها الرأسمالية اندهشت من حجم إنفاق أهل الخدمة. وهذا طبيعي، لأنها لا تدرك البواعث الإيمانية للإنفاق والعطاء، وهي تورد بنوع من الإعجاب والاستغراب إنفاق وتبرع المشاركين بنصف أو ثلث ثروتهم قلّت أم كثرت. وهو ما دفعها إلى طرح السؤال: ما هي الدوافع المحركة للمساهمات المالية؟ فكانت الأجوبة: لتحسين شؤون الإنسانية كما يشجع كولن.. لتعليم شبابنا.. لرضا الله.. للحصول على الثواب في الآخـرة.. ليكونوا جزءًا من حركة أكبر لعالم أفضل.. لإعطاء الأمل لشعبنا في تركيا وحول العالم.

هذه الثقة وهذه الطمأنينة السائدة في حلقات الخدمة، والنابعة من المثل الإسلامية والمفاهيم الحضارية، تولد الالتزام واستدامة المشاركة الجماعية، وتضمن فعالية المجموعة، وتوطد العلاقة الإيجابية بين التضحية والاستثمار، وترسخ مبادئ تنظيمية سليمة وتوفر الدافع الروحي للعطاء والانبعاث.

تؤكد هيلين روز على أن كولن لا يدعو إلى تأسيس كيان أو نظام سياسي إسلامي، بل يدعو إلى فصل الدين عن السياسة وليس عن الحياة، وينص على أن سلطة الدولة على الشؤون الدينية يضر بالإسلام، لذا وجب تحرير الإسلام من سيطرة الدولة، وهذه القضية تحتاج إلى تدقيق.

الفصل الخامس: ثقافة العطاء الإسلامية التركية

هذا الفصل كتبته هيلين روز بالاشتراك مع د. ذاكراي باسكال، وهو يبحث أساسًا في الثقافة الإحسانية والممارسات التطوعية في المجتمع التركي، ودوافعها الروحية العميقة، وكيف استطاع فتح الله كولن بعث هذه الروح التطوعية والممارسة الإحسانية من جديد، لتمويل مشاريع الخدمة الممتدة والمتنامية سواء تعلق الأمر بالمال أو الوقت أو الطاقة أو العمل. وقد أجملت الباحثة المفاهيم الأساسية في الثقافة التركية المرتبطة بالعطاء في الصدقة، والزكاة، والأضحية، والوقف، والبركة، وحسن الجوار، والقرض الحسن.. لتدلف بعد ذلك إلى المنهجية المجدِّدة التي أحيا بها فتح الله كولن الإحسان الإسلامي التركي، من خلال استثمار الشبكة الخيرية الموجودة بالفعل في المجتمع التركي. فعلى سبيل المثال، عندما أوجز كولن رؤيته في توفير تعليم جيد لكل الشباب التركي بتأسيس بيوت طلبة، ودورات تحضيرية، ومدارس ثانوية، وأخيرًا جامعات، كان ذلك انعكاسًا لثقافة العطاء والإحسان المركوزة في وجدان كل تركي.

الفصل السادس: مشروعات كولن الخدمية

الموارد المالية ضرورية لبناء وصيانة العدد الهائل من المشاريع المرتبطة بمشروع كولن الإصلاحي. تؤكد هيلين أهمية تعبئة الموارد المالية في المشروع الإصلاحي لفتح الله كولن. وقد أجاب الأستاذ فتح الله على السؤال «من أين يأتي الماء لهذه الطاحونة؟ بقوله: «هؤلاء قومنا الذين يعطون ويعطون، ويمكنك القول إنهم مدمنون على العطاء، ولو قلت لا تعطوا ستجدهم محبطين وغير سعداء.. ويبرر كولن هذا الإنفاق المعجز، بثقافة الثقة وخاصية النزاهة المستدامتين داخل الهيئات وفي المشاريع.

ناقشت المؤلفة مؤسسات مستوحاة من فكر كولن خاصة في تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، محددة الأنماط المؤسسة والسائدة داخل هذه المؤسسات والمشاريع: بنك آسيا، محطة سمانيولو التلفزيونية، صحيفة الزمان، مؤسسة الكتّاب والصحفيين، جامعة الفاتح، مستشفيات الخدمة (سما، بهار)، بيوت الطلبة، مدارس تعليمية، جمعية «كِمْسَه يُوكْمُو» (هل من مغيث) للتضامن والمساعدة، مؤسسة حوار الأديان من أجل السلام العالمي (IID) بتكساس. وبعد تتبع نشأتها وتمويلها وأنشطتها وآفاقها، تؤكد بأن التزام المتطوعين والداعمين الذين يعطون من أوقاتهم وقدراتهم ومواردهم المالية اللازمة، هو الذي يضمن لها الاستمرارية والريادة في مجالها وتخصصها.

وهذه الأنماط واضحة داخل المؤسسات المختلفة المستوحاة من فكر كولن المذكورة أعلاه، والمتمثلة في:

أ- الإلهام الأصيل: من خلال أفكار كولن وتعاليمه ورؤاه التي تفتح آفاقًا ارتيادية للإبداع والعطاء والتحفيز لتأسيس المؤسسات.. الإيمان الحتمي بأن التعليم هو الحل للفقر والصراعات الداخلية في تركيا وحول العالم.

بـ- نشر الأفكار: بما هي مُثُل عليا وقيم أخلاقية تتمحور

حول تربية الأجيال بمنهجية الجمع بين الروحانية والتدريب الفكري، وتوفير التعليم الحديث في كل مناحي الحياة، والتأكيد على القومية التركية، وتقدير الماضي التركي، والمشاركة في الحوار بين الثقافات والتسامح مع الأفكار والآراء المختلفة، وحب واحترام البشرية جمعاء، وحسن الجوار، وإعطاء الخدمة ومساعدة الإنسان لأخيه الإنسان.

جـ- الالتزام الوظيفي: «إنهم لا يعملون من أجل المال فقط، ولكنهم يؤمنون بما يفعلون»، هذا هو النَفَس العام عند محبّي الخدمة في كل المجالات والمؤسسات.

د- الدعم المالي: وذلك بالاعتماد على دعم المتبرعين للمباني والعمليات الأساسية للمؤسسة.. وفي كل الحالات تصبح تلك المشاريع داعمة لنفسها خلال سنوات قليلة، إذ تستطيع معظم المدارس توفير دعم لنفسها من خلال الرسوم الدراسية.

هـ- المؤسسات ذات الجودة: بغض النظر عن القطاع التي تعمل فيه، تشترك المؤسسات المستوحاة من فكر كولن، في الحرص الحثيث للوصول لأعلى مرتبة والجودة، وهو ما يلحظه أي زائر ودارس.

ملخص ونتائج البحث

في هـذا الملخص تؤكد هيلين -باعتبارها باحثة سوسيولوجية- أن حركة الخدمة مستوحاة من أفكار الأستاذ محمد فتح الله كولن، لم تنظم رسميًّا أو تهيكل هرميًّا، وإنما هي شبكة دعم منسقة متراخية من الدوائر المحلية، ولكل منها حكمها الذاتي من حيث المحتوى وتواتر الاجتماعات وتنوع الأعضاء والمشاريع.. وتلك البنية موجودة على مستوى القاعدة لتعزيز الالتزام والمشاركة، حيث لا يتم إنجاز شيء لا يبدؤه وينفذه الأعضاء، بمشاركة الأعضاء والشعور بالمسؤولية من جانب ملايين من المشاركين الذين لديهم رؤية وطموح والتزام.

ثم تؤكد بأن الأسئلة البحثية الموجهة التي طرحتها في بداية الكتاب، قد أجابت عليها بشكل علمي وميداني من خلال الزيارات والمقابلات والحوارات.. وتستنتج أن حركة الخدمة مبادرة مدنية بدأت أولاً في تركيا في الستينيات من قِبل فتح الله كولن، وحاليًّا انتشرت حول العالم عن طريق الهجرة التركية. وتدعو الحركة إلى تعليم حديث وجيد لكل الشباب، وإلى الحوار بين الأديان والثقافات. وتلك الأهداف الأساسية بجانب مساهمات العديد من المشاريع الخدمية، نتج عنها الاعتراف بحركة كولن كلاعب هام في الترويج للتعايش السلمي والسلام العالمي.

الملحق: أصوات النقاد

وقد كانت الباحثة هيلين روز موفقة عندما التفتت إلى بعض النقاد الذين وجهوا بعض الانتقادات إلى حركة كولن، واستطاعت تفنيدها من خلال إيراد النقد والرد عليه، وفيما يلي أهم الاعتراضات:

١- الخوف من الدولة الإسلامية: تقول هيلين روز: «ولم أر دليلاً على أن كولن ينوي الاستيلاء على الدولة التركية واستبدال دولة إسلامية بالحكومة العلمانية بعد قراءة مئات الصفحات من خطب كولن وكتاباته. وبعد التحدث إلى أكثر من مئة من أتباعه، أدركت أن كولن في الحقيقة ينفر من المناقشات السياسية».

٢- كولن بوصفه عميلاً لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية: تؤكد الباحثة بـأن اتهام الحركة بأنها مدعومة ماليًّا من بعض الحكومات ومن ضمنها وكالة الاستخبارات المركزية للولايات المتحدة الأمريكية، لا دليل تطبيقي يدعمه، وهناك بعض البيانات التي

تتحدى هذا الافتراض المطروح من قبل النقاد، وخلال العقود الماضية، فـ «كولن» ومؤسسات الخدمة المفعِّلة لأفكاره، وحركته، تم فحصها ومراجعتها من العديد من الوكالات الحكومية، مثل وزارة الخزانة التركية، ومكتب المدعي العام للدولة. وكل عام تستعرض وزارة المالية الدفاتر المالية للشركات الربحية وغير الربحية على حد سواء، وهكذا يُطلب من كل صحيفة زمان، وبنك آسيا، وتليفزيون سمانيولو، ومؤسسة الكتّاب والصحفيين فتح دفاترهم المالية لمفتشي الحكومة، ولم يجدوا أي أموال مشبوهة أو غير محسوبة ولا مرة واحدة، وبالمثل، لم يتم اكتشاف أي مخالفات مالية تثير الشكوك بأن حكومات أجنبية تمولها.

٣- غسيل مخ الفقراء الأميين: بل نجد هذه الفئة ممتنّة لتجربة الخدمة، لما توفره لأقربائهم ولأصدقائهم من فرص وفضاءات للهروب من الفقر الريفي، ونظم التعليم الفقيرة، وإحلال محلها المنح الدراسية للدورات التحضيرية والجامعة وكليات القانون والطب، وفرصة العيش في بيوت الطلبة، بالإضافة إلى الفرص المهنية.

٤- تأخير تركيا عن موكب الحداثة: تعبر هيلين عن دهشتها لما وجدته من تقدم تكنولوجي وتجهيزات متطورة: «فكل من خطب وكتابات كولن -فضلاً عما تحقق في المدارس والمستشفيات المرتبطة به- تظهر الاتجاه المعاكس لذلك تمامًا، فكولن شجع أتباعه مرارًا على الحصول على تعليم أفضل وأكثر تقدمًا قدر ما استطاعوا خاصة في العلوم من أجل المساهمة في تحديث تركيا. ولقد انبهرت بمختبرات العلوم في المدارس التي زارتها، فضلاً عن العديد من الجوائز المعروضة في الردهات للطلاب الذين تنافسوا في الأولمبيات العلمية الدولية».

٥- حركة كولن تدعم أتباعها فقط: هذه التهمة لا تستند إلى بيانات، بل إن مشاريع الخدمة الإغاثية -مثلاً جمعية «كمسه يوكمو» (هل من مغيث)- تستهدف كل البشر -داخل تركيا وخارجها- بغض النظر عن الدين أو العرق أو اللسان.

٦- الحركة بوصفها جمعية سرية أو طائفة: إن أهم عنصر تخشاه الحركات السرية هو تعاملاتها المالية، في حين أن حركة الخدمة تضع حساباتها المالية رهن إشارة أجهزة المحاسبة والرقابة. فالحركة شفافة من الناحية المالية، وفي حالة البنك، والصحيفة، ومحطة التليفزيون، فإن بياناتهم المالية عامة ومتاحة على الأنترنيت. كذلك يمكن الوصول إلى خطب كولن ومقالاته عبر المواقع الإلكترونية. وبالنسبة لـ «هيلين روز» يعتمد الاتهام بالسرية على الخيال حول الأنشطة السرية أكثر من تركيزه على البيانات التجريبية التي تشير أن أهداف وتدخلات الحركة لم تتح علنًا.

وتأبى هيلين روز إلا أن تعضد ردودها بمزيد من الأدلة والبراهين والتي تفند الاتهامات السابقة، والتي تميز حركة الخدمة، والمتمثلة في الاندماج في المجتمع (عكس العزلة).. والشفافية والوضوح.. التحديث (رفض العلم لصالح القيم التقليدية).. اللاعنف.

خاتمة القول، فإن الكاتبة «هيلين روز ايبوا» تدعو -بطريقة أو بأخرى- إلى استلهام أفكار محمد فتح الله كولن لمواجهة العديد من التحديات المعاصرة التي تهدد الفرد والمجتمع والبشرية، باعتبارها حركة مدنية عالمية جذورها الإسلام الوسطي المعتدل، تهدف إلى تحقيق التعايش والسلم العالمي. ■

«هُوجَا أفندي» السيد الأستاذ
أو حين تصوغ التربية نموذجًا مجتمعيًّا

د. سمير بودينار

ولد عام ١٩٧٥م في مدينة وجدة بالمغرب. قدّم رسالة الدكتوراه في جامعة محمد الخامس حول علم الاجتماع السياسي. أستاذ في قسم العلوم الاجتماعية في جامعة محمد الأول بوجدة. ما زال يشغل رئاسة مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة المغرب. شارك في برامج تلفزيونية عديدة، ومؤتمرات وندوات نظمت في أكثر من ٢٥ دولة. له مقالات عديدة نشرت في مجلات وجرائد مختلفة في المغرب والعالم.

قام الكاتب بتسليط الضوء على تجربة «الخدمة» التي صيَّرت تربية الإنسان وتعليمه غاية مجتمعية تتجه إليها طاقات المجتمع كلها، لا بوصفها أولوية مجتمعية فحسب، بل فريضة شرعية ورسالة حضارية. وأكد على أننا بإزاء دفقة حضارية تنفتح أمامها عوالم «دار الخدمة»، عنوانها «أنك لكي تثبت وجودك في مكانٍ ما، يجب أن تكون في كل مكان». كما عرج الكاتب في ذات السياق نحو النموذج التربوي الذي حلم به الأستاذ كولن ونذر حياته لتأسيسه فقال: «استحق الأستاذ فتح الله كولن أن يكون «هُوجَا أَفَنْدي» عند الأتراك، لأنه العالم الواعظ الذي تفنن في نحت الصخر صانعًا منه آيات من الجمال الإنساني. وهو يقدم مثالاً تربويًّا صعبًا غاية الصعوبة تقديمه في عالمنا، قائمًا على الإيمان بالله، ثم الثّقة في أجيالنا وتوحيد مقاصد الفعل كلها لإعداد الإنسان، خدمة للإنسانية وعمرانًا للعالم».

ليست هذه الكلمات قصة معتادة ينسجها كاتب مع مكتوب تبدأ ثم تنتهي بانتهاء الكتابة، لتندرج بعد ذلك في رصيد الغيب وذمة القارئ.. ذلك أن ليس من اليسير أبدًا على مَن عرف «نموذج» الأستاذ فتح الله كولن سواء قرأه فكرًا أو تتبّعه مسيرًا أن يكتب حوله نصًّا عابرًا؛ ولو كان ذلك محاولة إضاءة جانب واحد من جوانب هذه الشخصية المركبة. لكن لنبدأ قبل المحاولة بالسؤال: هل يمكن في الأساس الإحاطة بالمشروع الذي يمثّله الرجل ولو في إحدى تجلياته؟ الحق أنه صعب غاية الصعوبة اختصار مشروع الأستاذ فتح الله كولن في مثل هذه السانحة، ليس لأنه تجلى -ولا يزال- من خلال تجربة مديدة وغنية فحسب، بل لأنه مشروع مركّب متعدد الأبعاد كذلك. لذلك يحسن الوقوف الموجز عند جانب واحد منه، وليكن المسار التربوي، في سياق السعي إلى بناء نموذج إنساني مجتمعي خاص.

يكتسي الحديث عن ثلاثية: «الشخصية/الفكر/النموذج» (التي تتّحد في الدلالة هنا) بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن أهمية استثنائية في هذه اللحظة الشاهدة من عمر مشروعه التربوي، ذلك أن نقاشًا واسعًا دار ولا يزال في منهج دراسة مدارس الإصلاح في عالم المسلمين إجمالًا، ومنها مدرسة/نموذج الأستاذ كولن. ولكي لا نستعيد نقاشًا واسعًا ليس هذا مجاله، نحاول أن نتعرض لما يسمّى بـ «عنصر الامتياز في المشروع»، أو «دراسة النموذج» بناء على نقطة جوهرية كامنة فيه، قادرة أكثر من غيرها على الإمداد بالمعنى المراد.

لنبدأ بسيرة مختصرة لنموذج التربية عند هذا العالم، الذي مثّل امتدادًا للميراث العلمي والتربوي العميق في بلاده تركيا، وهو الميراث الذي لم ينفصل لا في صلاته بعالم المسلمين ولا في أبعاده ومضامينه.

ولعل بعض المحطات في حياته تكون أولى من غيرها

> تتجلى أهمية «نموذج كولن» في المجال التربوي، ذلك أنه نموذج يعيد الاعتبار بدأب وإصرار لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركّزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًّا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها الوحي، بمقاصدها الكبرى في بناء العمران، فتصير تلك المقاصد الكلية محددًا لأهداف حركته في الواقع.

للاستدعاء في هذا السياق، إذ تجسد معالم في شخصية الأستاذ ومفاتيح في استيعاب نموذجه كما ترجمته – جزئيًّا حتى الآن- مسيرته في العمل التربوي والمجتمعي على امتداد خمس وأربعين سنة. هذه المحطات هي اختيار بيئة عمل الواعظ الشاب، ومنهج العمل ومداه، والمثال الإنساني الكامن في النموذج المنشود، القادر على كسب معارك القيمة والمعنى والمثال في عالمنا.

لقبُ الأستاذ فتح الله كولن عند مَن عرفه مِن قومه هو «هُوجَا أفَندي» أي السيد الأستاذ.. ولا أرى أن اللقب ولا الصفة جاءت اعتباطًا، بل هما تعبير موجز بليغ عن استحقاق المكانة من خلال السيرة والمسيرة.

«الواعظ» الفنان في نحت الصخر

يعتبر الأستاذ فتح الله كولن بألاّ حدود أمام القيمة والفكرة، على تعدد البيئات في عالم واحد، حتى تلك التي تبدو بالمعايير الظاهرية «صعبة» و«إشكالية» يراها أولى بالخطاب وأجدر بأن يتّجه إليها المربون بخطابهم ويبلغوا رسالتهم، بل أن يقصدوا إليها فعلاً لتكون مجال عملهم الطبيعي مهما بدت «غير متقبلة»، أو أن أصحاب الدعوة لا زالوا أصغر من مواجهة تعقيداتها وأقل خبرة، وهذه قيم تستبطن إيمانًا قويًّا

بقوة الأسـوة (لسان الحال)، كما تجلّت من خلال حضورها العملي على امتداد مسيرة تربوية بالغة الغنى، وهنالك مثال حي بليغ يجسّد من خلاله الأستاذ هذه المعاني بسلوكه.

كان عمره ٢٠ سنة حين أنهى الخدمة العسكرية الإلزامية، وكان الأستاذ «يَشَارْ تُونَاغُور» الواعظ الشهير في مدينة إزمير قد عُيّن حديثًا في منصب آخر وكيلاً للشؤون الدينية بالعاصمة، فتأسف أهل المدينة الذين كسب الرجل محبّتهم وإعجابهم بمواعظه في مساجدها، فما كان منه إلا أن أجابهم بأنه سيُعيّن مكانه في كرسي الوعظ مَن لن يخيّب معه ظنّهم قاصدًا الأستاذ فتح الله كولن الذي كان يعرفه ويقدّره. المفاجأة كانت أنه حين فاتح الأستاذ في الأمر طلب منه أن يعينه في مكان لم يخطر للأستاذ يَشارْ على بال.. مدينة «سمَنْدَاغ» المشهورة بصعوبة الحالة الدينية فيها، وتعقد الوضع الفئوي والطائفي بها. ورغم إلحاح الأستاذ كولن على طلبه، إلا أنه اضطر في النهاية للنزول عند أمر الأستاذ يَشَار تُونَاغُور الذي كان يقدّره بالذهاب واعظًا في إزمير.. بداية بليغة في الإصرار والتحدي بمقدار الإيمان بخيرية الناس.

أما تجربة «الواعظ» فكانت تشجيعًا دؤوبًا على احتضان النشأ وتربيته. هكذا بدأ فتح المبِيتات (اليُورْت) في نهاية الستّينيات، حيث فتح أول مَبِيت سنة ١٩٦٧، بينما فتح أول سكن للطلاب سنة ١٩٧٠، وما إن عرفتْ هذه الإقامات بنموذجها التربوي اللافت حتى أخذ المجتمع التركي المبادرة في إنشائها، فانتشرت انتشارًا كبيرًا مع نهاية السبعينيات في مختلف مدن تركيا.

بعد انقلاب سنة ١٩٨٠ في تركيا، فتح المجال لأوّل مرة أمام التعليم الخاص في البلاد، من خلال شعار شهير للحكومة في تلك المرحلة هو «افْتحْ مدرستك». اعْتبر الأستاذ هذا الانفتاح فرصة كبيرة، فدفع المحبّين إلى

أبناء الخدمة الذين يشكلون جميعًا "جزُر سلام" حقيقية في عالم مضطرب، كلهم عنوان صلاحية النموذج، ومعيار دقيق في الحكم، لا على الأداء التربوي والتعليمي وفعاليته فحسب، بل على قوة النموذج الكامن في المنظومة المؤسسية، الذي أنتج هذه المدارس وصنع هذه التجربة الإنسانية الحية في عالمنا.

تأسيس مدارس خاصة، وكذلك تم في هذه المرحلة فتح سكن ومدارس للبنات، حيث لم يوجد لهن سكن ولا تعليم خاص قبل تلك الفترة، بل إن تعليم الفتيات لم يكن شائعًا في كثير من البيئات الاجتماعية، التي فضلت «أمية البنت على فساد أخلاقها» بتأثير من جو التعليم ومناهجه. وفي بداية الثمانينيات جاءت مدارس التقوية (المدارس التحضيرية للجامعة التي ذاع صيتها لاحقًا).

في تلك المرحلة ظلّ الأستاذ فتح الله كولن مطارَدًا بسبب وضع اسمه على لائحة المطلوبين، بعد الانقلاب لمدة ست سنوات، إلى أن اعتقل سنة ١٩٨٦، فثبت أنه لم يكن مطلوبًا للعدالة ولا لأي جهة أمنية، وأن وضع اسمه في لائحة المطلوبين بعد الانقلاب، كان لأسباب سياسية طارئة، فأخلي سبيله. وكان خلال هذه الفترة يتنقل -رغم ظروفه- لبناء المدارس، ويسهر على نجاحها وتأهيل الأساتذة فيها تربويًّا، والحرص على تميزهم في بناء نموذج لمدرسة متميزة وناجحة.

بعد ذلك وخلال السنوات الأربع اللاحقة ١٩٨٦-١٩٨٩م بدأ يدعو بشكل واسع إلى محاربة الأعداء الثلاثة الألداء الجهل والفقر والفرقة (الخلاف) بشكل عملي، وطبّق نموذج المدارس على نطاق واسع. خارج تركيا بدأ فتح المدارس في دول أخرى منذ بداية التسعينيات، حيث تأسّست أول المدارس خارج البلاد سنة ١٩٩١، وذلك

في آسيا الوسطى إثر انهيار الاتحاد السوفياتي. ففي صيف عام ١٩٩٠م وجّه الأستاذ فتح الله كولن دعوة إلى الشعب التركي من على كرسي الوعظ في المساجد السلطانية إلى «نجدة إخوانه في الدم والدين الذين خرجوا من الاستعمار، قبل أن يدخلوا تحت سيطرة استعمار ثان»، وبأثر من تلك الدعوة استضاف الشعب التركي في تلك السنة ما يناهز الثلاثين ألف عائلة من آسيا الوسطى، وهو ما أعطى المدارس فيما بعدُ قاعدة شعبية من كل الناس بعد موجة التعاطف والانخراط الشعبي في المبادرة. ألاّ تستصعب بيئة للعمل، مقتضاه إتقان فن النحت في صخر الواقع على صفحات الأنفس والعقول.

في صيف عام ١٩٩٠م وجّه الأستاذ فتح الله كولن دعوة إلى الشعب التركي من على كرسي الوعظ في المساجد السلطانية إلى «نجدة إخوانه في الدم والدين الذين خرجوا من الاستعمار، قبل أن يدخلوا تحت سيطرة استعمار ثان».

«المربي» سالك الطريق الأطول والأصعب

في نهاية الستينيات، كان الأستاذ الذي بدأ يلتف حوله مجموعة من المتأثرين بخطابه وسلوكه، ينظم مخيمًا تربويًّا لبضعة عشر من «الأصدقاء»، كما لا زال يدعو من تأثر بفكره وانسلك في مشروعه؛ عندها جاءه واحد ممن أصبحوا بعد ذلك شخصيات عامة مشهورة في تركيا، طالبًا إليه أن ينضم إلى مجموعته في مشروعهم السياسي الإسلامي الواعد، محدثًا عن تأسيسهم حزبًا جديدًا، وعن الانتخابات القريبة التي ستحملهم إلى الحكم... مؤكدًا أن ذلك كله أولى من حصر جهد رجل محبوب ومؤثر مثله في بضعة عشر طفلاً، وأهم من هدر طاقة كبيرة في نفع قليل. كان جواب الرجل واضحًا وصارمًا، اعتذر بأدب لكنه أكّد أن ذلك ليس طريقه، وأنه يفضّل عملاً صبورًا وطويلاً مع هؤلاء ومَن يأتي بعدهم على أيّ طريق آخر.

واحدة من أزمات «النموذج الإسلامي» في عصرنا، خاصة من جهة معيار تقويمه والحكم على فعاليته في تحقيق أهدافه، نزوعه المتسارع إلى المعايير المادية السائدة، بحيث تسود هذه المعايير بشكل متدرج في الحكم على مدى نجاحه؛ هذه الخاصية وإن كانت تتلبس بالعواطف الجماهيرية، إلا أنها تؤدي إلى تآكل حضور النموذج المعرفي القائم على أساس الوحي ومقاصده في الأنفس والآفاق، أو الإنسان والعالم. تمامًا كما تعبر عن تسلط النموذج المادي على الوعي، حتى لدى فئات من المتدينين، بل ممن تحركهم الآمال والعواطف الدينية لتغيير واقعهم.

وبقدر ما تتجلى خطورة هذا المسار على اتجاهات الإصلاح في عالم المسلمين، تتجلى أهمية «نموذج كولن» في المجال التربوي، ذلك أنه نموذج يعيد الاعتبار بدأب وإصرار لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركّزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًّا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها الوحي، بمقاصدها الكبرى في بناء العمران، فتصير تلك المقاصد الكلية محددًا لأهداف حركته في الواقع. لذا نجد أن أهدافًا كبرى بسعة العلم مقابلاً للجهل، والكفاية مقابلاً للفقر، والحوار والتفاهم مقابلاً للفرقة والصراع، ظلت أهدافًا قارة لهذا النموذج؛ بل هي المؤهلة وحدها -كما أكد حديثًا- لتوجيه مساره في المستقبل المنظور كما يبدو، لأن المقاصد الكلية الحاكمة لها، والكامنة في النموذج واضحة ثابتة.

علاقة بذلك كله؛ تبدو الدراسات الكثيرة والمتتالية التي

إن "نموذج كولن" في المجال التربوي، نموذج يعيد الاعتبار بدأب وإصرار لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركّزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًّا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها الوحي، بمقاصدها الكبرى في بناء العمران، فتصير تلك المقاصد الكلية محددًا لأهداف حركته في الواقع.

أنجزت حول «المشروع/التجربة» التربوي التعليمي لنموذج كولن، كما تجلت في المدارس التي تأسست بناء عليه عبر العالم، مهتمة بشكل واضح بالنجاحات التعليمية لهذه المدارس، إنْ على مستوى الانتشار في أغلب دول العالم، أو في تصدرها تصنيفات الجودة في مجالاتها، وذلك في أغلب تلك الدول يستوي في هذا الغني منها والفقير.

إن هذا المقترب في دراسة النموذج التربوي على أهميته التي لا تخفى، لا يفسر لوحده قوة النموذج، ولا هو جدير ببيان أبعاده الكاملة. القيمة الأهم التي ينفرد بها هذا النموذج هو مثاله الإنساني. صحيح أنه يشترك مع كثير غيره من نماذج الإصلاح في إنزال النبوة في مقام الاستمداد، واعتبار شخصيته ﷺ المثال الأكمل للاقتداء، غير أن هذه المقولات وتلك الدعاوى كثيرًا ما تسقط على محك الواقع ومكابداته إخفاقًا في مستوى التمثل العام. هذا مكمن الصعوبة في الطريق وتفسير سالكيه لطوله.

ألا ما أصعب التحدي بـ «المثال الإنساني»

المقصود بالمثال الإنساني هنا، هو نوعية العنصر الذي يحرك هذه المنظومة، فتعيد إنتاجه على امتداد الأمكنة والبيئات والظروف؛ المعلّمون المهاجرون والمضحّون بمصائرهم الشخصية والأسرية والمهنية، الأساتذة المتفانون في رسالتهم حد التماهي، الرجال والنساء الباذلون من أموالهم في تسابق عجيب تشهد عليه «مجالس الهمّة» لبناء هذه المدارس والجامعات والمؤسسات ورعايتها في تركيا وعبر العالم، خرّيجوها من الطلاب الذين يعيدون إنتاج هذه الدائرة الصالحة من الخدمة والبذل... هؤلاء الذين يشكلون جميعًا «جزُر سلام» حقيقية في عالم مضطرب، كلهم عنوان صلاحية النموذج، ومعيار دقيق في الحكم، لا على الأداء التربوي والتعليمي وفعاليته فحسب، بل على قوة النموذج الكامن في المنظومة المؤسسية، الـذي أنتج هذه المدارس وصنع هذه التجربة الإنسانية الحية في عالمنا. يمكن حقًّا لنموذج فكري أو تربوي أن يقدم نفسه للعالم اليوم، معتمدًا على مؤشر قوي من مؤشرات الجودة، ويمكن لهذا النموذج أن يعرف الانتشار والقبول سعيًا للإفادة الجزئية من هذا المؤشر. وليس صعبًا أن نجد أمثلة عديدة على ذلك في زمن الإنتاج والاقتصاد والمعرفة المعولمة. لكن الصعب حقًّا هو أن يكون التحدي بالمثال الإنساني... أن تكون علامتك المسجّلة موضع الثقة والفعالية، إنسانًا مؤهلاً تتحدى به ظروفًا معقدة في بيئات صعبة عبر العالم، واثقًا من نجاعة مسلكه القيمي والتربوي، وكفاءته في التعامل معها في كل مكان. أما الاستثناءات البشرية هنا فمؤكدات للقاعدة العامة.

ولعل وضوح الرؤية بالدقة المتناهية في هذا النموذج، يتبين في أنك لا تجد فروقًا بين تجاربه المختلفة عبر العالم، لا في مستوى الأداء، ولا فيما يمكن أن يعتريه من الاتجاهات المذهبية أو الفئوية، ولا في ثوابت فهمه لقيم الإسلام اليوم، والتعامل معها من منظور إنساني رحب. وبهذا يمكن أن تجد من ينتقده بوصفه محافظًا في بيئة وأنه متحرر في بيئة أخرى، أو أنه نصي في بلاد

أو روحاني في بلاد أخرى، صارم في منطقة متساهل في منطقة أخرى... والواقع أنه نموذج ثابت رغم مرونة تغيره في الأشكال والوسائل بما يناسب تعدد البيئات والمناطق، مع حفاظه على جوهر ثابت كامن في نواة العمل التربوي الصلبة.. إنه الـ «نموذج كولن».

وإذا كان لنا أن نعد التغيير الأكبر لنموذج كولن فهو أنه صيَّر تربية الإنسان وتعليمه غاية مجتمعية، تتجه إليها طاقات المجتمع كلها، لا بوصفها أولوية مجتمعية فحسب، بل فريضة شرعية ورسالة حضارية. ثم إن اتخاذ التربية والتعليم مركب القيمة والرسالة والمثال إلى العالم، هو الذي أدى إلى تقويض سلطة الجغرافيا على الفكرة، وهي -كما لا يخفى- واحدة من أهم التحديات التي واجهت رسالة الوحي في تاريخنا، بل ولا زالت تواجهها إلى اليوم. نحن بإزاء دفقة حضارية تنفتح أمامها عوالم «دار الخدمة»، عنوانها «أنك لكي تثبت وجودك في مكانٍ ما، يجب أن تكون في كل مكان».

ربما استحق الأستاذ فتح الله كولن أن يكون «هُوجَا أَفَنْدي» عند الأتراك الذين خبروه أولاً، فهذا الرجل الذي لم تتقو صلته بمتعلقات الحياة الدنيا يومًا، والعالم الذي شكل امتدادًا لميراث المعرفة الإسلامية، والواعظ الذي تفنن في نحت الصخر صانعًا منه آيات من الجمال الإنساني... لا يشغل نفسه بما يقال عن نموذجه، ولا يحتفي أبدًا بنجاحه. لكنه يقدم مثالاً تربويًّا صعبًا غاية الصعوبة تقديمه في عالمنا، قائمًا على الإيمان بالله، ثم الثّقة في أجيالنا وتوحيد مقاصد الفعل كلها لإعداد الإنسان، خدمة للإنسانية وعمرانًا للعالم.

ختامًا

«قال الأعرابي لأهل البصرة: مَن سيدكم؟ قالوا: الحسن (البصري) قال: بمَ سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه

وإذا كان لنا أن نعد التغيير الأكبر لنموذج كولن فهو أنه صيَّر تربية الإنسان وتعليمه غاية مجتمعية، تتجه إليها طاقات المجتمع كلها، لا بوصفها أولوية مجتمعية فحسب، بل فريضة شرعية ورسالة حضارية.

واستغنى هو عن دنياهم. فقال: ما أحسن هذا».

أما الأمل من الكلمات السابقة، فهو أن تكون ثمرتها هدية لكثير من ذوي النهى، المعانين واقعًا أليمًا؛ ثمرة قوامها نموذج حضاري حي وفاعل، يستمد الحياة من مصدر معنوي عميق الغور، ومن مكابدة واقع مركب ومتعدد المستويات رحب الآفاق. ■

من أخلاقيات العمل الجماعي المؤثر
تجربة فتح الله كولن نموذجًا

حميد الداودي

ولد عام ١٩٦٣م في الناظور بالمغرب، تخرج في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، شعبة الدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٧م. حصل على دبلوم الدراسات العليا تخصص السُّنة وعلومها، سنة ١٩٩٥م. حصل على الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية من وجدة بالمغرب تخصص وحدة العمل الاجتماعي في الإسلام وتطبيقاته المعاصرة في موضوع: "منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في الإصلاح والخدمة "، يعمل مدرسا متعاونا لعلوم القرآن بكلية الآداب وجدة المغرب. ومن مؤلفاته: "دراسات في السيرة النبوية"، "الإمام النووي بين العلم والزهد والنصيحة"، "فقه الحديث عند الإمام النووي".

يتحدث الكاتب في هذه الورقة عن جملة من أخلاقيات العمل الجماعي المؤثر، من خلال نموذج حركة الخدمة، مستشهدا بشواهد متعددة من كتابات رائدها الأستاذ محمد فتح الله كولن، وسلوكيات أفرادها العاملين فيها، ومؤسساتها المنتشرة في ربوع الأرض. وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أن العصر الذي نعيش فيه في حاجة ماسة إلى جهود جماعية متكاتفة فيما بينها بعزيمة وصبر وإخلاص ومحوية مع وضوح في الرؤية وتحديد جماعي للهدف إلى آخر ما ذكرته الدراسة من أخلاقيات، لتحقيق مطامح الأمة. ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي، الذي حل محل الدهاء الذي كان للفرد. كما أن رهان ضمان الإقلاع الذي ينتظرنا كأمة منبعثة للتو من رماد الهزيمة، لن تقدر على الاضطلاع به إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء

تتناول هذه الدراسة جملة من أخلاقيات العمل الجماعي المؤثر، من خلال الاستئناس بنموذج حركة «الخدمة» ويتمثل ذلك فيما يأتي:

١- المحوية واندماج الجزء في الكل

يتأسس المعنى الحقيقي للعمل الجماعي من خلال تماهي أفراده مع هدف الفريق المشترك، ومن خلال التضحية بكل هدف خاص يتعارض أو يؤخر تحقيق المتفق عليه، ومن ثم يُفترض في عناصر الجماعة التفكير والسعي جماعيًا بعنوان «نحن» بدلاً من «أنا»؛ «ففي اللحظة التي يتقاسم فيها جميع المشاركين هذا الهدف واقعيًّا وفي إطار من الإقناع -مع إدماج أهدافهم الشخصية أو قبولهم الصريح بوضعها جانبًا- يتم المرور من مجموع الأفراد إلى جماعة حقيقية»[١].

لقد حرص الأستاذ محمد فتح الله على تشكيل جسم متناغم داخل المجتمع التركي، يتمثل في حركة «الخدمة» بعبارة «نحن» حتى إن بعض مؤلفاته صيغتْ عناوينها بـ»نحن»: ونحن نقيم صرح الروح، ونحن نبني حضارتنا، وإنه يقسم الأنانية إلى قسمين: أنانية فردية وأنانية جماعية، ولطالما ذكر أن كليهما مهلك. وقد رسخ الأستاذ فتح الله مبدأ إعلاء الشعور بـ «نحن» على إذكاء الشعور بـ «أنا» وجعله في المقدمة مهما يكن، وكذلك يؤكد على عملية الوصول إلى هو، وإلا فسيستحيل التعلق بـ «نحن» إلى أنانية جماعية تنذر بالخطر. نعم يجب تجاوز الإحساس بحب الذات وجعل الشعور بـ «نحن» في المقدمة»[٢].

وفي سبيل تأكيد إمحاء الفرد في الجماعة والتحدث باسمها كأنها هو، ومقابلة الآخرين بسعي واحد وخطة واحدة جمعت عقولاً وخبرات متعددة، يتعين استحضار أن الزمان زمان الجماعة أو المؤسسات، ومن ثم يجب أن يكون الواحد «فردًا في جماعة وجزءًا من

أن الزمان زمان الجماعة أو المؤسسات، ومن ثم يجب أن يكون الواحد «فردًا في جماعة وجزءًا من كل، لأن الجهد الفردي يظل حصريًا، وربما لا يجد من يقدر أهميته، ولامن يوظفه -التوظيف النافع- فحياة المسلمين تحتاج اليوم أيما احتياج، إلى النهضات الجماعية، ومطامح الأمة تتحقق بالترابط

كل، لأن الجهد الفردي يظل حصريًا، وربما لا يجد من يقدر أهميته، ولامن يوظفه -التوظيف النافع- فحياة المسلمين تحتاج اليوم أيما احتياج، إلى النهضات الجماعية، ومطامح الأمة تتحقق بالترابط، فالعصر عصر جماعة، لقد حلت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء الذي كان للفرد، وأن رهان ضمان الإقلاع الذي ينتظرنا كأمة منبعثة للتو من رماد الهزيمة، لن تقدر على الاضطلاع به إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء»[٣].

إن قدرة أي حركة على الامتداد رهينة بربط تحول تصوراتها إلى برامج وتمثل برامجها في مؤسسات قائمة يحتضنها المجتمع، لأنه لكي تستمر الحركة وتنمو «لا بد أن تتحول إلى مؤسسات مدنية فاعلة نشطة وتقابل احتياجات الأفراد والمجتمع في منحى تكاملي يحقق إشباعًا عقديًّا ودنيويًّا»[٤]. إن هذه القدرة متوقفة كذلك على استيعاب طبيعة الإنسان الاجتماعية والرغبة في الظهور مع الآخرين، ولذاك يحتاج الأفراد إلى توجيههم في هذا السياق ليتم ذلك على بصيرة نافعة للمجموع. يقول الأستاذ فتح الله: «الرغبة في التجمع داخل مجموعات إحساس موجود في فطرة الإنسان. ولا بد من ظهوره، والمهم هنا جعل هذا الإحساس مفيدًا دون ضرر في الأقل. فإن لم يوجه هذا الإحساس توجيهًا حسنًا تطور ونما بشكل يضر الإنسان وبطبيعته. فإن

يصر الأستاذ فتح الله كولن على أن يتم إنجاز المشاريع والمؤسسات على أكتاف أهلها وبأموال أصحابها ووفق أهداف أهل الذكر فيهم واتكاء على إمكانيات حواريها ومحبيها؛ «فكما لا يصح لك أن تؤسس أهم مؤسساتك وأكثرها حيوية وأهمية فوق جزيرة عائمة وسابحة في البحر كذلك لا يصح لك تسليم إدارة ودفة أمورك إلى نظم هي في يد الآخرين.

غُذي هذا الإحساس والشعور بأمور سلبية في الإنسان كالجهل والتعصب وضيق الأفق فانتظر عند ذلك النزاعات الدموية. وعلى العكس من ذلك إن كان العلم وسعة الأفق والتسامح والمرونة موجودة في المجتمع ظهر التفاهم والتعاون بين الجماعات ووصلت إلى رسم خط السلام فيما بينها. وسكنت ردود أفعالنا الغاضبة الموجودة في فطرتنا وسيطرنا على مشاعرنا»[٥].

ومن أبرز تجليات «المحوية» انمحاء التمحور حول الذات ونسبة الفعل للآخرين حتى لو كان الفرد هو صاحب هذا الخير الكبير؛ «ثمة كلام للأستاذ فتح الله كولن نفسه يقول: افتح إسطنبول -أي كن فاتحًا- ثم انس أنك فتحت إسطنبول. وليقل الناس: أحدهم فتح اسطنبول فتقول أنت: من الذي فتح إسطنبول؟!»[٦].

٢- انتهاج سبيل التلطف وتجنب استرضاء الجماهير

مما يعيبه الأستاذ كولن في العمل الجماعي وهو يستهدف خدمة الناس حرصه على استرضائهم في جميع الأحوال وجذبهم بأي طريقة ليكون له موقع داخل المجتمع. إن هذا الخطأ لا يقل خطورة عن الاصطدام مع الآخرين وفتح جبهات الصراع معهم؛ إنه «من الخطأ مخالفة الجماهير، ولكن شرط أن تكون الجماهير جماهير بحق وحقيقة، وإلا فإن من الخطأ موافقتها. فكما أن مخالفة رأي المهندسين في حق مريض لا تعد خطأ، كذلك لا يعد خطأ عدم أخذ رأي الأطباء في حسابات الأبنية والمشاريع الإنشائية»[٧].

وأشد من ذلك نكرًا، أن تجد طبيبًا يستشير المريض الجاهل في الدواء الذي جاء يطلبه عند أهل الذكر، أو أن تجد قادة الإصلاح يحاولون إرضاء أهواء من كلفوا بإصلاح شأنهم وتدبير طريقة علاج اختلالاتهم النفسية والتربوية والسلوكية.

لقد دفعت بعض الحركات ضرائب فادحة لأنها عجزت عن التأثير في اندفاعات الجماهير وحماستها غير المقدرة تقديرها العلمي السليم ووقفت حائرة بين التريث لإصلاح حقيقي هادئ -فتفقد بذلك رضى الجماهير الفائرة- ومسايرة ثقافة الاستعجال والغضب غير المنظم، فيحدث مزيد من الاختلالات وتراكم الحواجز والعقبات.

يقول كولن وهو يحذر من عواقب البحث عن استرضاء الناس: «وككل خصلة رديئة فإن الخروج لاصطياد الجماهير تحت عناوين تحبها هذه الجماهير هو مما ورثناه عن الغرب. ويرون الذين يتبنون هذه الفكرة اللقيطة أن من الطبيعي إحداث ضوضاء في كل حركة كالضوضاء التي تطلقها الدجاجة وهي تضع بيضة واحدة بينما، نرى نحن أن كل نشاط يجب أن يجري في سكون وصبر يحاكي سكون وصبر المرجان الذي يتكاثر بهدوء ودون ضوضاء في أكثر الأماكن هدوءًا وبعدًا عن الأنظار»[٨].

٣- مركزية التخطيط

ما أكثر الأفكار التي أبدعها الأفراد أو الجماعات، وقد يكون منها السديد والرشيد، ولكنها لم تجد لها سبيلاً إلى

واقع المجتمعات أو أنها عند التنزيل تشوهت بترجمة غير مدروسة وبعمل غير مبرمج بالدقة المطلوبة، أو لم توفر أثناء ذلك الظروف المناسبة وفق رؤية واضحة بصيرة.

والناظر إلى حركة الأنبياء والرسل ﷺ يسترعى انتباهه حضور التخطيط في مجالات دعواتهم وهدايتهم.

لقد سعى كولن إلى تحقيق مشروعه الإصلاحي بتخطيط واضح في مختلف مراحل حركة الخدمة. وعمّق بين تلاميذه ومحبيه ثقافة برمجة الأعمال والمشاريع المتنوعة، وهو الذي يقول: «لا يرتفع أي فكر أو مبدأ عظيم إلا بنظام فكري موزون ولا يجد الحياة والأنصار إلا ضمن تخطيط صحيح. وعند ذلك يتحول إلى محراب تتوجه إليه أنظار مؤيديه وأنصاره. والمبدأ الذي لا يجد هذا العون وهذه القاعدة من الأنصار والمؤيدين يموت ويزول قبل ولادته»[٩].

من مقتضيات ثقافة التخطيط فقه السنن وحسن اختيار الأسباب ودراسة النتائج المتوقعة ووضع الاحتمالات الممكنة وإدراك حجم الإمكانات المتوفرة وتصور واقع العوائق القائمة والحواجز المنتظرة، ذلك لأن «سمو الفكرة ومتانة التخطيط وإخلاص الأفراد الذين يمثلون تلك الفكرة إخلاصًا قلبيًا عميقًا عناصر مهمة في نجاح أي دعوة. ولكن يجب التأكد من عمل الأسباب والعوامل التي يتم اختيارها عند التخطيط لأي بناء بحيث تؤدي إلى النتائج المرتقبة. والذين يعقدون آمالهم على أسباب غير مجربة ولم يتم تأييدها من قبل ديوان أو مجلس عال، يصابون هم وكذلك الذين عقدوا آمالهم عليهم بخيبة أمل شديدة»[١٠].

وقد يتيسر وضع خطة ذكية ونهج أسلوب دقيق ببرمجة قائمة على معطيات واضحة، ودراسة جدوى الأسباب المتبعة، ولكن الإمكانات والقوى التي تم الإستناد إليها لم تكن ذاتية أو مستقلة أو لا يمكن توجيهها نحو

يتأسس المعنى الحقيقي للعمل الجماعي من خلال تماهي أفراده مع هدف الفريق المشترك، ومن خلال التضحية بكل هدف خاص يتعارض أو يؤخر تحقيق المتفق عليه، ومن ثم يُفترض في عناصر الجماعة التفكير والسعي جماعيًا بعنوان «نحن» بدلاً من «أنا».

الأهـداف المرسومة، وحينئذ لا يمكن توقع تحقيق الأهداف المرجوة لأن «القوى التي لا تعتمد في وجودها وعدمها، أو تجمعها أو تفتتها علينا، ولا نؤثر نحن فيها، فمن العبث قيامنا بعقد أي أمل عليها. والذين عقدوا تحقيق آمالهم عليها عرفوا أنهم مخدوعون. والذين أسسوا مستقبلهم وبنوه عليها انسحقوا تحت أنقاض ما بنوه»[١١].

لأجل ذلك يصر الأستاذ محمد فتح الله كولن على أن يتم إنجاز المشاريع والمؤسسات على أكتاف أهلها وبأموال أصحابها ووفق أهداف أهل الذكر فيهم واتكاء على إمكانيات حواريها ومحبيها؛ «فكما لا يصح لك أن تؤسس أهم مؤسساتك وأكثرها حيوية وأهمية فوق جزيرة عائمة وسابحة في البحر كذلك لا يصح لك تسليم إدارة ودفة أمورك إلى نظم هي في يد الآخرين»[١٢].

٤- تحديد الهدف والمرابطة على التوجه إلى تحقيقه

إن تحديد الهدف مطلب أساس للعمل الجاد، وعنصر رئيس لتحقيق نقلة نوعية للمجتمعات، وركيزة أساسية لإنجاز المشاريع الكبرى والصغرى، المتوسطة أو البعيدة المدى. والذين يمشون في الأرض بدون أهداف محددة ويظنون أنهم على شيء يخطئون السبيل ويفشلون فشلا كبيرًا. ومن ثم «قبل القيام بأي نشاط أو عمل يجب تحديد الهدف والغاية لكيلا تغل الوسائل يد

الإنسان وتربطه بها، فإن لم يتم عند القيام بالنشاطات في سبيل الله توجيه الروح نحو الهدف فإن الأفكار ستختلط وسيبقى هؤلاء الناشطون أسرى لها دون أن يتقدموا خطوة واحدة»[١٣].

وحتى لا يقع تشاكس الأعمال وتضارب المبادرات يجب توحيد الهدف والتولي شطره لئلا تضيع الجهود، أوصى بذلك كولن بقوله: «يجب أن يتوضح الهدف والغاية في مستوى الفكر ويحتل المركز الأول فيه، وإلا تعددت الأهداف وظهر الاضطراب والفوضى. فكم من حملة نشاط واعدة فشلت في إعطاء أي نتيجة إيجابية وأي ثمرة بسبب الفوضى في تعيين الهدف والغاية»[١٤].

من أعظم الأهداف وأسمى الغايات التي يتعين تولية الطاقات والجهود شطرها، والمرابطة في عدم الإعراض عنها، والاستعداد للتضحية بكل هدف آخر لأجلها، ابتغاء رضى الله عز وجل، فـ «يجب أن يكون الخالق العظيم وابتغاء مرضاته هدف صاحب كل دعوة، وإلا دخلت إلى الساحة الكثير من الأصنام، وتلبس الباطل بلباس الحق وظهرت الأهواء والشهوات في مظهر الفكر وارتكبت جرائم عدة باسم الجهاد»[١٥].

وعندما يمشي القائمون على المؤسسات على نور من هدفهم الكبير وإضاءة من أهدافهم التي برمجوها لها، وتمت أجرأتها وتحيينها، يتمكنون من ضبط سيرها ووقايتها من فقدان وجهتها. ولذلك يجب «على مؤسِّس كل مؤسسة أن يتذكر على الـدوام هدف تأسيسها ووجودها لكيلا ينحرف النشاط عن الهدف، ولكي يكون العمل مثمرًا ومفيدًا، وإلا تم نسيان هدف الإنشاء والتأسيس، فتنحرف المؤسسة مدرسة كانت أم قسمًا داخليًّا أم عائلة عن خط سيرها مثلما ينحرف الإنسان الذي نسي الغاية من وجوده وخلقه ويعمل ضد نفسه ويضرها»[١٦].

ثم إن توحيد الأهداف وسموها ييسر الطاقات لليسرى، ويجنبها العسرى التي تحبط الأعمال، فتشقى بذلك الجماعة التي تسعى بدون وحدة الهدف، مما يؤدي إلى عواقب أقسى عناونيها سراب يحسبه الظمآن إلى الإنجازات شيئًا، لكن عندما يفحصه عن قرب لا يجده شيئًا فيرتد نظره حينئذ حسيرًا. يقول محمد فتح الله كولن: «توحيد الهدف وسموه يحول دون تبدد الطاقات وتصادمها، وأحيانًا قد تبيد الأعمال بعضها بعضًا بـ«التعارض» و«التساقط» حتى ولو كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيرًا وصالحًا. فعندما تتشوش أفراد النمل التي تنقل مادة ما إلى جحورها بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسياقي المشترك، يسحب بعضها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى، فتتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف... كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومُثُل عليا، أو وجدت ولم تملك معها جاهزية ذهنية تناسبها، فإنك تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطًا، لأن قطع الأشواط يتطلب -منذ البداية- تعيين هدف سام يوقره الوجدان ويرغب فيه الانسياق الداخلي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني ذلك تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة»[١٧].

كم من طاقات بخس الناس حقها وزهدوا فيها وفي أهلها لأنها لم توجه نحو هدفها السامي المحدد، وكم من قدرات تم إغفالها وإهمال أصحابها لأنها وُضعت في سياق التنازع بدل التناغم فحرم المجتمع من خبراتها، وكم من جهود لو ضمت إلى بعضها لكان وراء ذلك قوة كبيرة عجلت البشرى. ذلك أن «الهمم والمبادرات الفردية، إن لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظم تنظيمًا حسنًا، فستؤدي إلى تصادم بين الأفراد

لا محالة... وبالتالي سيختل النظام وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتنقص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر... وتجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجه نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقًا، ويزاح خلق المصادمة في النفوس، ويستبدل بروح التوافق، بل يطبع كل إنسان بهذا الطبع مهما أمكن»[١٨].

٥- سياج الانضباط

من أهم ما يُمَكّن العمل الجماعي من محافظته على توجهه الجماعي وسيره وفق الوعي الجمعي التزام أفراده بقواعد التشاور والاستماع إلى ذوي الخيارات والكفاءات، والتسليم بما يسفر عنه تبادل الرأي والسعي لتطبيق ما اتُفِق عليه حتى لو خالف بعض وجهات النظر، بل إن المخالف لا يقل حماسة عن إنجاز ما أوصلت إليه الشورى، فتراه يمثل رأي الفريق أو المؤسسة ويدافع عنه، وهذا كله بفضل قاعدة الانضباط التي تميز هذه المجموعة والمؤسسة.

يقرر الأستاذ فتح الله أن «على المؤمنين أن يتشاورا في كل أمر متعلق بالخدمة الإيمانية والإسلامية، وأن يصلوا في النهاية إلى حكم ما، أو يرضوا بحكم شخص موثوق بعقله وتجاربه وإخلاصه. ثم يبدأ فصل الطاعة والانقياد. فإن كان العكس وتصرف كل شخص حسب رأيه فالنتيجة النهائية هي الفوضى. وبما أن القلوب لم تتحد، ولم تتفق فإن الله تعالى سيحرم هؤلاء من الفضل الذي يسبغه على الجماعة. إن الفرد قد يهدف شيئًا معينًا بفضل كفاءاته ومزاياه وقد يحقق الله هدفه ويعطيه ما يصبو إليه، ولكن هناك أشياء وأفضال لا يعطيها الله إلا للجماعة. فإذا كان الناس قد أفسدوا بنية الجماعة وشتتوها، وبدأ كل واحد منهم يتصرف تصرفًا فرديًا فإنهم سيحرمون من النعم والألطاف التي يرسلها الله تعالى للجماعة»[١٩].

إنه «من الخطأ مخالفة الجماهير، ولكن شرط أن تكون الجماهير جماهير بحق وحقيقة، وإلا فإن من الخطأ موافقتها. فكما أن مخالفة رأي المهندسين في حق مريض لا تعد خطأ، كذلك لا يعد خطأ عدم أخذ رأي الأطباء في حسابات الأبنية والمشاريع الإنشائية».

ولقد أورد خوجة أفندي نماذج وصورًا عديدة من السيرة النبوية تبرز محورية الطاعة والانضباط في حركة الصحابة بقيادة النبي ﷺ[٢٠]، يريد بذلك أن يرسخ قيمة الالتزام بمقررات العمل الجماعي، لأن «الطاعة أمر خاص بأحوال الجماعة، فما إن يبدأ الناس بالتصرف بشكل جماعي حتى تكتسب الطاعة والانقياد أهمية كبيرة في كل ساحة صغيرة كانت أم كبيرة»[٢١].

٦- الإيجابية والعكوف على الإمكانيات الذاتية

يستهدف العمل الجماعي تحريك الطاقات وتوجيه القدرات ودمجها لإنجاز مشاريع محددة، وهو مدعو إلى محطات تأمل ذاتية للتقييم وقياس المراحل التي تم عبورها نحو الأهداف، وإلى وقفات إلزامية عندما يصطدم بعوائق ترجع إلى فريق العمل أو عناصر المؤسسة أو هياكل الجماعة، أو تعود إلى المحيط الذي لا يرحب بهذه المشاريع ويرى فيها خطرًا يهدد وجوده ويناقض كيانه.

وقد تتجاوز عمليات الصد عن أعمال وأنشطة العمل الجماعي مجال النقد والتشهير والسخرية إلى مستوى المنع المادي والحصار والإغلاق، حينئذ لا يجوز أن تتوقف حركات الخدمة والبذل ومحاولات التدافع السلمي الهادئ البصير وفق روح منهج «التلطف» و«عمل المرجان»، وذلك بتنويع وسائل العمل وتجديد

مجالاته الممكنة، من هنا كانت وصية كولن لأتباعه: «إن كانت الظروف والشروط غير ملائمة ولا تسمح بالعبادة العلنية فاجعلوا بيوتكم معابد سرية! وعليكم أن تقيموا معابد لذكر الله تعالى في كل حال من الأحوال»[٢٢].

وما الهجرات المتتالية عبر تاريخ النبوات والدعوات الإصلاحية إلا تعبير عن إصرار هؤلاء العظام على الإيجابية والتمسك بالهدى والحق والخير تحت شعاري: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾(إبراهيم:١٢)، و﴿وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(الزمر:١٠).

لأجل ذلك كان لا بد من امتلاك القدرة على التفاعل الإيجابي مع الظروف المتعددة ورفض الاستسلام لها، عن طريق الإبداع في صياغة البدائل الممكنة وتجديد المناهج للانطلاق في سياقات متطورة. والذي ينظر إلى الواقع المناقض للإيمان بعدسة الإيجابية، يرى آثام الآخرين وانحرافات المجتمع مشاريع لاغتنام الحسنات عن طريق الصبر عليها وعدم التأثر بها، وعن طريق البحث الجماعي لإصلاح ما يمكن إصلاحه ووضع خطط لخدمة هؤلاء بهداياتهم ونصيحتهم.

وكان الأستاذ ينبه في خطبه ومواعظه وكتبه إلى امتلاك هذه الروح الإيجابية لتحويل الأزمات إلى مجال اكتساب المنح والترقيات الإيمانية والدعوية، ومما قاله[٢٣]: «إن الآثام التي تزعجنا الآن كانت موجودة أيضًا في عهد الصحابة. فالنساء كن يطفن حول الكعبة عاريات. وكان الخمر والرشوة والميسر والربا ينخر في جسد المجتمع. ولكن الصحابة أداروا ظهورهم لكل هذه الفواحش وتوجهوا إلى الإسلام. كانوا بشرًا يحملون مشاعر وغرائز البشر. ألم تكن تضحيتهم بكل أهواء النفس هي التي سمت بهم وجعلتهم أعظم العظماء؟ لقد هجروا الفواحش جميعها واختاروا سلوك حياة طاهرة، وساروا خلف رسول الله ﷺ على الرغم من جميع المخاطر التي كانت تحف بهم. فاكتسبوا فضائل كبيرة واستحقوا بذلك أن يكونوا نجوم هداية لمن جاء بعدهم.

وهذه المهالك والمخاطر موجودة اليوم أيضًا. لذا فقد دعي مفكر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النورسي يومًا بـ«رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك». ولو نادى الرسول ﷺ جيل هذا القرن لقال: تعالوا! يا جيل المهالك والمخاطر. لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياة الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسة المكلفة بإسناد كل هذه الوحدات الاجتماعية، وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدة واحدة، وقمنا بإصدار تقييم حولها، لكان هناك وصف واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف (سيء جدًّا) ... «ومع كل هذا فإننا نتقبل هذه المغارم من أجل مغانمها ونجد السلوى في المغانم التي تكسبها لنا، بل نفرح، ذلك لأننا في الوقت الذي نستطيع فيه تجاوز هذه المصاعب تكون مكاسبنا بنفس النسبة. فإن كان الصحابة وفقوا إلى تجاوز تلك الشروط الصعبة، فاستحقوا أعلى المراتب، فإننا نأمل من صاحب الرحمة الإلهية ﷻ أن يوفق المؤمنين الحاليين ويعينهم لكي يصلوا إلى السعادة نفسها». وحتى يتم الحفاظ على هذه الإيجابية يقترح كولن التمسك بالجماعة وعدم البقاء وحيدًا والحذر من الاستمرار في الذنب بدون توبة، واغتنام آناء الليل للتهجد[٢٤]، ويوصى بما يلي -في إطار وصفة جماعية للحفاظ على إيجابية الجسم الجماعي: «ما أحسن أن نقرأ كل يوم بضع صفحات عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممن عاشوا الإسلام بصدق. ونلون حياتنا بهم، ونخرج إلى الشارع وإلى السوق بهذا الروح الممتلئ. فإن فعلنا هذا استقام عالمنا الداخلي من جهة ووجدنا فرصة مقارنة أنفسنا برجال القلب والروح الحقيقيين من أمثال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. ونقول لأنفسنا: لقد كان

هؤلاء مسلمين، ونحن أيضًا مسلمون، فلماذا كانوا هكذا؟ ولماذا أصبحنا نحن هكذا؟

- حضور مجلس شخص يستطيع بث الخشوع في قلوبنا، وطلب النصيحة منه وتذكر رسولنا ﷺ وأصحابه. علينا أن نلجأ إلى كنف مرشد يستطيع بجوّه الروحي أن يذيب كل الشرور ويرينا طرق وسبل تجديد أنفسنا»[٢٥].

تجنب الفراغ والاشتغال بعمل من أعمال الخدمة؛ لأن «الشيطان يتعرض أكثر ما يتعرض للأشخاص العاطلين الذين لا يقومون بأي نشاط ديني ولا يحملون هم الدعوة إلى الله. لذا علينا أن نبدأ من نقطة البداية هذه ونبحث عن طرق النشاط والبعد عن العطل والفراغ»[٢٦].

- ملازمة الأصدقاء الجيدين واختيار الصحبة الصالحة الناصحة المؤثرة[٢٧].

٧- الاعتزاز بالعمل الجماعي ونسبته إلى الله ﷻ

لقد تقارب العالم وأصبح أكثر اتصالاً وإن كان التواصل فيه يعاني اختلالاً، وتنوعت وسائل الأمم في عرض أو فرض أنماطها الحضارية، وقد «تمدن وتحضر في معظمه، لذا فالغلبة الآن تتم عن طريق الإقناع وعن طريق العلم وعن طريق المحاورة والكلام أكثر مما تتم عن طريق القوة والعنف. وفي مقابل هذا فقد نمت الفردية بين الناس وضعفت العلاقات الرابطة بينهم. وبما أنه أصبح الدور الآن هو دور الجماعة والشعور الجماعي أكثر من دور الأشخاص والأفراد المتميزين والفريدين، فإن المطلوب ليس التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر لينًا وتواضعًا»[٢٨] ولذلك يدعو الأستاذ إلى إدراك أن ما يقوم به أهل الخدمة عمل جليل يندرج -مع عموم جهود الأمة كلها- في سياق إحياء السنة النبوية طريقًا للحصول على مرتبة الشهداء الكرام، يؤكد ذلك بقوله[٢٩]: «من الطبيعي أن يكون إحياء السنة عند انتشار الفساد، أي إحياء الطريق

إن الخروج لاصطياد الجماهير تحت عناوين تحبها هذه الجماهير هو مما ورثناه عن الغرب. ويرون الذين يتبنون هذه الفكرة اللقيطة أن من الطبيعي إحداث ضوضاء في كل حركة كالضوضاء التي تطلقها الدجاجة وهي تضع بيضة واحدة بينما، نرى نحن أن كل نشاط يجب أن يجري في سكون وصبر يحاكي سكون وصبر المرجان الذي يتكاثر بهدوء ودون ضوضاء في أكثر الأماكن هدوءًا وبعدًا عن الأنظار.

الذي يبين الفرائض والواجبات والسنن، والقيام بأي خدمات وجهود لجعله سالكًا من جديد ومضمونًا وآمنًا حتى يوم القيامة، تعد خدمات وجهودًا مقدسة ترفع أصحابها إلى مرتبة الشهداء، بل هناك العديد من بين هؤلاء من يحصل على أجر عدة شهداء في كل يوم من أيام عمره، أما الذين يحاولون من بين هؤلاء إحياء أركان الإيمان فهم يكسبون ثوابًا أكثر من ثواب مائة شهيد».

وهو يرجح حمل هم الأمة بصدق وعمق وإخلاص على الكثير من التطوعات في أطهر بقعة في الأرض؛ عندما يقرر «أن العيش في آلام هذه الأمة المنكوبة البائسة، والتفكر في أحوالها، والتألم لآلامها، دعاء عظيم وتضرع كبير قد يفوق أجره أجر ألف ركعة من الصلاة حتى في مكة المكرمة، وأفضل من الطواف حول الكعبة»[٣٠].

يصل مستوى صدق حمل هم الآخرين بصاحبه إلى «تلك اللحظة التي يحس فيها المؤمن بصداع في رأسه ويضع يده على خاصرته وهو يتلوى من الألم، كأنه يكون آنذاك مع إخوانه الذين يقلق من أجلهم، ومع إخوانه الذين يفكرون مثله»[٣١].

ولا يخفي الأستاذ سعادته بحواريه من أهل الخدمة

من الذين ينبههم إلى الاعتزاز بما يبذلونه من جهود. وأن يستمروا على ذلك، وأن ينسبوا الفضل في كل ذلك إلى المولى النصير، فهو ولي النعمة والفضل الكبير؛ قال: «نسأل الله تعالى أن يجعل من نصيبنا الاستمرار في هذا الطريق بشكل دائم وأن يوفقنا إلى الخدمة بإخلاص»[٣٢]. نحن سعداء ومحظوظون جدًّا. فعندما يتم ذكر خدماتنا نقول: «إن الوظيفة الملقاة على عاتقنا إنما هي فضل وإحسان إلهي». أجل، فقد وظفنا في هذا العهد الذي اختلط فيه الحابل بالنابل بوظيفة مقدسة وغالية. وإن إحياء هذا الدين بكل مؤسساته وبكل كادره وبكل جماعته عمل لا نظير له في العالم، وهو من جانب آخر استمرار لوظيفة الرسول ﷺ ومتابعة لدعوته. وكم نتمنى أن يستمر أصدقاؤنا حتى يأتيهم اليقين بنفس الهمة وبنفس الحماس والوجد في خدمة القرآن والإيمان، هذه الخدمة التي تكسب في كل آن ثواب شهيد.

٨- التكامل بين صلاح الفرد والمجتمع

يرى الأستاذ محمد فتح الله كولن أن الإنسان الفاضل هو أول لبنة من لبنات المجتمع، وأي جهد بذله الفرد في اتجاه تجسيد القيم والفضائل الإيمانية والأخلاقية يؤدي إلى تحريك الراكد الاجتماعي، وينبه إلى ضرورة احتضان الخير والإيمان، لأن المؤمن «في الوقت الذي ينفذ ما هو الواجب عليه من مهام ليملأ حياته بالفضائل، يحاول أن يملأ مجتمعه الذي يعيش فيه بها كذلك. وعندها يمكن التحدث عن الإنسان الفاضل بمعنى الإنسان الكامل والمجتمع الفاضل الناشئ من هؤلاء الأفاضل والأمة الفاضلة»[٣٣].

وعندما يتأسس مثل ذلك المجتمع القوي، يكون مصدر تأثير على غيره من المجتمعات، ومنطقة مركزية تجذب إليها الآخرين لأنه من «المعلوم أن المجتمع المنور يتكون من أفراد منورين، ومثل هذا التشكل لا يقتصرعلى جذب الأفراد إليه فحسب، بل يجذب أيضا التكتلات والشعوب الأخرى»[٣٤]. ولذلك ينتقد الأستاذ الرهان على أي إصلاح اجتماعي دون وجود الركن الأساس؛ وهو الفرد الصالح المصلح، الذي إن لم يوجد فإن انتظار نشوء مجتمع فاضل لا يعني غير الخيال. وذلك للعلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع، حيث إن المجتمع يتشكل من الأفراد، ولهذا فالمجتمع الفاضل هو الذي يتحلى أفراده بالفضائل. ومن جهة أخرى فكما أن الأفراد مضطرون إلى صيانة الفضائل التي كسبوها، فالمجتمعات أيضًا مضطرة إلى صيانة الفضائل التي كسبتها من قبل»[٣٥].

والأصل أن طبيعة علاقات المجتمع الإسلامي المتعددة قائمة على النصيحة والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن هذا من أبرز مميزاته، لأنه به يتمكن الفرد والمجتمع من حماية مكتسبات الخير والإيمان، ومضاعفتها والحيلولة دون انهيار العلاقة السليمة بينهما، ودون تفشي أسباب النخر الداخلية والسقوط في الفخاخ الخارجية. يقول كولن: «إن الفضائل التي يكسبها الأمر بالمعروف للفرد والمجتمع تدوم ويحافظ عليها بالأمر بالمعروف أيضًا. وبخلافه سيبدأ التقهقر والتراجع تدريجيًّا حتى ينتهي بانتهاء ذلك المجتمع القاصر. وللحيلولة دون بلوغ هذه النتيجة لا بد من إذكاء القوة المعنوية وجعلها في حيوية مستمرة. وهذا يحصل أيضًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن هذه الوظيفة المقدسة حياة للفرد والمجتمع على السواء، وفي الوقت نفسه شرط للحفاظ على الحياة. ولعل هذا هو السبب في اشتراط سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم الأمر بالمعروف عند قبوله البيعة من

بعض الأشخاص»[٣٦].

وللمجتمع تأثير قوي على الأفراد، من خلال مؤسساته المتعددة، ولا مناص من حدوث الأثر على الفرد سواء أكان إيجابيًا أم سلبيًا، مما يستدعي العناية بمهندسي المجتمع وصناع قراره الثقافي والأخلاقي والتربوي. ولذلك يتوجه المصلحون إلى مراكز التأثير الاجتماعي والثقافي ويقومون بإعادة صياغة الأجهزة المفاهيمية التي تصنع إرادات وقــرارات المجتمع الصالحة المصلحة. يؤكد فتح الله كولن ذلك بقوله: «ومن الحقيقة أن لبنيان المجتمع من حيث صحته أو عطبه، وجوانبه الإيجابية أو السليبة تأثيرًا بينًا على الأفراد، وإن لم يتمكن العقل -دائمًا- بالنظر الظاهري السطحي من إدراكه والشعور به، فالأفراد هم أبناء المجتمع الذي يوجدون فيه، ويحسون بكل شيء ويعيشونه ويتقبلونه في بيئة مجتمعهم. فالواجب على أهل العلم والمعرفة عمومًا وعلى المسؤولين خاصة أن ينقوا ويغربلوا الأفكار الغريبة الضارة والمنكرة التي تؤثر على المجتمع سلبًا وتضاد العقل والمشاهدة والتجربة والفكر الديني. إن أعظم الأبطال الذين قاموا بهذه الغربلة في التاريخ هم الأنبياء، ثم من بعدهم الأصفياء المتحفزون بالإلهام، ورجال الفكر الذين تكاملت قلوبهم وعقولهم، ورجال العلم الموقرون لعالم الغيب مع عالم الشهادة، وللحس الوجداني مع التفكير العقلاني وللوحي السماوي مع التجربة»[٣٧]. ■

---

(١) نصوص في دينامية الجماعات الحسن اللحية ص ٨.

(٢) فلسفة الخدمة لدى الأستاذ محمد فتح الله كولن. د. أركون جبان. مستقبل الإصلاح في العالم الاسلامي - خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية. القاهرة ٢٠٠٩ – ص ٢٦١.

(٣) الانبعاث الحضاري ص ٧٧

(٤) شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية. د حسن أبوطالب مستقبل الاصلاح في العالم الاسلامي ص ٥٢٦

(٥) الموزازين ص ٦٩

(٦) مستقبل الإصلاح في العالم الاسلامي نوزاد صواش ص ٣٢٦

(٧) الموازين ص ١٦٠

(٨) نفسه ص ١٧

(٩) نفسه ص ٥٢

(١٠) الموزاين ص ٥٢-٥٣

(١١) نفسه ص ٥٢

(١٢) نفسه ص ٥٣

(١٣) الموزاين ص ٢٢

(١٤) نفسه ص ٢٢

(١٥) نفسه ص ٢٢

(١٦) نفسه ص ٢٢

(١٧) ونحن نبني حضارتنا ص ٣٩

(١٨) ونحن نبني حضارتنا ص ٤٤

(١٩) أسئلة العصر المحيرة ص ٢٤٦-٢٤٧

(٢٠) نفسه ص ٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠

(٢١) نفسه ص ٢٤٧

(٢٢) أضواء قرآنية ص ١٦٤

(٢٣) أسئلة العصر المحيرة ص ١٧٤، ١٧٥

(٢٤) أسئلة العصر ص ١٧٦-١٧٧

(٢٥) نفسه ص ٢٥٣-٢٥٤

(٢٦) نفسه ص ٢٥١

(٢٧) نفسه ص ٢٥٢-٢٥٣

(٢٨) أضواء قرآنية ص ١٢٧

(٢٩) أسئلة العصر المحيرة ص ١٣٨

(٣٠) النور الخالد ص ٤٢٦

(٣١) نفسه ص ٤٢٧

(٣٢) أسئلة العصر المحيرة ص ١٣٩

(٣٣) طرق الإرشاد ص ٥٠

(٣٤) نفســه ص ٥٢

(٣٥) طرق الإرشاد ص ٥٥

(٣٦) نفســه ص ٥٦

(٣٧) ونحن نبني حضارتنا ص ٢٨-٢٩

أ.د. سليمان عشراتي (الجزائر)

الخدمة تفسير عملي للقرآن

لقد احتذى الأستاذ فتح الله كولن خُطى نبيه المصطفى ﷺ في سيرته العملية؛ إذ سلك سبيل التفسير العملي للقرآن من خلال السعي بلا هوادة إلى إرساء فلسفة الخدمة التي تنبني على تحقيق الإنجازية الواقعية لتعاليم الإسلام. فجاءت من ثمة برامج الخدمة صعيدًا للتأسيس الخيري، وفضاء للتباري الإحساني والتشييد المشاريعي الذي ينهض بالأمة وتستعيد به روح دينها العملي على النحو الفعلي: «الدين ما وقر في القلب وصدّقه العمل»، «الدين المعاملة». فمشروطية العمل والتنفيذ هي ركن العقيدة الإسلامية، ولا يكتمل أداء الفرض الشرعي إلا بالثمار، إلا بالبعد الواقعي والمعادل الموضوعي على أرض الواقع، وفي حياة الأفراد والجماعات. فزكاة القرآن تجسدها حركة فتح الله كولن من خلال هذا الخروج المتزايد لأبناء تركيا ممن استقطبتهم -ولا تزال- أنوار الخدمة، وتُشَرِّعُ في وجوههم إمكانات العمل وتحقيق الذاتية المتفانية في ذات المصطفى ﷺ وتفعيل أوامره ونواهيه في مجال بناء النفس والإنسان، وإرساء الوقفيات ذات النفع الأصيل التي تهيئ لنهضة الأمة.

د. يحيى وزيري (مصر)

«الخدمة» رمز العطاء

أبناء الخدمة يشبهون زهرة التوليب (اللاله) في كونها رمزًا للعطاء والإلهام، فكما أن ألوانها مختلفة فمنها الحمراء والصفراء والبيضاء، فهم أيضًا مختلفون في درجة الغنى أو الثقافة أو المكانة الاجتماعية.. ولكن يجمعهم كلهم مشروع إيماني دعوي واحد، ألا وهو «الخدمة». و«الخدمة» لمن لا يعرف، هي جوهر المشروع الدعوي للمرشد والمربي «هُوجا أفَنْدي» أو «الأستاذ المعلم» محمد فتح الله كولن، أيْ خدمة الإيمان والقرآن عن طريق رجال وفرسان الخدمة، ولا سيما رجال الأعمال الذين يطلق عليهم «الأصناف» الذين يقومون بالعديد من أعمال الخير التي أمر بها الإسلام، كبناء المدارس والجامعات والمستشفيات، أو بكفالة طالب علم أو بإطعام ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(البلد:١٥-١٦). وقد كان الإطار الذي انتظم تنفيذ هذا المشروع الدعوي التربوي، هو مبدأ «التلطّف» تنفيذًا لقوله تعالى: (وَلْيَتَلَطَّفْ)(الكهف:١٩).

د. عبد الله المصلح (السعودية)

الجيل الذهبي

لقد ربّى الأستاذ محمد فتح الله كولن تلاميذه بالدموع قبل أن يربّيهم بالكلمات، ربّاهم بالإخلاص. فلماذا لا نفعل ذلك؟! فتح الله كولن كان يجتمع في دروسه الآلاف، ولمّا اجتمعوا، ما طَلَبَ منهم أنْ يكونوا مسؤولين سياسيين ولا أن يكونوا أثرياء اقتصاديًّا.. حتى الزواج ما تزوج، وإنما بدأ بصناعة جيل مثالي، مثل هؤلاء الشباب.. ربَّاهم.. حرِص عليهم.. نمَّا فيهم الإيمان.. كأنِّي به وقد أخذ بمنهج رسول الله ﷺ.

أ.د. عبد الحليم عويس (مصر)

عالم الأستاذ فتح الله كولن

عندما تدخل إلى عالم الداعية المربّي «فتح الله كولن»، ادخل إلى عالمه تلميذًا يريد أن يعرف الحق بالعلم والنور ويعمل به.. ولا تدخل إلى دنياه أستاذًا يريد أن يعلّم وينقد. والفرق شاسع بين المدخلين. عندما تدخل تلميذًا تكتشف الكثير.. بوجدانك كله.. تكتشف أنك تعيش الطبيعة العصرية لمنهج القرآن والنبوة.. لكأنك في مدينة الرسول ﷺ مع أنك في القرن الحادي والعشرين للميلاد، الخامس عشرة للهجرة. وفي مجلسه تشعر بعبق الرسول الأعظم الخاتم سيد المرسلين وإمامهم ﷺ، كما تشعر بالرائحة الزكية لصحابته رضوان الله عليهم أجمعين وكأنهم أنفسهم موجودون. اذهب إلى عالم الأستاذ -أو الواعظ- «كولن»، وأنت

تتمثل منهج النبوة القديم والمعاصر. واعلم أنه يحقق المنهج نفسه.. فتعاملْ معه بقريب مما كان الصحابة يعاملون به المعلم الأعظم محمدًا ﷺ بين يديه وفي مسجده، أو وهم يمشون معه عليه الصلاة والسلام في دروب المدينة وأسواقها. وهنا ستكون قد عرفت المفتاح الأساس العامّ من مفاتيح مدرسة كولن القرآنية النبوية الفكرية العملية.

د. سعيد شبار (المغرب)

كولن يقدّم جوهر التجديد

نعتقد أن أعمال فضيلة الأستاذ فتح الله كولن في الروح والإيمان، وفي الفكر والثقافة، وفي السلوك والحضارة، وفي الإرشاد والتبليغ، وفي القيم والأخلاق، وفي نماذج السلف والصالحين والمفكرين والباحثين.. وفي كل جانب طرقه، إلا وكان له أبلغ الأثر في تحريك القلوب والعقول، وتحفيزها على مساءلة الذات إزاء تكاليفها وواجباتها تجاه الدين والناس. وما ذاك -في تقديري- إلا من جهتين متلازمتين: القوة والصدق في الأخذ، والقوة والصدق في العرض. فلا يستطيع المرء أن ينبض من عمق الأصول إلا بصدق وقوة في الإقبال، كما لا يستطيع أن يؤثر في الناس إلا بنفس القوة والصدق أو قريبًا منهما في العرض عليهم. نعم، نقول هذا ونكرره، لكننا نعجز عن القيام به وعن تمثله. وأعتقد أن الأستاذ فتح الله كولن يقدم نموذجًا ومثالاً حيًّا عن هذا الإمكان، وذلك من خلال تحريكه لمساحات جديدة من القرآن يتحرك معها العقل والوجدان وينفعل بها الواقع والسلوك، ويعاد من خلالها بناء تصور الإنسان عن ذاته وواقعه ومحيطه، وذلك هو جوهر التجديد وروحه.

أديب إبراهيم الدباغ (العراق)

الخدمة قوة اندفاعية للحياة

إن «الخدمة» بمؤسساتها المختلفة إنما هي قوة اندفاعية لحياة المجتمع، إنها روح سام وعقل اقتحامي وَثَّاب. وهي ليست ابنة حقبة زمنية معيّنة، بل هي الحقبة الزمانية المعنية نفسها، وهي إحدى التجارب الحية التي تغري الباحثين للمزيد من الدراسة والبحث والتقويم.. فهذه الخدمة تعني في كثير مما تعنيه أنّ هناك طريقة أخرى للعيش، طريقة مجدية، وذلك بواسطة تعاون العقل والتجربة، وتناغم العقل والوجدان، والروح والمادة. كما أنها تعمل من الناحية السيكولوجية على جعل العامل فيها يعود إلى نفسه، ويصالح ذاته، ويلتقي وجوده، ويستخرج من هذا الوجود قواه الفاعلة غير المنظورة، ويسخّرها للتجديد والإبداع والابتكار، وبذلك يتخلص من جحيم وجوده الداخلي الذي تؤججه فيه السكونية والبطالة واجترار الزمن الميت، بينما تظل غريزة الحياة الملتهبة في داخله تستحثه لكي يلقي بنفسه في دوامة العمل، ويكرّس وجوده للفعل والانفعال. فرجل الخدمة يأسف شديد الأسف ويرثي لأولئك الناس الذين يضطرون -لسببٍ ما- إلى قضاء هذه الحياة بهذا الشكل الفاتر والتافه والمدمر. فرجل الخدمة لا يعرف الراحة، ولا يستنيم لها، ولا يقبل أنْ تغلبه. وكلما جنح إلى شيء من الراحة، أحسَّ بألم في روحه يفزعه ويقضّ مضجعه. إنه كالطائر الذي انطلق من قفصه يموت ولا يعود إليه مرة أخرى.

د. نادية مصطفى (مصر)

محور الخدمة «بناء الإنسان»

تعرفت على فكر الأستاذ فتح الله كولن من خلال إنجازات المؤسسات التي تجسِّده واقعًا ملموسًا، ومن رجالات يحملون هذا الفكر إلى الإنسانية في داخل وخارج تركيا. إنه الشيخ الفقيه والمفكر والعالم والمُصلِح الذي اجتمعت حوله قلوب وعقول أجيال من الأتراك المتعطشين لتجديد دنياهم بتجديد دينهم، فكانوا جميعًا، الأستاذ وتلاميذه، تيارًا متدفقًا

يخدم الإسلام والمسلمين والعالمين في إطار جديد يمتد من الوطن تركيا إلى الأمة الإسلامية والعالم، ويجمع العلم والإيمان، الفكر والحركة، العقل والوجدان، الروح والمادة. لقد تمحور فكر الأستاذ وجهود الخدمة حول «بناء الإنسان»، وهو محور كل إصلاح ابتداءً من الديني مـرورًا بالتربوي والمجتمعي ووصولاً إلى السياسي.

د. جيل كارول (الولايات المتحدة)

إنشاء عالم جديد

لقد عشت مع فتح الله كولن من خلال كتاباته أثناء إعداد كتاب «محاورات حضارية»، وما زالت أفكاره تلهمني. ولقد عرفت بعد لقائه لماذا ألهم هذا الرجل ما يقرب من ثلاثة أجيال في تركيا ومنَحَهم الدافع رجالاً ونساء لإنشاء عالم جديد. إنه رجل يتمتع بقدر هائل من الروحانية والإخلاص والتعاطف، وهو شيء واضح للغاية في كتاباته وفي شخصيته.

د. فؤاد البنا (اليمن)

الخدمة جوهر العبودية

حضر أهل الخدمة بفاعلية في ميادين الخدمات التي تحتاجها مجتمعاتهم، سواء في الميدان الاجتماعي الخيري، أو الميدان المالي والاقتصادي، أو الميدان الإعلامي والفني.. فكانوا أعلامًا مبرزين في كل هذه الميادين، مع وجـود بعض التفاوت النسبي فيما بينهم، وحققوا أرقامًا مدهشة ومـنـجـزات مبهرة تـفـوق بكثير المدخلات التي يمتلكونها، لكنها بركة الإخـلاص والتدقيق والشورى. لقد تفوق أهل الخدمة في الفاعلية التي عرفت عنهم واشتهروا بها، وذلك بسبب التوسع الأفقي والعمق الرأسي في الخدمات، حيث خاضوا كل مجالات الخدمة، وجمعوا في كل مجال منها بين الإخلاص الدعوي والإتقان المهني. إن حجر الزاوية في هذه الفاعلية التي اتسم بها أهل الخدمة وتفوقوا على نظائرهم هي اليقين بأن الخدمة هي جوهر العبودية التي خلق من أجلها الإنسان.

د. يوهان هافنر (الولايات المتحدة)

نظام التفاعل بين الفرد والجماعة

الجانب السلوكي لهذه الحركة يبرز مفهوم الخدمة التي تستهدف تغيير الأحوال للبيئة المعيشة، وهي الجامع بين القادر والمحتاج، بين صاحب المال وصاحب الحركة وصاحب الفكرة. وجوهرها يُعْنَى بتنظيم العطاء المتبادل بين الأفراد والمجتمع. وبهذا المعنى فإن الخدمة هي نظام التفاعل بين الفرد والجماعة والحركة، هي أساس التناغم بين الفرد كأحد أعضاء الجماعة، وبين الهدف الأكبر وهو إصلاح حال الأمة الإسلامية على امتداد وجودها المكاني الجغرافي، كمقدمة لإصلاح حال الإنسانية. وكل من تعرفنا عليهم في «الخدمة» يشعرون بأنهم يؤدون رسالة إيمانية بالدرجة الأولى، واجتماعية مدنية بالدرجة الثانية، وأنهم جميعًا أصحاب قدر واحد.. ومن هنا حالة التضامن الشديدة بينهم. ويكمن الاهتمام الأول للحركة في تربية النفس والـروح، وتقوية عزيمتها الإيمانية والرسالية. وما رأيناه من اهتمام بالتعليم، في المدارس والجامعات والنظم التربوية يعكس أهمية بناء الإنسان منذ الصغر من خلال مجتمع مؤمن عقيدةً وملتزم سلوكًا. لذا فالمعلم في داخل الخدمة له تأثير ودور كبير في صلاح الحركة ونجاحها. وفي السياق نفسه فإن الحركة من خلال مدارسها وجامعاتها تعمل على إعـادة بناء المجتمع بطريقة سلمية وتدريجية وتراكمية.

د. عبد الرزاق قسوم (الجزائر)

مصباح الأستاذ كولن

تحس وأنت تهتدي بمصباح الأستاذ فتح الله كولن أنه يتعامل مع القرآن كأنه نزل عليه. فتح الله كولن يُخضع الآية القرآنية لمصباح العقل، لكن العقل المدعَّم بالإيمان، ويستنبط منها لآلئ ثمينة. ولكنه في كل آية يقدّم لنا لوحة فنية جمالية طبيعية وعقلية داعية إلـى التأمل وإلى استنباط ما يجب استنباطه من تعقل

وتأمل إيماني ليوجه عقلنا به.

أ.د. وهبة الزحيلي (سوريا)

توعية الأمة

وجدتُ في تركيا مَثلين فريدين في توعية الأمـة يعملان على تحقيق طموحات كبرى في بناء الأجيال والمستقبل المشرق الوضاء. الأول هو العلامة الملهم المفكر الأستاذ بديع الزمان «سعيد النورسي» رحمه الله. والمثَل الثاني إنما هو الرجل المخطِّط والمنفِّذ لكل خطة، ألا وهو الأستاذ «فتح الله كولن». فهو -كما لمستُ من آثاره القيمة وتوجيهاته الهادئة- وراء كل عمل خيّر عظيم، وفضل عميم في نفع أمته وبناء شخصية الجيل والشباب بطاقات عملية وأنشطة حيوية مفيدة جدًّا ورائعة شملت أنحاء الحياة كلها؛ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعرفية والعملية الهادفة، المتميزة بالحركية الفاعلة، والديمومة الناجحة من معين الإسلام الخالد. لا أذكر هذا على سبيل الإشادة والمديح، وإنما ألقي الضوء على خطوات النجاح في العمل الدعوي الإسلامي الذي يعد أنموذجًا ليستفيد منه الآخرون.

مولانا وحيد الدين خان (الهند)

رجل الإصلاح

في رحلتي الاستكشافية إلى تركيا تعرفت على رجل النهضة، الأستاذ فتح الله كولن الذي أثّر في كثير من الـنـاس، وتعرفت على عديد ممن استلهموا أفكاره وأنجزوا أعمالا عظيمة.. وأعتقد أن الأستاذ كولن لديه من الحكمة ما جعلته ينتبه إلى وجوب خدمة وهداية البشرية، وذلك من خلال معرفته لروح العصر الحديث. ومن أجل ذلك الهدف النبيل ربّـى مجموعة من الناس، أظن أن كل فرد منهم اليوم كالأبطال يقومون بأعمال رائعة.

أ.د. أحمد عبادي (المغرب)

النموذج القرآني في بناء الإنسان

لم يكن الأستاذ فتح الله كولن تكرارًا لنموذج معيّن، وإنما مقصده إطلاق النموذج القرآني في بناء الإنسان فردًا واجتماعًا. هو نموذج لحضارة مُعتَقَة من كل أنواع العبودية والرهق التي يعيشها الإنسان ولا يزال. تستشعر وأنت تتعامل مع كتابه «ونحن نبني حضارتنا»، أن هنالك أفقًا أُنُفًا لم يتم رصده من قبلُ. فأنت تشعر أن الأستاذ لا يتكلم عن العلوم الإسلامية باعتبارها أمـرًا تم الفراغ منه وتم اكتماله، لكنه عكس ذلك يرى أنه بنيانٌ ينبغي أن يُستأنف لارتياد تلك الآفاق الأُنُف التي لم يتم ارتيادها من قبلُ.

أ.د. خليل النحوي (موريتانيا)

صورة تؤكد صدق النبوة

إن الأستاذ محمد فتح الله كولن هو صورة أخرى من الصور التي تؤكد صدق النبوة.. الأستاذ محمد فتح الله كولن وارثٌ من ورثة النبي ﷺ، تلك الوراثة العظيمة التي تتمثل في العلم والعمل. أعتقد أن الأستاذ محمد فتح الله كولن، حقق الله به جانبًا عظيمًا من هذا الوعد النبوي الصادق بأن يبعث الله لهذه الأمة وأن يجدد لها دينها على رأس كل مئة عـام، ولعل المقصود هو من حين لآخر من فترة إلى أخرى، أن يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها. والأستاذ محمد فتح الله كولن، قدّم درسًا عظيمًا في وراثة رسول الله ﷺ.

أ.عبد القادر الإدريسي (المغرب)

لقد جمع الأستاذ فتح الله كولن بين النور والفتح، بين الإيمان والعمل، بين الفكرة البانية وبين الممارسة الحكيمة، حتى أقـام هذا الصرح الشامخ الذي ارتفعت مناراته في بلده تركيا، فامتدت أنواره إلى الآفاق البعيدة... وكما سبق مني القول: «عـذرًا سعيد النورسي، ما عرفتك إلا أخيرًا»، فإنني أقول لهذا المصلح المجدد: « عذرًا فتح الله كولن، ما عرفتك إلا اخيرا».

نسمات

إصدارة علمية بحثية متخصصة

نسمات إصدارة علمية بحثية متخصصة في دراسة مشروع الخدمة والرؤية الإصلاحية للأستاذ فتح اللــه كولن في أبعادهــا الفكرية وتجلياتها التطبيقية. وهي تندرج في إطار الأعمال البحثية الميدانية المتخصصة في ظاهرة اجتماعية ما، تسلط الضوء عليها، وتسبر أغوارها بعمق، وتكشف عن حيثياتها ومآلاتها، وتعقد صلتها بخبرة الماضي، وتدرس فاعليتها في الحاضر، وتستشرف امتدادها في المستقبل، لتخرج بنتائج علمية تشكل إضافة نوعية إلى المعرفة الإنسانية والخبرة البشرية.

يهدف مشروع نسمات إلى سبر أغوار نموذج الخدمة والرؤية الحضارية للأستاذ فتح الله كولن ودراستها من زوايا شتى، سواء من الناحية النظرية الفكرية، أو من الناحية العملية التطبيقية. ومن ثم تحث الباحثين في المجال الفكري الحضاري على الســعي معها في هذا المضمار، وترحب بكل عمل جاد يساعدها على تحقيق مبتغاها.

شروط النشر

- أن تكون المشاركة جديدة لم يسبق نشرها.
- أن تكون دراسة متصلة بمشروع الخدمة وفكر الأستاذ فتح الله كولن.
- أن تكون المشاركة إســهاما إيجابيا مثريا، تشكل إضافة نوعية في القراءة والنقد والتحليل وتتوافق مع المعايير العلمية المعروفة.
- ألا تقل عن ١٥٠٠ كلمة وألا تزيد على ٧٠٠٠ كلمة.
- أن يرسل الباحث ملخصا لمشاركته في حدود ٢٥٠ كلمة.
- تخضع المشــاركات المعروضة للنشر لموافقة لجنة استشارية علمية، وللجنة العلمية أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل على المشاركة قبل إجازتها للنشر.
- هيئة التحرير تلتزم بإبلاغ أصحاب المشاركات بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ هيئة التحرير بحقها في نشر المشــاركات وفق خطة التحرير وحســب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- المشاركات التي تنشر في نسمات تعبر عن آراء كتابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- لـ«نسمات» حق إعادة نشر المشاركات منفصلة أو ضمن مجموعة من الأبحاث، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أي لغة أخرى دون حاجة إلى استئذان صاحبها.
- نسمات لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى من الباحث أن يرفق مع المشاركة نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية مع صورة واضحة مناسبة للنشر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى العنوان الآتي: nesemat@yahoo.com

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

عدد حراء الجديد (٥٧) صفر ١٤٣٨هـ (نوفمبر-ديسمبر) ٢٠١٦م

اقرأ في هذا العدد:

* **بيان القلب ولغة الحال** (المقال الرئيس)
* **منهاج الفاتحين** (تاريخ وحضارة)
* **قلوب وذنوب** (أدب)
* **شفاء القلوب** (تزكية)

... ومقالات أخرى فكرية وعلمية وثقافية

مركز التوزيع: **دار النيل للنشر** | sales.daralnile@gmail.com

مراكز البيع الالكتروني: **www.jamalon.com | www.neelwafurat.com**

Tel. Fax: +22 25379391 Mobile: +2 01000780841 - 01023201001

www.daralnile.com

إصدارة علمية بحتية متخصصة
نسمات
nesemat.com
دراسات حول مشروع الخدمة

”يحث الأستاذ فتح الله كولن على ضرورة تحقيق الربط الجدلي بين العلم والعمل، وبين الفكر والممارسة، بل ذهب أيضًا إلى حد الحديث عن ضرورة إحداث تناغم وتساوق بين العقل والقلب والحركة، وإلا فلا قيمة لشخص يعيش هذا الانقسام الخطير بين مكونات شخصيته.“

”للأزمات دورة زمنية لا تحيد عنها؛ فهي تبدأ هادئة، ثم تثور وتتصاعد فتعصف وترعد، ثم تتطامن وتهدأ من جديد قبل أن تضمحلّ وتتلاشى بما جرفته معها من العَصْف المأكول! ويظل «الطيّب» بعدها راسخًا بثباته، شامخًا بتواضعه، متجذّرًا بسكونه وهدوئه، متحلّيًا رجاله بأدب «الأزمة» وأخلاقياتها وقيمها.“

”فتح الله كولن في بنسلفانيا يمارس وظيفته التي دأب على القيام بها منذ أكثر من خمسين سنة، وهي التدريس وتأليف الرجال الذين يرشدون الإنسان، وتأليف الأفكار التي تبني الإنسان.“

ISBN 978-9778010329
9 789778 010329